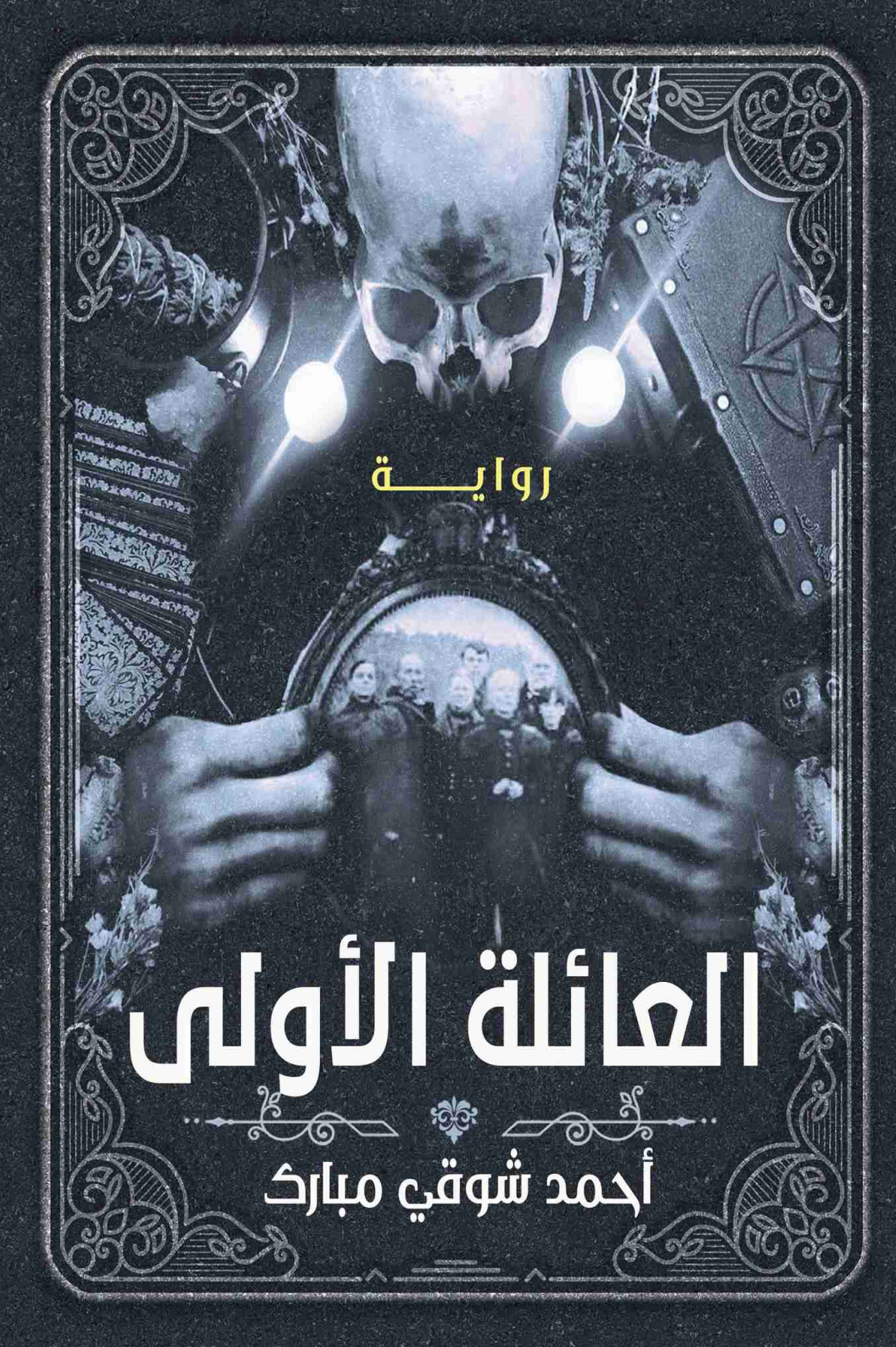
رواية
العائلة الأولى
أحمد شوقي مبارك

العائلة الأولى

الكتاب: العائلة الأولى
الكاتب: أحمد شوقي مبارك
الترقيم الدولي: 13 9789777783149
الطبعة الأولى: 2023
تم تجهيز هذه النسخة بواسطة: أشرف غالب / ميساء طه
جميع حقوق هذه النسخة محفوظة لصالح: مكتبة ضَـاد

عمارات منتصر - الهرم - الجيزة 20
011 27772007-02 35860372
Noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

t.me/twinkling4

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَاد، الإلكترونية. ©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.

ميساء طه.

إلى شيماء دائما وأبدًا....

في عالم الرواية طوّر القاتل المأجور (قيس) معزوفة تارتيني الشهيرة بـ (معزوفة الشيطان)، وصارت سلاحًا ضد كل من يسمعها فهي تُستخدم في رفع هرمون السيروتونين المسؤول عن الشعور بالسعادة إلى حدود لا يتحملها الجسد البشري فيدخل الإنسان في نوبة سعادة هائلة تقضي عليه..

صفحتي الأخيرة

٢٠١٢

الشارع مظلم ومهجور رغم أن الوقت مازال باكرًا فلم كل تلك العتمة؟ ظللت مختبئًا أمام المكان المقصود منتظرًا ظهور هؤلاء الملاعين، ولكن الانتظار طال حتى أنني بدأت الشك في كل شيء وصلت إليه، من المفترض أن يكونوا هنا الآن ما الذي حدث؟ ما الذي أخطأت فيه؟ الكثيرون يعتمدون على ما سيحدث في تلك الجلسة التي أتمنى أن تكون الأخيرة.

فجأة رأيت شبحَ إنسانٍ يدخل الزقاق يرتدي عباءة فضفاضة ودائم الالتفات حوله، كان رجلًا في منتصف العمر وله قوام رياضي ممشوق كلما اقتربتُ ظهرت ملامحه أكثر، فأخذت أنظر للعلامة التي أبحث عنها، أخبروني أن عينيه لهما بريق أحمر تحسبه شيطان هارب من الجحيم أو هو كذلك بالفعل أو من المحتمل أنه يرتدى عدسات لاصقة تمنحه تلك الهيبة والنظرة المخيفة لا يهم الآن طبيعته المهم أن ينتهي الأمر كما خططت له.

دخل بيتًا أمامي فانتظرت دقائق أخرى ولكن حينما حانت لحظة دخولي ترددت وفكرت لحظة أن أرحل من هنا وأبتعد عن كل شيء. ولكن ماذا عن تلك السنوات التي تتبعت فيها هؤلاء القوم؟

اقتربت من البيت بحذر فرأيت نفقًا مظلمًا طويلًا، كلما توغلت فيه أكثر سمعت همساتهم يتكلمون ويغنون ،أناشيدهم، كما قرأت عنهم يفعلون لا أصدق أنني أخيرًا على وشك كشف أمر العائلة الأولى للجميع، تلك الأسطورة واللعنة التي بدأت من حضارة بابل ثم توسعت إلى مصر

القديمة وكان لها جذور صلبة وقوية في العالم الفارسي القديم، أحاطت العائلة الكثير من أسرار الأساطير المثيرة حتى أن العربي المجنون وصفهم في كتابه «قوم ذو القرنين»، بشاربي الدماء وقرأت في مخطوطاته أن أعظم انتصار تحققه أمام أبناء العائلة الملعونة هو أن تتجنبهم إلى الأبد، عبر التاريخ سقطت تلك العائلة مرتين وها أنا على وشك هدم أسطورتهم للمرة الثالثة والأخيرة. وقفت أمام غرفة الأناشيد وأنصتُ لهم جيدًا، سمعتهم يقولون: أبونا يعلم كل شيء... كنا من الأزل إلى الأبد. سقطنا مرة عدنا شامخين. سقطنا ثانية عدنا لا نقهر... أبونا يعلم كل شيء... لن ننسى ثأرنا من الفرس والقدماء وكل الخائنين... آمين.. آمين... فتحت ثغرًا صغيرًا في الباب وتأملت المشهد الغريب، خمس رجال وسيدة بالإضافة إلى ذي العينين الحمراوين الذي سبقني بالدخول مباشرة يرتدي كل منهم قناعًا يغطي ملامحه عدا فمه، تعجبت من أين جاءوا هؤلاء وكيف دخلوا جميعًا دون أن ألاحظهم بالرغم انتظاري الطويل لهم خارج البيت يجلسون حول طاولة عملاقة يعلوها جثة سيدة مقيدة من أطرافها الأربعة، حركت السيدة أناملها على ذراع الجثة المقيدة، وقالت:

- أخيرًا شيء ما طازج، سئمت طمس الهوية الذي نعيش فيه.. كان للاندماج ثمن باهظ.. أعظم شيء في طقوسنا وصلاتنا هو الارتواء.

نهض رجل من الحاضرين واقترب من الجثة هو أيضًا وكان يقبلها من ذراعها، ولكن... لا مهلًا أنه لا يُقبلها، بل يغرس أسنانه فيها، أظنه يأكل لحمها، ولكن فجأة رأيت اليد تتحرك والجثة دبت فيها الحياة وتحاول تخليص نفسها من قيودها، لم تكن السيدة ميتة، بل مغشيًا عليها، لن يكون هؤلاء الحاضرين مجرد أعضاء في منظمة سرية كما أخبروني،

ولكنهم من جماعة شاربي الدماء لم تكن المخطوطات تبالغ حينما وصفتهم بذلك، بل كانت تتحدث عنهم بشكل حرفي!

ظلوا يغرسون أسنانهم الطويلة في جسدها وهي تتألم بصوت مكتوم نظرتُ إليهم وهم يشربون دماءها بنهم شديد فأخذ جسدي ينتفض من هول ما يحدث، طالما رأيت أفلامًا عن مصاصين الدماء وقرأت عنهم في القصص والروايات ولكن ما أراه الآن أكثر رعبًا وخوفًا، في الدراما التليفزيونية كانوا يظهرون هؤلاء القوم بشكل أكثر جاذبية ومرحًا ولكن ما أراه أمامي الآن مجرد حيوانات بشرية لا شيء يسيطر على عقلها سوى إشباع رغبتها في الدماء.

كان هناك شخص بينهم كأنه متردد بعض الشيء مما يحدث، أمسكت السيدة يد الفريسة وعصرتها عصرًا وملأت كوب بدمائها ثم منحته إلى ذلك الحائر الخائف.

- يجب أن تشرب هذا يا أخي

أمسك الرجل الكوب في قلق ثم رفع قناعه وبدأ شرب الدماء، فحانت الفرصة وأخذت في تصوير كل شيء لمدة دقائق مع تركيز شديد على ملامح ذلك الشخص الكاشف عن وجهه، بعد لحظات انتهى الرجل من تناول الدماء ووضع الكوب على الطاولة وكاد أن يفرغ معدته، ولكن تلك السيدة منعته وابتسمت وهي تمنحه رمحًا خشبيًّا.

- تفعلها أنت أو أفعلها أنا.

قبل أن يرد غرست السيدة النصل في صدر أخيها فشهق وسقط جثة هامدة في الحال يا إلهي ما الذي يحدث بحق الجحيم!

همستُ بها داخلي وقررت الرحيل وأيضًا إيقاف رحلة بحثي ونسيان كل شيء يخص أمر العائلة الأولى، في ذلك الوقت الحرج علمت سر بقاء تلك الجماعة على قيد الحياة، طوال ذلك الوقت لطالما سألت في عجب عن سرهم والآن علمته، ولكن أخشى أنني لا أمتلك أي شجاعة حتى أعلن ذلك للجميع.

حاولت الرحيل والابتعاد ولكنني تعثرت بشيء ما ومن الواضح أن حاسة السمع لدى شاربي الدماء مثيرة للغاية سمعت أحدهم يصرخ لآخر:

- آتِ لنا بمن في الخارج وإياك أن يهرب منك!

***

الموت يلاحقني..

يجب أن أهرب الآن.. مدينة الإسكندرية الغالية لم تعد تتسع لي....

يجب أن أهرب الآن قبل أن ينفجر ذلك البركان الثائر...

جوار شريط القطار أجري وسط ظلام موحش وهدوء أشد وحشا حاولت الاختباء في أحد الأزقة، ولكنه ما زال خلفي...

أسمع خطاه تقترب مني،

يا إلهي.. أظنُّ أنّ اللّحظة قد حانت وأنّ المطاردة التي بدأت قبل بضعة أشهر تشرف على الانتهاء الآن يريدون كتم صوتي إلى الأبد، يخشون ما صرت أعلمه عنهم ويطاردونني كأنني وحش قادم إليهم من تحت الأرض...

الموت يلاحقني وأخشى أنه لا مفر هذه المرة!

أنظر إلى الطرف الآخر من الزقاق محاولا البحث عن الخلاص، ولكن الظلام يسدل ستائره فيحجب كل شيء عن رؤيتي قلبي يعلم أن ما أفعله الآن مجرد محاولات بائسة للبقاء على قيد الحياة، ولكن أي حياة وأنا مطارد فيها دومًا؟ شعرتُ بخطواته تقترب أكثر فلم يعد يوجد مجال الآن للتردد، بدأت أجري من جديد ناحية الظلام، كنت أتمنى لو ذابت جزيئاتي داخل جزيئات تلك العتمة، وفجأة وجدتني أمام بوابة بيت قديم مهجور فلم أفكر مرتين قبل أن أقتحم بوابته القديمة، علمتُ في تلك اللحظة أن ما أسلكه الآن من طريق لا عودة منه، أمامي وُجد سلم ضيق أخذت أصعد في الحال وعقلي يتذكر كل الخطوات والتحركات والأمور والقرارات التي آلت بي إلى تلك اللحظة الحرجة في حياتي.

كان اللعين في الأسفل يبحث عني في الظلمات، فحاولت تخفيف وطأة أقدامي حتى لا يسمعني، ولكنه انتبه بعد لحظات قليلة بمكاني، وفجأة سمعته يصعد الدرج خلفي فلم أعد أتحرك ببطء، بل أخذت أجري نحو الأعلى بأقصى سرعة لدي. كان لا يتراجع مطلقًا، بل يزداد قوة وسرعة كلما مر الوقت كأنه لا يتعب ولا يرهق وعازم على تنفيذ مهمته.

لو كان ذلك الملعون فكر قليلاً وتعاون معي لربح أكثر بكثير مما منحوه إياه للتخلص مني.

وصلتُ إلى الأعلى فوجدني على سطح قديم بلا أسوار، اقتربت من حافته ووقفتُ أنظر إلى الدرج منتظرًا ظهور ذلك القاتل فلم تمر إلا لحظات وبدا أمامي ينظر لي في غيظ وغضب شديدين وقال:

- أين الكاميرا أيها الأحمق!

- لن أمنحك شيئًا.. لن أمنحك شيئًا على الإطلاق...

تقدم خطوتين ناحيتي، وتابع بصوت يشبه التوسل:

- بالله عليك يا أخي يجب أن تمنحني تلك الكاميرا الآن أنت لا تعلم قدراتهم ونفوذهم.

- بل أعلم كل شيء عنهم...

أقف مُحاصرًا الآن على حافة المبنى إما الموت بالسقوط أو الموت على يدي ذلك الرجل المأجور للتخلص مني، يحدق في عيني بغضب أو قلق كأنه يخشى الفشل في خطته فيقتلوه ويشربوا دماءه جراء ذلك، فأعجبتني تلك الحيلة الماكرة كثيرًا ونظرت إلى الأرض متأملًا، فقال القاتل:

- أرجوك يا أخي.. لم يفت الأوان بعد!

ولكنني سأقوم بتلك التضحية من أجل أن يعلم الجميع سركم أيها الحمقى!

نظرت إلى الشارع من جديد وبدون تفكير هذه المرة قفزت وأنا أسمع

صوت القاتل صارخًا:

- توقف!

وفجأة عمّ السواد كل شيء..

القسم الأول

الدماء هي الحياة!

٢٠٢٢

-١-

فريدة

شاب وسيم ذو شعر قصير ولحية بشعرٍ مشذب تزين وجهه الأبيض، لديه حدقتان زرقاوين، ولكن عينيه شاردة النظرات بقوة تعبر عما يخفيه ذلك الثلاثيني الجميل، لا خاتم في أحد أصابعه يفسر ارتباطه العاطفي، أمعقول كونك وحيدًا أيها الصغير؟

أمسكت ملفه وحاولت قراءة بياناته حتى أعلم المزيد عنه، ولكن الرجل الوسيم لم يدوّن في ملفه سوى اسمه المشابه لهيئته: (تيام) حسنًا أيها التيام الغامض الفاتن إلى متى تنوي الصمت فكم من أمثالك حاولوا كتم أسرارهم ولكنّ سحري غلبهم وحطمت شوكتهم وتوغلت بداخلهم وانتزعت خطاياهم والخبايا الدفينة.

تفضل أيها الوسيم.. أقصد أستاذ تيام.

لماذا عيناك مألوفان لي إلى ذلك الحد الغريب! لم أقل هذا بكل تأكيد.. لكن ربما سمعها عقله اللاوعي لطالما آمنت وصدقت بالتخاطر وأن القلوب والعقول يمكنها نقل الأفكار عبر طرق غير مرئية وأن الأحاديث ليس مصدرها الوحيد الكلمات المنطوقة، فكم من كلام قيل دون تهتز شفتيّ إنسانٍ.

جلس وعيناه لا ترتابان من المكان فعلمت أنني لست الطبيبة النفسية الأولى في حياته، وأنّ ذلك الرجل بحث كثيرًا وطويلا عن حل لمشكلته للوهلة الأولى، في تحليل حركة جسد الرجل لا تجد فيه شيء غريب، ثقته وثباته يخفيان مرضه النفسي بشكل كبير، لطالما كنتُ قادرة على تحليل جزء كبير من المرض بمجرد النظرة الأولى، ولكن ذلك الشاب يجتهد كثيرًا من أجل إخفاء اضطرابه النفسي.

ارتعش هاتفه فأسرع في كتم صوته كأنه يشعر بالحرج من أي مصدر صوت أو ضوضاء تجلب الانتباه إليه، ووضع الهاتف على الطاولة أمامي، ولكن المتصلة فعلتها من جديد وأصرت أن تضع صاحبنا في موقف لا يحبه فرنّ الهاتف من جديد وبسرعة رمقت الاسم (تمارا). ومن تكون صاحبة هذا الاسم المثير يا صغير؟ هل تشعر بالحرج لأنك تعاني من مرض نفسي أيها الجميل ؟ هل تشعر بالحرج أنك على علاقة بإحدى السيدات؟

لم أقل هذا أيضًا بكل تأكيد...

- ليست المرة الأولى.. صحيح؟

تردد للحظات كأنه لا يفهم معنى سؤالي حيث إنه ظنّ أنني أقصد علاقته بتلك المتصلة، فأردفتُ موضحة أكثر:

- أقصد أنني لستُ الطبيبة النفسية الأولى في حياتك.. أشعر أن لك تجارب سابقة مع الطب النفسي، ومشاعري تخبرني أنها لم تكون على قدر كبير من النجاح...

فهم تيّام قصدي أخيرًا وقال بنبرة سريعة كشفت كثيرًا من توتره وقلقه:

- الثانية!... المرة الثانية.

كانت لكنته رغم رعشتها مثيرة، فتحسبه في البداية ليس من بلادنا، ولكن سرعان ما تتجاهل ذلك الأمر أمام عينيه الغامضتين وخصلات شعره الناعمة وابتسامته الكاذبة وحزنه العميق، بعد لحظات أدركت صمتي الغريب والمنافي لطبيعة عملي، وأخذتُ أبحث بداخلي عن كلمات أنطق بها، ولكنّ الأمر كان شديد الصعوبة.

- لماذا أشعر أنك غير مرتاح هنا؟ ... عزيزي أنت هنا حتى تتخلص من كل همومك وآلامك رحلتنا معًا لتجدد شخصيتك بالكامل وتبدأ رحلة حياتك من جديد، ولكن بدون شك كل هذا مرتبط بمدى رغبتك الحقيقية الدفينة في ذلك الأمر.. يجب أن تساعدني وتحرر روحك وتعترف أنك لست بخير.

- وهل يوجد خير في ذلك العالم يا دكتور؟ رحلتنا في الحياة كأنها تكفير عن ذنب لم نفعله قط في حياتنا!

- هذا صحيح نسبيًا، ولكن كل حركات جسدك تحاول إخفاء آلامك... عقلك الباطن يرفض الاعتراف بالأمر كأنك تخجل من شيء ما.. الاكتئاب والقلق والتوتر كلها أعراض شائعة، بمجرد تفريغ الطاقات السلبية بداخلنا نتحرر منها.

- أنا لست هنا من أجل الاكتئاب أو القلق أو التوتر.. الأمر أعقد من ذلك بكثير جدًا.

صمت كلانا لحظات قطعها تيام سريعًا بسؤال مباغت غير معتاد:

- هل رأيت الشيطان من قبل أيتها الطبيبة؟

إذن أنت تعاني من هلوسة شديدة، لستُ في حاجة أن أكرر بالتأكيد أنني لم أقل ذلك، دوّنتُ في المفكرة أمامي كلمة Hallucination ثم سألته:

- لماذا تركت طبيبك الأول يا تيام؟

تنهد وضحك ثم همهم

- هذه ليست إجابة سؤالي!

فكرت لحظات ثم أجبته بنبرةٍ دبلوماسيّة:

- الشيطان كلمة لها معاني كثيرة.. لكي أمنحك أدق إجابة سوف أحتاج إلى أن تقص أشياء عدة حتى لا أخبرك إجابات غير دقيقة.

ابتسم وشرد ذهنه كأنه يتذكر ماضيه مع الطبيب السابق، ورمقته يعتصر شفتيه لا أعلم كان غضبًا أم يأسًا، تبًا كانت عيناه مألوفتين بشدة، أشعر أنني رأيتك من قبل بحق الجحيم، ولكنني لا أتذكر متى ولا أين...

قال تيام بعدما صمت لحظات:

- لا أعلم، فقد إيماني بالطبيبة الأولى وكنت على يقين أنها لا تمتلك الحل.. جلسة تلو الجلسة واستراحة خلف الاستراحة وسرد الحكايات والذكريات ولا أسمع منها سوى أنها تشعر بآلامي وتخبرني أن كل شيء سوف يكون على ما يرام تسألني دومًا هل تزورني أفكار سلبية، كنت حينذاك أخبرها بأنه (لا)، ولكني أكذب.. كان كل ما لدي في تلك الأثناء هي الأفكار السلبية.

دوّنت كلمات إنجليزية أخرى في مفكرتي، سعدتُ أن الشاب بدأ في التحرر والتعمق في داخله ووصف مشاعره حتى لو كانت كلها عن كره للطب النفسي وعدم ثقته في الأمر كله....

- جيد، إنك فقدت إيمانك بالطبيبة فقط وليس بالطب النفسي كله... قدومك إلى هنا اليوم مع كل تلك الأفكار خطوة إيجابية لا تأتي سوى من شخص يريد بالفعل التحرر من مرضه. أي نوع عصير تفضل؟

لم يرد كأنه لا يسمعني فكررت سؤالي:

- أستاذ تيام؟

انتفض ونظر لي فابتسمت محاولةً بث الأمان في قلبه وسألته:

- أي عصيرٍ تُفضل؟

هز رأسه وأجابني:

. هل يمكنني أن أطلب فنجان قهوة؟

- لا نفضل القهوة في جلساتنا النفسية كما أنصحك بشدة ألا تتناول القهوة خلال الفترة القادمة، ولو ضاقت بك الحياة ففنجان يوميًا خلال الفترة الصباحية سيكون مناسبًا.. المهم الآن أتريد عصير الليمون؟

هزّ رأسه موافقًا كلامي، ولكنني علمتُ أن الفتى المسكين يشعر بالملل من كلماتي وتعليماتي التي أبثها بنا خلال حديثي معه. فقال مغيرًا دفة حديثي:

- من أين تحبين أن أبدأ الحكاية يا دكتور؟

متعجل أنت يا صغير لم أقل ذلك، بل أجبت:

- ابدأ من حيث شئت.. أنا أسمعك جيدًا.

***

أخبرني تيام أنه في منتصف ثلاثينيات عمره وأنه شهد طفولة غير مستقرة: تركه أبوه في الصبا ونشأ الفتى وحده، ثم تجاوز حكايته عن الطفولة والصباء وأخبرني عن شغفه وحلمه بأن يصبح أديبا ويكتب الحكايات والروايات، ولكن سرعان ما تحولت الموهبة إلى لعنة حينما لم يستطع الكاتب الصاعد جني أي أموال وأرباح من أعماله الأدبية، فساءت أحواله وتفشى الاكتئاب في دمائه حتى زوجته لم ترحمه ووضعت المسمار الأخير في نعش حلمه حيث قالت له في أشد لحظات ضعفه وألمه:

- لا بُد لك أن تترك أوهامك وسعيك الخاطئ وتعود بنا إلى الطريق الصحيح.

يقول تيام أنه في ذلك اليوم قابل منتجًا سينمائيًا شهيرًا، وأن حلمه أصبح قريبًا أكثر مما كان ولكن زوجته لا تسمع ذلك ولا تريد سوى تحطيمه وكسر شوكته إلى النهاية.

- ألم تسمعي كلماتي أخبرتك أنني قابلت اليوم مدحت عوف.

ضحكت زوجته بسخرية شديدة:

- ثم؟ هيا أخبرني ما الإنجاز في مقابلتك ذلك المنتج الأحمق!

بصعوبة شديدة كتم تيام غيظه وأجابها:

- الأحمق قرأ كل كلماتي، ويرى أن لي مستقبلا باهرًا في الدراما السينمائية كما منحني خمسة آلاف جنيهًا مقدمًا لشراء مجمل أعمالي.

النبرة الساخرة صارت كحائط يزداد طولًا وسمكًا بين الطرفين، صمت تيام وهو يعلم أن علاقته بزوجته على شفا حفرة من النار وأن النهاية صارت وشيكة أكثر مما كانت، ولكن السيدة سئمت الحياة وصرخت:

- خمسة آلاف جنيهًا عن مجمل أعمالك ألا تسمع صوتك! ألا تدرك معنى كلماتك؟ أعمالك لا تجني الأموال ولا تأتي لنا بالطعام حتى... أعمالك لا تساوي أكثر من خمسة آلاف جنيه يا رجل، يجب أن تعود إلى الطريق الصحيح والمسار الحياتي الطبيعي.. لم يخلق الجميع حتى يكونوا مميزين، أنت لست مميزًا يا تيام تقبل هذا حتى لا تدمر كل شيء بقية حياتك.

تسارع دقات قلب الفتى وشعر بصعوبة في التنفس، وكاد يظن أنه على وشك الإصابة بنوبة قلبيّة ولكن الأطباء أخبروه سابقًا ألا يقلق. وأنها مجرد نوبة فزع لا علاج لها سوى التجاهل فاطمئن تيام لحظات. وصاح في زوجته مدافعًا عن نفسه وأفكاره:

- ومن قال إنّ ذلك الطريق هو الصحيح!

يكاد يجن جنون المرأة من سؤاله فأجابته إجابتها المعتادة:

- المنطق العالم كله ... أنت تسعى في الطريق الخاطئ والكل أخبرك بذلك، ولكنك تظن أن الكل يريد خداعك، تظن أننا نرفض نجاحك أو نغار منه.. يا أخي الجميع صار أفضل منك.. الجميع مشفق عليك. صرت أشعر بالخجل من ذكر اسمك أمام الجميع...

اقترب الفتى من زوجته وأمسك ذراعها برفق محاولاً تهدئتها:

- أنا لم أكذب عليك.. منذ البداية أخبرتك أن ذلك هو طريقي وشغفي.. أنسيت جلستنا أمام البحر في بداية زواجنا حينها أخبرتك أن الكتابة والأدب عشقي؟ حينها كنت غير ذلك لم أعتد منك تلك النبرة الساخرة مطلقًا..

دفعت الزوجة تيام بعيدًا عنها وصاحت من جديد:

- وأنا ايضًا لم أعتد الجوع من قبل!

أمسكت الزوجة كوبًا زجاجيًا وألقت به في المرآة فتهشم كلاهما وصاحت من جديد:

- اللعنة على طريقك وشغفك وأحلامك الزائفة.. ابنك يحتاج إلى علاج والبيت يحتاج إلى الطعام والسيارة تحتاج إلى بنزين وحتى هذا البيت يحتاج إلى رجل حقيقيّ يقوده.

لطم تيام زوجته بقوة شديدة ثم تراجع للخلف فعادت أنفاسه تتباطأ من جديد وصار غير متأكد إن كان ما يشعر به الآن مجرد نوبة فزع أم أن قلبه لم يعد يتحمل ما يحدث حوله وقرر التوقف عن الحياة أخيرًا، قالت الزوجة بغضب شديد:

- أتضربني وأنا أخبرك الحقيقة..

ساد الصمت لحظات بين جانبيّ الصراع ثم أردفت السيدة:

- أنا أريد الطلاق منك ولا تقلق سوف أبرئك من كل حقوقي ويُحتمل أن أدفع أيضًا مصاريف الطلاق كلها، ولكن امنحني حريتي الآن أيها الملعون.

أخبرني تيام كم كان يود قتلها في تلك اللحظات، أراد خنقها بيده، أو تقطيع أوصالها، أو تهشيم ،عظامها، أو كل شيء معًا. كان يسب ويلعن في الحياة التي فعلت به تلك الأفاعيل وجعلت أضحوكة في وسط الجميع كان يريد الرجل التخلص من زوجته ظنًا منه أنه سوف يقتل العالم كله معها.

ولكنه لم يفعل ذلك...

***

كنت حزينة وأنا أنصت إلى كلمات هذا الفتى شعرتُ بكل كلمة نطق بها حيث إن حكايته لا تختلف كثيرًا عما عشته في الماضي، مؤسف أن تعيش وحدك داخل حلم لا يؤمن به سواك صمت تيام طويلا وكاد أن ينهار أمامي فقلت له:

- هذا مؤسف وزوجتك قاسية في كلماتها وحسب ما فهمت أنك أخبرتها منذ البداية عن طريقك وهي وافقتك والآن تحملك كل الأخطاء.. عادات النساء اللعينة.

لم يهتم الفتى بكلماتي، وقال:

- أتعس الناس من كان بلا صديق، وأتعس منه من كان له صديق وخسره.. زوجتي كانت صديقة قبل أن تغيرها الأيام وتطفئ نور أنوثتها نهايته... أنا لست هنا لشأن زوجتي أو عادات النساء، أنا فقط أردت أخبرك باختصارٍ عن حياتي السابقة ومجملها قبل أن أقفز بك إلى سبب زيارتي هنا.

قطعت رغبته في الحديث وسألته بشكل مباغت:

- هل أنت غاضب ؟

تنهد لحظة ثم أجابني

- بل يائس!

صمت لحظة، ثم أضاف:

- كانت جيشي الوحيد في لحظة حطمني فيها الجميع، فحينما طعنتني رأيت كل أيامي وأحلامي تتهدم أمام عيني، قتلت أحلامي أكثر من أي إنسان آخر، لم يكن أحد يستطيع كسر قلبي كما فعلت هي.

سريعًا بدأ الفتى يحكي لي عن يوم من أيامه، كانت مجمل كلماته تقليدية ومتوقعة بنسبة كبيرة، أخذ يحكي لي عن وظيفته التي لا يحبها وكيف كان من المفترض أن يقابل المنتج مدحت عوف مرة أخرى بأحد فنادق القاهرة، وفي ظلام الليل شق الطريق بسيارته على سرعة تفوق احترام الظلام وهيبته كان يفكر في ذلك اللقاء المرتقب، يذكر كلمات زوجته القاسية تارة ويأمل حالمًا في تلك المقابلة تارة أخرى، يسأل في عجب: «هل كانت السيدة محقة أم أن الغد يحمل إليه الكثير والكثير من تحقيق الذات أخيرًا؟» يقود الفتى سيارته، ويعبر كل الملفات والإشارات كأنه يتسابق مع أناس لا وجود لهم باحثًا عن انتصار زائف يخبره أن الكون ليس سيئًا إلى هذه الدرجة، ويتخيل أن المنتج سوف يقابله بحرارة شديدة ويخبره أنه قرأ كل أفكاره وسيناريوهاته وأنه مستعد لتنفيذها بالكامل أو بعض منها مقابل مبالغ هائلة من الأموال، أخذ يتخيل ملامح زوجته والغيظ يأكلها أكلا لأن زوجها الذي طالما سخرت منه أصبح كاتبًا مشهورًا يمتلك الأموال أخيرًا، ولوهلة رأى نفسه أمام جمع كبير من الجمهور وهو يحمل جائزة أفضل سيناريو، لم يكن متأكد من نوع تلك

الجائزة وحقًا كان غير مهتم بذلك الأمر، يكفيه التقدير حتى لو جاءت من مركز شباب مغمور بحي شعبي متواضع ولكنه سرعان ما يكتشف سريالية أفكاره فيدهس مكابح البنزين أكثر وأكثر حتى يزيد من سرعتها وفجأة يشعر بخطورة ما يفعله خاصة أن تلك السيارة ليست ملكه بل هي ملك زوجته، فانتفض جسده وخشي أن تتحطم ويضاف سعرها إلى قائمة مديونياته فأوقف السيارة في الحال.

على الجانب الآخر من الطريق رأى تيام سيارة سوداء فارهة تتحرك بشكل غير متزن تحسبها في أول وهلة أن سائقها في حالة من السكر، وتوقع أن مصير تلك السيارة المتأرجحة الانقلاب وموت سائقها، وبالفعل لم تمر لحظات إلا واصطدمت السيارة بحاجز الطريق وتصاعد دخان أسود من مقدمتها، انتفض تيام من المشهد ونظر يمينه ويساره، ولكن الطريق خاليًا تمامًا من البشر.

توقف عن السرد عند تلك اللحظة ونظر إلي متأملًا وقال:

- كانت مشاعري مختلطة بشدة جراء ذلك المشهد المخيف. تارة أحسد ذلك السائق عن نهاية حياته ورحيله عن ذلك العالم الحزين وتارة أخرى أشعر برغبة عارمة في الهبوط من سيارتي والتحرك ناحية سائقها...

ابتسمت، وقلت مقاطعة

- وبالتأكيد سوف تنقذه.

نظر لي تيام، وقال:

- لا ... أفكر في سرقة كل شيء لديه.

ضحكت وضحك الرجل شاعرًا بحماقة كلماته، وقال مُصححًا:

- بالتأكيد لم أفعل ذلك أيتها الطبيبة ويا ليتني تركته ورحلت في تلك اللحظة.

تعجبت من كلماته، فسألته:

- هل أنت نادم على مساعدتك لذلك المسكين؟

- ذلك المسكين دَمَّر حياتي.

***

هبط تيام من سيارته وهو لا يصدق ما يراه أمام عينيه، نظر يمينه ويساره من جديد باحثًا عن أي شخص يسانده في إنقاذ تلك العائلة المنكوبة ولكنه وحيد ،كعادته، اقترب من السيارة في ترقب وتجاهل الدخان المتصاعد من مقدمتها، وجد أسرة بالكامل في حال يرثى لها والدماء تتساقط من رؤوس أغلبها، بسبب تشابك الأيدي والأرجل عجز الرجل عن تحديد عددهم فوقف لحظات في حالة ذهول من المشهد المخيف ولكنه سرعان ما تحرر من خوفه وبدأ في عملية تحريرهم. حينذاك اشتعلت النيران في مقدمة السيارة وبدأت صرخات متألمة تتصاعد من الأسرة.

توقف تيام عن سرد قصته من جديد وشرد ذهنه يتذكر ذلك المشهد. ولكن الفضول كان يأكلني أكلا في تلك اللحظات، أردت أن أعلم مصير تلك العائلة والسيارة، سألته بحماسة شديدة:

- يا إلهي، هل أنقذتهم؟

ولكن إجابته كانت مُخَيّبة للآمال.

- جميعهم ماتوا...

هل كان بينهم أطفال؟

- لا أعلم.. ربما واحد أو اثنين

هنا بدأت أفهم سبب قدوم ذلك الشاب الوسيم لي، من الواضح أنه يعاني من صدمة شديدة لأن سيرته الحياتية زادت إخفاقًا جوار إخفاقاته القديمة، ذلك الرجل يشعر بذنب كبير وعميق ويحمل نفسه سبب رحيل تلك الأسرة، ولكنني فجأة تذكرت كلمة قالها لي قبل لحظات

- ولكن ألم تقل إن هناك من يصرخ ؟

صمت لحظة يتذكر، ثم أجابني:

- نعم، ولكن السيارة انفجرت بعد لحظات وتعرضتُ إلى إصابة شديدة حيث غبت عن الوعي قرابة يومين ولكن حينما عدتُ تغير كل شيء في حياتي.

دخلت مساعدتي في تلك الأثناء وجلبت معها العصير والماء ووضعتهما أمام تيام فأخذ الماء سريعًا وشربه، وأخذ كلانا هدنة سريعة نظرت حينها إلى مساعدتي وطلبت منها عصير برتقال آخر لي، فأومأت ورحلت في الحال، رمقني تيام منتظرًا منحه إشارة حتى يستأنف قصته.

- بالتأكيد حينما استعدت وعيك ورأيت فناء أسرة بالكامل أمام عينيك، تأثرت وانغمست في قالب أسود ولم تستطع الخروج منه حتى الآن..

صدمة ما بعد الكارثة مشكلة نفسية منتشرة، ولكن الخبر الجيد أن علاجها ليس بالأمر الصعب، سوف يأخذ وقتًا، ولكنه ليس مستحيلًا.

رشف تيام من كوب العصير وابتسم قائلا:

- حسنًا، أنت محقة، أنا قرأتُ كثيرًا عن اضطراب ما بعد الصدمة وغيرها من الأمور وأعلم الوقت الزمني الكافي للعلاج حتى أنني أعلم أن العلاج عشرين مليجرام من السيتالوبرام صباحًا وخمسة عشرة مليجرام من الريميرون قبل النوم مناسب جدًا لحالتي، ولكنني لم أقصد ذلك.. أنا لم آتِ إلى هنا حتى أقص عليك اضطراب ما بعد الصدمة أو محتمل إنني لم أحكِ الصدمة الحقيقة بعد.

- ماذا تقصد هل يوجد المزيد؟

- نعم يوجد المزيد.. يوجد المزيد.

- حسنًا...

تنهد تيام لحظة ثم قال:

- سائق تلك السيارة هو رب الأسرة المنكوبة حينما تأزم الموقف كثيرًا وصارت على أعتاب الانفجار وعلم كلانا أن الموت يطوف حول المكان ولا سبيل للنجاة، رأيت الرجل في حالة سكون وهدوء ظننته في حالة صدمة اقتربت منه لعله يفتح أبواب السيارة من الداخل لو كانت مؤصدة إلكترونيًّا، طلبت منه ذلك مرارًا وتكرارًا ولا أعلم إن كان يسمعني وفجأة منحني ذلك الشيء...

أخرج تيام من جانبه بطاقة ائتمانية سوداء اللون شكلها مختلف ومميز ولا تشبه مثليتها من البطاقات ثم أضاف بأن السائق تحرك وأمسك قميص تيام وقال له بألم ويأس شديدين:

- يجب أن تكمل ما بدأته.. يستحيل بعد كل ما فعلته ببساطة أموت كنت على وشك الانتهاء يا حسرتاه!

لم يفهم كلماته، ولكنه توقع أن السائق يهذي من جراء إصابته...

- سيدي أنت مريض يجب أن تساعدني حتى نخرجك أنت وأسرتك من هنا.

رفع السائق يده الثانية فوجدها تيام تحمل هاتفه وأيضًا ورقة صغيرة تحتوي على عدة أرقام بدون ترتيب أو تسلسل أخذها تيام في الحال.

- لا أفهمك يا سيدي ماذا تريد مني أن أفعل؟

كان السائق يصر بحركاته على أن يأخذ تيام البطاقة والهاتف.

- دمرهم!

- من تقصد؟

- العائلة! .... العائلة الأولى، ولكن كن حذرًا، أبونا يعلم الحقيقة كلها... أبونا يعلم الحقيقة كلها!

أمسك تيام البطاقة ونظر لها متأملا لونها الأسود المميز ورمز السفينة المنحوت عليها ولاحظ أيضا عدم وجود اسم بنك معين تتبعه تلك

البطاقة، للوهلة الأولى شعر أن تلك البطاقة تابعة لبنك ما في بلد أجنبي، تساءل تيام:

- ما هذا!... بطاقة ائتمانية!... بربك يا رجل أنا لا أفهم أي شيء على الإطلاق.

في تلك الأثناء وجد تيام سيارة أجرة تهدأ سرعتها ببطء فشعر بالسعادة وقال للسائق المصاب:

- ربما جاءت مساعدة السماء.. هؤلاء القوم سوف يساعدوننا.

ولكن السائق لم يسمعه وأجابه بكلمات أخيرة قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة:

- يجب أن تدمرهم بالكامل.. يجب أن تدمرهم.. أبونا يعلم الحقيقة كلها.. يعلمها كلها..

كان تيام لا يفهم أيّ شيء على الإطلاق، ولو عاد به الزمن لكان ألقى بتلك البطاقة في مكانها ورحل ووقتها كان السلام قد عمّ كل شيء وظلت العائلة الأولى في الظلام إلى ذلك الحين، قال تيام للسائق المسكين:

- ماذا تقصد يا رجل وإلى أي بنك تابعة تلك البطاقة؟ وما هذا الرمز!... ما الذي ورطت نفسك فيه بحق الجحيم!

قالها تيام ولكن لا رد هذه المرة رحل الرجل وترك الشاب ومعه مفتاح باب كان يجب ألا يُفتح مات الغريب وترك الشاب معه خريطة سر من أخطر الأسرار التي ظلت مختفية طوال عدة قرون، توقف تيام عن سرد حكايته وظل صامتًا يتذكر تلك اللحظات ويتمنى لو كان توقف فضوله

عند تلك اللحظة، ولكن هيهات أن يعود الزمن للخلف أو يُحتمل يحدث هذا في قصة أخرى لا نعلم تلاقت عينا الشاب بعيني الطبيبة فقال:

- من هنا تبدأ حكايتي أيتها الطبيبة.. هل لديك وقت حتى أحكي لك كل شيء؟

نظرت الطبيبة إليه وعدلت من وضع نظاراتها.

- بالتأكيد..

***

-٢-

تــيـام

بعد انفجار السيارة لا أعلم ماذا حدث وكيف انتقلت إلى بيتي، فتحت عيني ووجدت زوجتي بالجوار تستخدم الإنترنت ولا تبالي بحالتي الصحية أو يُحتمل أنّ غيابي طال واعتادت عدم وجودي، أو كما قالت مرارًا وتكرارًا إن وجودي وغيابه سواء سألتها بصوت متألم بعدما حاولت النهوض من فراشي وفشلت:

- ما الذي حدث؟ كيف جئت إلى هنا؟

أجابتني دون أن تنظر لي:

- أخبروني أنك حاولت انقاذ عائلة على الطريق، ولكنها ماتت بالكامل وأخشى أنك كنت على وشك الموت معهم ولكنها الأقدار يا صديقي.. الأقدار!

فجأة تذكرت كل شيء، الحادثة والرجل المصاب والبطاقة الائتمانية السوداء، ثم يا إلهي تذكرت المنتج مدحت عوف، تحدثت بدون أن أشعر

- أنا كنت ذاهبًا لمقابلة مدحت عوف.. هل اتصل بي؟

ردت زوجتي بملل:

- لم يتصل.. ولن يتصل يا عزيزي ولا تقلق لا يفتقدك.. لا هو ولا غيره.

لم تنتظر إجابة مني ثم نهضت وغادرت الغرفة كانت تكرهني بشدة وتنظر لي نظرات الشفقة مرارًا وتكرارًا، يا إلهي الحياة مع تلك السيدة أصبحت دربًا من الخيال نهضتُ بصعوبة من فراشي وكدت أسقط مرتين رمقت انعكاسي في المرآة الموضوعة أمام الفراش فرأيت مجموعة من الخدوش في وجهي وذراعي، اللعنة على تلك الحادثة التي تسببت في ضياع اجتماعي وربما مستقبلي كله!

أمسكت هاتفي وأرسلت إلى المنتج رسالة أخبره فيها بالاعتذار عن المعاد السابق ولكنه لم يرد حاولت الاتصال به وأيضًا لم يرد، وبعد ذلك بساعتين رنّ هاتفي، فأمسكت الهاتف في الحال فوجدتُ ملفًا صوتيًا من مدحت عوف بنفسه ناديت زوجتي بمنتهى الضعف والحماقة:

- مدحت أرسل لي رسالة صوتية بالتأكيد يتمنى لي السلامة ويجدد موعدنا.

تحمست زوجتي لحظات وقالت:

- حقًا!

لأول مرة منذ زمن بعيد أرى في عينيها تلك الحماسة، أرجوك يا مدحت لا تخذلني!

شرعت في تشغيل الرسالة ويا ليتني ما فعلت جاءت رسالته يعتذر فيها عن تجديد المعاد ويخبرني أنه وجد سيناريو مناسبًا لأحد الكتاب الآخرين واختتم رسالته بعبارة: (لعل الأقدار تجمعنا يومًا ما...).

رحلت زوجتي دون أن تتحدث وبقيتُ وحيدًا في غرفتي ولأول مرة أشعر بتلك الرعشة التي تسيطر على جسدي ورغبة عارمة في الصراخ، كتمت

آلامي، ولكنني لم أستطع كتم دموعي، فانهارت بقوة وصرت أبكي بصوت مرتفع كطفل رضيع وحيد مسكين.

أخذت مفتاح سيارتي أو سيارة زوجتي ورحلت عن البيت، ولا أعلم إلى أين سوف أذهب ولا متى سوف أعود كل ما كنت أوده في تلك اللحظات هو الابتعاد عن كل شيء بالرغم أنني بالفعل بعيدًا عن كل شيء: لا صديق، ولا حبيب ولا قريب ولا عائلة.. فقط وحيد.

كان الوقت حينذاك في الثامنة مساءً حينما تعثرت في إحدى الطرقات بسبب لجنة أمنية تفتش السيارات لم أبال وانتظرت دوري وحينما وقفت أمام الضابط طلب مني رخصة القيادة ورخصة السيارة منحته رخصة السيارة، ولكنني لم أجد رخصة القيادة، طلبت منه الانتظار لحظة، وأخذت أبحث في جيوبي لعلني أجدها وأنا لا أذكر أين وضعتها آخر مرة، وجدتُ محفظة نقودي داخل جيبي الخلفي أخرجتها، وحمدا لله وجدت رخصة قيادتي، ولكن في أثناء إخراجها سقطت البطاقة الائتمانية التي منحها لي السائق المنكوب رمقها الضابط وطلب أن يفحصها:

- لأي بنك تابعة هذه البطاقة؟

كنت سأجيب وأفسر كل شيء، ولكنه طلب مني التوقف على الجانب وتفتيش السيارة، نفذت الطلب: ترجلت من العربة وتحركت ناحيته محاولا تفسير الأمر، ولكنه كان يتحدث في هاتفه المحمول مع شخص ما توقفت وسمعته يقول:

- نعم سيادة الضابط.. بالتأكيد سوف أعتذر له حالًا...

بالتأكيد لم أتوقع أنني المقصود بالحديث جاء الضابط نحوي وأعاد لي رخصة السيارة ورخصة القيادة والبطاقة الائتمانية وكان في حالة من القلق والتوجس الشديدين...

- أعتذر لك يا سيدي لم نقصد إزعاجك قط.. أرجو ألا تكن لي أي مشاعر سلبية.

ما زالت لا أفهم ماذا يحدث، ولكنني فضلت الالتزام بالصمت فلم أز أي إنسان يكن لي كل هذا الكم والقدر من الخوف والاحترام والقلق شعرت بالاستمتاع الرهيب وودت لو الزمن توقف وظل ذلك الشخص يكرر كلماته مرارًا وتكرارًا يا إلهي كم كنت أفتقد مشاعر القوة والثقة بالنفس.

***

قاطعتني الطبيبة وهي تعدل من وضعية نظاراتها كأنني أخيرًا حصلت على اهتمامها بالكامل:

- كنت سعيدًا بكل تأكيد لأنك أخيرًا نلت ما تستحقه من الاحترام.

ماذا! أهذا هو تعليقك الوحيد؟ ...

لم أفهم لماذا لم تهتم بكل ما قيل رغم أن ما أقوله الآن مثير للاهتمام وكان من المفترض أن تهتم أكثر لأمر البطاقة الائتمانية وتحاول كشف أسرارها ولكنها لا تهتم أو يُحتمل لم تتفاجأ كأنها سمعت تلك الحكاية من قبل نظرت لها ولم أرد على تعليقها واستأنفت الحكاية...

***

جلست في سيارتي وأنا في حالة ذهول أمسكتُ تلك البطاقة الغريبة وقلبتها بين أصابعي لعلني أفهم شيئًا مما حدث، ولكنّ الأمر لا يزداد سوى غرابة وغموض رمقت كلمة The Originals مكتوبة تحت رمز السفينة الموضوع على الجانب الخلفي للبطاقة.

تحركت بالسيارة ثم توقفت أمام أحد المقاهي وطلبت القهوة وجلست وحيدًا أحاول تصفية ،ذهني للمرة الأولى عقلي يشعر أن الوقت قد حان لوضع كلمة نهاية بطريقي ومشواري الأدبي، سخرت من الأمر كثيرًا حيث إن طريقي انتهى قبل أن يبدأ، تذكرت جميع أصدقائي الكتاب ومدى ما حققوه من نجاح وشهرة وكثير منهم تمكن من كسب الكثير من الأموال ثم قارنت نفسي بهم وحزنت على حالي وقررت أن بالفعل آن الأوان بالمضي قدمًا والبحث عن فرصة عمل حقيقية توفر الطعام كما قالت زوجتي.

كان أمامي ماكينة أحد البنوك خالية من البشر يرتعش ضوءها الأخضر كأنه يناديني لاستخدامها نظرت لها تارة وإلى البطاقة الغريبة تارة أخرى وعقلي يفكر عما سوف يحدث إن قمت باستخدامها ثم بدأت عشرات الأفكار الحالمة تأتي إلى رأسي، ولكنني طردتها بسرعة لأن المعتقدات المتفائلة لم تأتِ لي سوى بالمتاعب، وعلى أية حال كلنا نعلم أن لكل بطاقة رقمًا سريًّا لا يمكن تجاوزه.

وضعت البطاقة أول مرة في الماكينة ولا أعلم ما الذي ينتظرني حقًا، أمسكت الورقة التي منحني الرجل إياها ولا أفهم ما معناها، الورق مدون فيها تسعة أرقام متتالية وكلانا يعلم أن كلمات المرور لكل بطاقة هي مجرد أربع رموز لا أكثر من ذلك، الأجواء ازدحمت خلفي حينذاك كانت تزعجني ولا تمنحني وقتًا كافيًا من الراحة في تطلع الأمر بمقدار كافٍ

وهادئ، جارٍ التحميل رجاء الانتظار، ولكن طال الانتظار والناس خلفي بدأت في التذمر فشعرت بالحرج، وفكرت في إيقاف العملية وسحب البطاقة والعودة في وقت الآخر، ولكنّ الفضول منعني من فعل ذلك وفجأة ظهرت عبارة:

«رجاء كتابة كلمة المرور»، لم أكن أعلم ما الأرقام فكتبتُ أربعة أصفار ولكن الماكينة رفضت ذلك، فكتبتُ من واحد إلى أربعة ولكن الماكينة رفضت الأمر أيضًا، بيأسٍ بدأتُ كتابة الأرقام التسعة الموجودة في الورقة.

- وكانت التسعة أرقام كلمة مرورك إلى الثراء الفاحش.

كيف علمت ذلك؟

- متوقع ..

كان مكتوب على الشاشة «مرحبًا بالعضو ٣٢١٠ الحد الأقصى للسحب اليومي هو عشرون ألف جنيه» طلبتُ سحب عشرين ألف جنيه فنفذت الماكينة الأمر وفجأة وجدتُ الأموال بين يدي، وهنا رأيت أحدًا يتابعني بفضول شديد وصدمته في رؤية الأموال لم تمنعه من الحديث.

- كيف فعلت هذا! كيف سحبت أكثر من ثمانية آلاف جنيهٍ؟

سحبت الأموال ودسستها داخل حقيبتي، وأجبته:

- استخدمت أكثر من بطاقة ائتمانية، ولكنك لم تلاحظ ذلك.

أجابني الرجل بالفضول والنظرات نفسها:

- لا، لم تفعل ذلك..

رحلت عن المكان سريعًا وعدت إلى سيارتي وأخذتُ أنظر إلى الأموال وأنا لا أصدق ما يحدث، عقلي يطرح مليون سؤال بشكل متتابع، بحثت عن هاتفي حتى أتصل بزوجتي وأخبرها أنّ كل مشكلاتنا كلت، وأن فقرنا صار دربًا من الماضي، ولكنني لم أجد الهاتف في الجوار، بحثت أكثر من مرة ولم أجده، فشككت أنه سُرِقَ منّي أو فقدته في مكان ما، لم أهتم كثيرًا في تلك الأوقات، وقلتُ في نفسي أنه ليس بالأمر الجلل، وحاليًا بإمكاني شراء العشرات من الهواتف، وفجأة جال في خاطري عدة تساؤلات ماذا لو أوقف أحدهم تلك البطاقة الآن وفقدت تلك الأموال إلى الأبد؟ ماذا لو علم أحدهم أنني سرقت أموال ذلك الراحل؟ طرد عقلي الأفكار سريعًا واطمأنت نفسي إلى أن الرجل هو من منحني البطاقة وأنني لم أسرقها منه ولكنني بكل تأكيد كنت أهذي، فالرجل منحني البطاقة حتى أحرق العائلة ولم يقصد أن أختلس الأموال منها، ولكنني عدت وقلت لنفس إن إحراق أي عائلة لا بد له من مصاريف وربما منحني تلك البطاقة حتى أغطي نفقات الجريمة، ولكن أي جريمة وأي عائلة، وما كل هذا الهراء بحق الجحيم؟

***

توقفت عن الحديث لحظات ونظرت إلى عيني الطبيبة التي تنصت لي وفجأة شككت في كل شيء أفعله الآن، وسألتها:

- هل تصدقين كلامي؟

كان الطقس شديد الحرارة، أخذتُ أمسح عرقي وعريتُ جزءًا من ذراعي فظهر حرق قديم به نظرت له الطبيبة لحظات، ولكنها سرعان ما

أظهرت عدم اهتمام بالأمر ولكنّ الفضول كان يأكل رأسها أكلا فقلت لها وأنا أنظر إلى آثار إصابتي القديمة.

- حكاية قديمة.

ابتسمت الطبيبة وقالت:

- حياتك تمتلئ بالحكايات القديمة أيها الرجل...

شرد ذهنها ثوان قبل أن تضيف وهي تعدل من وضعية نظارتها:

- بالتأكيد.. بالتأكيد أصدقك، بل أصدق كل كلمة تنطق بها.

لم أصدقها وكررت سؤالي بصيغة مختلفة:

- ألا تبدو كلماتي غريبة؟ بطاقة أموال وعائلة لا بد من حرقها ومستقبل صار محبطًا وزوجة تكره زوجها وكاتب وحيد وتعيس.. ألا تبدو كلماتي حزينة وغريبة ومحبطة وكذلك غير منطقية أكثر من اللازم؟

جاء ردها سريعًا هذه المرة:

- أنا رأيت الكثير.. رأيت الأكثر حزنًا وإحباطًا.

شعرت أنها تقصد نفسها دون أي تفسير لذلك، فابتسمت وقلت:

- ربما رأيت الأكثر حزنًا، ولكن لا أظن أن هنالك من هو أغرب مني أنا هنا أخبرك عن بطاقة ائتمانية بها عدد لا نهائي من الأموال أو هكذا ظننت.

همهمت بصوت منخفض للغاية:

- رأيتُ الكثير صدقني..

حسنًا..

- لدي سؤال.

- بالتأكيد.

فتحت الطبيبة المكيف وعدلت درجة حرارته ثم نظرت إلى الساعة حتى تعلم موعد رحيلي.

- ألم تخش تلك الأموال ومصدرها؟ لو كنت مكانك لكنت فكرت مليون مرة في التخلص من تلك البطاقة إلى الأبد كلمات الرجل الراحل عن أمر العائلة لا يبشر بالخير أبدًا، ومن الواضح أن تلك البطاقة ليست من أجل المصاريف والإنفاق كما قلت أنت، بل هي خيط يقودك ربما إلى منظمة مجهولة أو ما شابه ذلك.

هززت رأسي وأخبرتها بثقة وأنا أضحك:

- ولكنك لن تفعلي ذلك..

لم تفهم كلماتي أو ربما ادعت ذلك وسألتني:

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنك بالتأكيد سوف تخشين تلك النقود وبالتأكيد المنظمة التابع لها هؤلاء الأعضاء خطيرة للغاية، ولكنّ الإنسان لن يتحمل أن يلقي ببوابة الثراء تلك.. طبيبتي أنا هنا أخبرك أن تلك البطاقة بها أموال لا تعد ولا تحصى.

همهمت فريدة بعدم اقتناع:

- لا أعلم.

- حينما فكرت في التخلص من تلك البطاقة تذكرت عدد الأعضاء الذي رأيته أمامي: ٣٢١٠، ومحتمل أن يكون هناك المزيد والمزيد.. هل تتخيلين الرقم؟

- رقم مثير.. رقم بالآلاف.

- من سيلاحظ ضياع بطاقة أو اثنين.. أو هكذا كنت أظن، ولكن ذلك . المنطق بك في صدري قدرًا لا بأس به من الأمان ودفعني دفعًا إلى استخدام تلك الأموال بكل أريحية.

- لا أظنك محقًا.

- نعم. كنت أحمق... سأكمل حكايتي.

- بالتأكيد سوف تحكي لي عن هاتفك المفقود...

- كيف علمت ذلك.

- متوقع، وأشعر أيضًا أنك نسيت الهاتف في مكان الحادثة، ومن ثم علم مكانك أفراد العائلة الغامضة ومن هنا صرت مطاردًا.. يا إلهي لو أنك ما زلت مطاردًا حتى تلك اللحظة.

صمت لحظة ثم أضافت ساخرة:

- هل تتوقع أن يدخل أحد أعضاء تلك المنظمة الآن ويحرقون العيادة بكل من فيها .. هذا جيد لو أن سميرة المساعدة سوف تموت معنا.

ابتسمت وأحببت نظريتها وتمنيت لو كانت الأمور بتلك البساطة هززت راسي نافيًا كلامها جزئيًّا.

- ليت الأمور هكذا.. الأمور أعقد من ذلك بكثير. سأحكي لك كل شيء ولا تقلقي لن يقتحم أحد عبادتكِ أبدًا، لكِ وعليك الأمان.

***

بالتأكيد أيتها الطبيبة أخذتْ حياتي منعطفاً تاريخياً ومنحًى ماديًا إيجابيًا لم أكن أتخيله يومًا، دخلت أحد المتاجر حتى أشتري هاتفًا جديدًا بعدما تأكدت من ضياع القديم ودفعت عن طريق البطاقة الائتمانية السحرية، وفجأة رمقت عيناي ماكينة القهوة الإيطالية التي طالما حلمت بها وكنت أعلم أن امتلاكي لها درب من الخيال خاصة وأن سعرها يتخطى العشرين ألف جنيه، فبدون تفكير سحبتها ووضعتها أمام البائع ومنحته البطاقة من جديد ثم قلت له:

- ضع الهاتف والماكينة جوارك، أنا لم أنته من التسوق بعد.

هبطتُ على جميع أجزاء المتجر وأخذت في الشراء بشكل مجنون أخذت الملابس والطعام والأجهزة الصغيرة والكبيرة، سحبت أي شيء وكل شيء فجأة بدأت عيون البائعين تتابع تحركاتي وترمقني بشك أو حيرة وغيرة لا أعلم وضعتُ كل شيء أمام البائع ومنحته البطاقة، هذه المرة نظر البائع للبطاقة طويلا وهو يعلم أن عملية تحويل الأموال لن تتم بكل تأكيد فاستخدام البطاقات الائتمانية لها حد أقصى فيش المشتريات، ولكن لم يعلم أن تلك البطاقة مختلفة عن مثيلتها.

ظهرت عبارة (عملية ناجحة)، على شاشته فمنحني البطاقة وهو لا يصدق ما يحدث أمامه ثم طلب من العاملين في المكان مساعدتي في نقل كل شيء إلى سيارتي.

لم أتحمل الانتظار أكثر من ذلك وقدتُ السيارة متجهًا إلى البيت، طوال الطريق أفكر في رد فعل زوجتي، بالرغم غضبي منها لكنني كنت متحمسًا بشدة لترى حياتنا الجديدة، كنت مخدرًا لا أفكر في شيء، غير مدرك لهول ما يحدث الآن عدت إلى البيت أوقفت سيارتي وفتحت صندوقها الخلفي أخرجت منها كمبيوتر محمول وهاتف من ماركة آبل الشهيرة، دلفت إلى المصعد الكهربائي أفكر في كيفية صياغة الأمور وإقناعها بضرورة التفكير في أفضل صورة لنقل أكبر كمية من الأموال من ذلك الحساب البنكي الغريب إلينا قبل أن يعلم أحد بذلك ويُغلق إلى الأبد.

طرقت الباب، لم تفتح زوجتي فشككت أنها تركتني ورحلت كما هددت بذلك كثيرًا، شعرت بالغضب من تصرفها وتسرعها وأخرجت مفتاح الباب وفتحته ثم دخلت فوجدت البيت غير مرتب وكثير من الأشياء في حالة فضوى، كأنه يوجد من قام بعملية سطو على بيتي وقت غيابي، شعرتُ بالقلق وأخذت أبحث عن زوجتي في كل غرفة بالشقة وهنا كانت المفاجأة حينما رأيتها أرضًا بجوار الفراش أخذت أناديها، ولكنها لا ترد، اقتربت منها أكثر ووضعت يدي على وجهها، كان جسدها شديد البرودة، عقلي غير قادر على استيعاب ما يحدث أمامي.

- يا إلهي ما حدث لك! هل أنتِ بخير؟

لا تستجيب. جسدها متخشب ونبضها متوقف وأنفاسها في حالة سكون ،تام، لا أفهم أيّ شيء على الإطلاق كيف حدث هذا؟ علمت أنها فارقت الحياة، ولكنّ عقلي يرفض تصديق هذا، بحثت عن هاتفي سريعًا حتى

أطلب الإسعاف لعلهم يخبروني بأي شيء أقوم به قبل أن أحملها وأتحرك بها إلى المستشفى وهنا رمقت هاتفي جوارها، سحبته وبسرعة وضعت رمز المرور وجدت واجهة تطبيق واتس آب.

ورأيت رسالة قادمة من رقم غريب وواضح أن زوجتي فتحت تلك الرسالة قبل رحيلها بشكل تلقائي، فتحتها وجدتُ ملفًا صوتيًا يحمل عنوان (هل سمعت الشيطان يغني؟) نظرت إلى جسدها الساقط على الأرض، وهنا علمت أنها لم تسقط بشكل مباغت، ولكن الأمر مدبر وعلمت أيضًا أنها لم تكن المقصودة، بل أنا ولسوء حظنا أنني نسيت الهاتف في تلك الليلة المشؤومة، فتحت الملف وبدأ لحن الشيطان يسيطر على جسدي بالكامل!

التالي في حكايتي يا طبيبة هو شديد الظلامية، كانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها ذلك اللحن المثير، لا أعلم ما حدث لي. ولكن حينها سقطتُ في نوبة لا أعلم إن كانت فزع أو إغماء، ولكنني أتذكر جيدًا أنني رأيت نفسي أقف أمام نسخة تشبهني تماما كأنني أقف أمام مرآة ولكن الصورة المنعكسة تحررت وكسرت سجنها في تلك اللحظة، نظر لي ذلك التوأم المماثل وقال لي:

- لا تقلق أنا أرعاك!

سمعت كلماته ولم أفهمها فسألته:

من أنت؟

رد الرجل وقال:

- لم يعد يوجد وقت.. الآن أنت في خطر ويجب أن تهرب حالا، عازف إبليس سيعود من أجلك!

حينذاك في تلك الرؤية أو المنام كنا نقف في مكان أثري، أظن أنه أحد المعابد في جنوب مصر، عذرًا أنا لا أعلم الكثير عن المعابد وأسمائها فأنا أجهل المكان ولكن سأفترض أنه معبد أبو سمبل احتمال افتراضي قائم على جهلي بأي معابد أخرى، اقتربت منه وسألته من جديد:

- من تكون؟ وماذا تريد مني؟ وأي خطرٍ يحيط بي؟ وأين أنا؟ وهل ما زلت على قيد الحياة؟

ابتسم الرجل لي ولأول مرة أحب ابتسامتي، لطالما اعتقدت أنني لا أمتلك ابتسامة وسيمة، ولكن أظن أنني كنتُ مخطئًا تمامًا في ذلك الأمر.

- هذه أسئلة كثيرة وأخبرتك أنه لا يوجد وقت لذلك.

من بعيد ظهر شبح سيدة قادم من بعيد، لم أكن أميز تفاصيلها، ولكنها كانت تقترب نحونا بخطوات مسرعة بعض الشيء، قال الرجل لي:

- يجب أن تثق بها ...

- ومن تكون تلك السيدة؟ أنا لا أفهم أي شيء على الإطلاق..

- لا تقلق سوف أعود من أجلك...

بدأت تشع أضواء قوية من وجه الرجل المماثل لي، وكذلك السيدة. فصرت لا أقوى على النظر إليهما وظننت أنهما سوف يتعرضان للانفجار قريبا هرولت مبتعدا عنهما في خوف وذعر، وهنا تذكرت المشهد الأخير

قبل قدومي إلى تلك الأرض الغريبة تذكرت الموسيقى التي كنت أسمعها وكيف سيطرت على جسدي وصرت أسيرًا لها.

أغمضت عينيّ وفتحتهما بعد لحظات فرأيت الواقع تغير، اختفى الرجل والمرأة ووجدتني داخل غرفة تمتلئ باللون الأبيض، لم أبذل جهدًا طويلًا حتى أعلم أنني داخل مستشفى، حينما زاد تركيزي رأيت طبيبًا أمامي يحمل صاعق الكهرباء في يده فعلمت أنني كنت على شفا حفرة من الرحيل الأبدي عن تلك الحياة فسألته وأنا أعلم الإجابة:

- أين أنا وماذا حدث؟

كأن الجميع يرفض الإجابة عن سؤالي، اقترب الطبيب مني وأمسك رأسي وضرب ضوء كشافة الصغير في عينيّ، وقال:

- أخبرنا ما اسمك؟

أخذت لحظات أتذكر ثم أجبته:

- تيام.. اسمي تيام.. الآن أخبرني ماذا حدث؟

- لا تقلق أنت بخير الآن كل شيء سوف يتعافى قريبًا جدًا، هل يوجد أحد يمكننا الاتصال به؟

- زوجتي.

- زوجتك زوجتك في ذمة الله.

- ذمة الله.. ماذا تقول بحق الجحيم!

- من الواضح أنكما تعرضتما إلى تسرب غاز ولكن من حسن حظك أنك نجوت.

- عن أيّ حسن حظ تتحدث أيها الأحمق ؟

لم ينتظر الطبيب أكثر وبث في دمائي الكثير من المهدئات ثم انسحب الجميع من الغرفة ذلك الطبيب وتلك الممرضة التابعة له وتركوني وحدي مع ذاكرة مبعثرة لم أكن فاقدًا للذكريات لكن كنت مشتت الأفكار، لا أتذكر سوى ومضات غير مرتبة عن المشاهد الأخيرة في حياتي: بطاقة فيزا تمنحني الكثير من الأموال وكذلك أحد يسعى خلفي وموسيقى سمعتها جنت جنوني.. لا شيء أكثر من ذلك... لا شيء سوى ظلام دامس..

مرت الوقت لم يأتِ أحد، وهنا علمت أن زوجتي بالتأكيد لن تأتي، حاولت الوقوف والنهوض، ولكن الدوار جعل كل شيء يتراقص من حولي فسقطت في الحال ولحسن حظي سمعتني إحدى الممرضات وهنا كانت المفاجأة أن الممرضة هي السيدة نفسها التي رأيتها في أحلامي وطلب مني ملاكي الحارس أو ذلك الرجل المماثل لي الوثوق فيها. ما هذا العبث والسيريالية؟

تقدمت الممرضة مسرعة وساعدتني على النهوض وهي تقول:

- يجب عليك أن ترتاح قليلاً.. جسدك به الكثير من المهدئات.

- أي مهدئات؟ ولماذا!

- لأنك كنت عصبيًا جدًا ليلة أمس، وأخذت تردد الكثير من العبارات المبهمة غير المفهومة.

سألتها عما قلته، فسألت:

- ألا تتذكر!

- لا أعلم...

- مؤسف، كان لدي حماسة كبيرة لأعلم ما مررت به قبل قدومك إلى المستشفى، حيث إن قدومك كان مثيرًا للاهتمام.

صمت لحظة أحاول التذكر، ولكن الصداع ضرب رأسي بقوة فتوقفت عن التفكير في الحال وسألتها بتوسل:

- كيف كان قدومي مثيرًا للاهتمام؟

- قبل ساعات جاء أناس حاملين إياك على أكتافهم قالوا إنهم وجودك ساقطًا أرضًا في حالة تعاني من نوبة تشنجات، هل لديك أي تاريخ مرضي مع الصرع؟

تذكر ومضة خاطفة عن هيئتي وأنا أجري في الشقة شاعرًا بتيار كهربي يسير في عروقي قبل أن يمسكني ويقيد جسدي بالكامل.

- صرع؟ لا أظن ذلك..

- هل كان يأتيك صداع حاد من آن لآخر؟

- نعم.. دومًا

- أعتقد أنك تعاني من كهرباء زائدة وانقلب الأمر لنوبة صرع عرضية.

- أنا لا أذكر أيّ شيء عن تلك التفاصيل...

- ما آخر شيء تتذكره؟

- كنت أشتري أشتري هاتف وكمبيوتر وملابس وماكينة قهوة وكنت أود شراء منزل وسيارة فارهة كنت أشتري كل شيء وأي شيء..

- تشتري.. تشتري.. ما كل هذا ورثت مؤخرًا يا رجل!

هنا بدأت تذكر الكثير من التفاصيل لم تعد دماغي مبعثرة بالشكل الحاد، ولكن المشاهد الأخيرة ما زالت غير واضحة وفجأة تذكرت لمحة أقوى.

- أظن أن هناك من كان يطاردني أو هكذا كنت أظن فأخذت أهرب من شارع لآخر.. نعم نعم أتذكر أيضًا صعودي درج أحد البيوت المهجورة.. ثم...

صمت لحظات وشرد ذهني دقائق قاطعتني الممرضة متسائلة:

- ثم ماذا؟

لم أسمعها، وعياني وأذناي تتذكران وقوفي على طرف سطح البيت وعقلي ينوي الانتحار في سبيل قضية أنا لا أتذكرها، قلت لها.

- سقطتُ.. أتذكر أنني سقطت من أعلى البيت.

ابتسمت الممرضة وقالت:

- احتمال أن يكون حدث هذا لك في عالم موازي أو مجرد حلم، صدقني ما مررت به مجرد نوبة صرع عرضية لا أكثر.

صمت لحظة وابتسمت وتأملت ملامح وجهها الطفولية الجميلة وفجأة تذكرت كلمات الطبيب عن زوجتي الراحلة، لا اعلم لماذا عقلي دائما يحاول طرد أي فكرة متعلقة بزوجتي كأنه يجبرني بقوة على نسيان مع حدث لها، همست متسائلًا:

- ماذا حدث لزوجتي؟

أجابتني الممرضة بآسف وهي تربت على كتفي:

- لا عليك الآن لا تعجل من أحزانك.

صمت عن سرد الحكاية والتفاصيل المؤلمة وعدت بوعيي إلى الطبيبة فريدة الجالسة أمامي وهي تتأمل ملامحي الحزينة وتنظر لي بنظرات شفقة، ابتسمت وقلت لها:

- لا عليكِ، حدث ذلك قبل زمن بعيد.

تنهدت وعدلت من وضعية نظارتها وقالت:

- كان ذلك بسبب تأثير المهدئات.

أجابتني الطبيبة موضحة:

لم أفهم كلماتها فسألتها:

- لا أفهم، ماذا تقصدين؟

- كان عقلك يجبرك على نسيان زوجتك وطريقة موتها وأحزانك وكل شيء بسبب تأثير المهدئات.. المهدئات تشتت الدماغ عن الأفكار

الحزينة حتى قصتك عن سقوطك من أعلى بيت مجهول وأن هناك مطارد يسعى خلفك أظن سببها كونك مؤلفًا.. مؤلف سابق حسبما قلت.

اومأت وفهمت مقصدها ثم شرعت في استئناف المزيد من الحكاية.

***

في مساء تلك الليلة هدأت الأنوار في المستشفى وسكنت كل الحركة عدا صوت الأجهزة المتصلة بالمرضى هنا وهناك، مريض يشخر في نهاية الغرفة وطبيب يمر في هدوء يطالع التقرير المعلق جوار كل فراش ويمنح تعليقاته للممرضة التي تهز رأسها في تفهم وعيناها تمتلئ بالنوم، وقف الطبيب البدين أمام فراشي وكرر ما يفعله وأخذت أنظر له بترقب والنوم يغلبني سمعته يقول:

- يجب تخفيف جرعات الميدزولام تدريجيًا وإن تهيج المريض أي وقت أعطه أمبول هالدول في الحال. سوف أدون كل شيء هنا.

اغمضت عيني لحظة ثم فتحتهما وجدت الطبيب واقفًا أمام باب الغرفة، لا أعلم متى تحرك من أمامي، فعلمتُ أنني غفوت لحظة، وهنا سمعت صوت انفجار بسيط مكتوم فنظرت إلى الطبيب، وجدتُ خيطًا دمويًا خارجًا من صدره لحظات وتلطخ رداءه الأبيض بالكامل بالدماء، كانت الممرضة جانبي تضع في أوردتي المزيد من الأدوية، نظرت لها وقلت:

- الطبيب.. يموت

لم تسمع الممرضة كلماتي في البداية ولكن الأمر لم يعد مهم الآن، فقد صرخ الطبيب أخيرًا وسقط أرضا محدثًا ضجة كبيرة في المكان، صاحت

الممرضة من مشهد موت الطبيب فنظرت ناحية الباب منتظرًا ذلك القاتل القادم للتخلص مني.

***

-٣-

العضو رقم ٢٠

في مكان ما في الأقصر داخل قصر يشبه معابد القدماء حيث اصطفت تماثيل ضخمة لكبار الآلهة العظماء كان البيت عملاقًا ويتكون من طابقين تحيط به حديقة هائلة بها عدد لا بأس به من أشجار الليمون والجوافة على جانب البيت يوجد أربعة سيارات فارهة متوقفة وأربعة كلاب ضخمة تسير بحرية حول المنزل للحراسة ومراقبة أي شيء غير معتاد، كان ذلك البيت قديمًا يخص المطرب الشهير منير الشافعي الذي توفي قبل خمسة أعوام لاحقًا تم عرض ذلك البيت في مزاد واشتراه رجل الأعمال يدعى همام وهو أحد أعضاء البرلمان المصري وذو نفوذ هائلة في صناعة مواد غذائية شهيرة للغاية، بطلنا لا يحب الأضواء مطلقًا ولم يسع مطلقًا للشهرة بكل وسائلها، كان يعلم أنها لعنة تصيب صاحبها ولا تتركه إلا بعد أن تهلكه تمامًا، وأيضًا يدرك تمام الإدراك أن مكانته لا تسمح له بذلك خاصة أنه عضو في منظمة لها أصول شديدة القدم والسرية وكل من فيها يؤمن أن سر بقائها واستمرارها يمكن في ظلامها وغموضها.

يعمل في ذلك البيت عدد لا بأس به من الخدم والعمال وأيضًا العبيد والجواري وكان الجميع يلقب السيد همام بالفرعون، كما كان له عدة أسماء أخرى منها الشيطان والعقرب وأيضًا المجرم الذي يبحث عنه الجميع. لم يحن الوقت للحديث عن المنظمة التي يعمل لصالحها الفرعون، ولكن يمكن تلخيص أمرها الآن أنها جماعة سرية تبحث عما هو ثمين وغال شديد الندرة.

تعالى نباح الكلاب فجأة وهي تسمع أصوات سيارات تقترب من البيت، فتجري جميعا وتقترب من البوابة، ولكنها سرعان ما تتراجع حينما تعلم أن القادم هو الفرعون نفسه داخل سيارته حيث يأتي بداخل سيارة من نوع مرسيدس يوقفها جوار السيارات الأخرى ثم يهبط منها ويتحرك ناحية بوابة قصره في غضب شديد.

الفرعون كان في خمسينيات عمره أصلع الرأس، جثة تميل إلى السمنة يحمل في جانبه مسدسًا، وندبة على جانب خديه تشير إلى ماضي ذلك الرجل الغامض المليء بالأحداث رغم أنه عضو في البرلمان لكن ذلك الرجل لم يظهر في التلفاز مطلقًا ولم يسمع به أي إنسان من قبل سوى أهل قريته المتواضعة الذين يتعاملون معه معاملة القاضي، فأحيانًا يفصل بين خلافاتهم هو أو أحد رجاله وأتباعه، كان يعد الفرعون ذلك الأمر القضائي العرفي كنوع من الترفيه والتسلية في أوقات فراغه.

الجميع القرية يتطلعون دومًا للعمل داخل قصر الفرعون سواء كانوا خدمًا أو عبيدًا، حتى الكل يعلم أن ذلك الرجل يكرم جميع رجاله فكل العاملين لديه يقبضون رواتب مثالية تمامًا لهم ولأسرهم حتى العبيد والجواري منهم يرفضون دومًا الحرية ويطالبون باستمرار حياتهم على تلك الشاكلة الشاذة.

كان للفرعون قانون واحد في العمل: سأمنحك كل شيء تريده، ولكن سوف تنفذ كل شيء أريده وهذا ليس غريبًا طالما كان هذا هو قانون العائلة الأولى.

دخل الفرعون غرفة مكتبه وفتح حاسوبه المحمول أمامه وجد رسالة من شخص مسجل لدى الفرعون باسم (أبونا) كأنه محرم تداول اسم

ذلك الشخص أو أنه مجهول لدى الجميع، مجرد اسم لا أكثر، كانت الرسالة مدون فيها: «هل تم الأمر؟»

تنهد الفرعون بغضب وأغلق الحاسوب ثم أمسك هاتفه وفتح برنامج يتتبع فيها عملاءه في الميدان، ثم ضغط اسم قيس القاتل المأجور المرسل للقضاء على تيام للمرة الثانية داخل المستشفى بعدما فشلت محاولته الأولى، وبطريقة ما تمكن الرجل من الهرب ولكن الفرعون وقيس كلاهما يدرك أنه لا مجال للإخفاق هذه المرة، وأنه لا سبيل للقاتل سوى تنفيذ مهمته وإلّا دفع حياته ثمنا لذلك فكما تعلم القانون الوحيد والأوحد سأمنحك كل شيء ولا مجال سوى تنفيذ كل شيء، ذلك التعاقد أبدي ولا سبيل لفسخه سوى بالموت!

***

-٤-

فريدة

رغم ما يشعر به تيام من هذيان لكنّ منظر الطبيب المقتول بث في قلبه الطاقة والأدرينالين فنهض هذه المرة من فراشه وبالفعل تراقصت الأرض من تحته، ولكنه قاوم السقوط في تلك الأثناء، كانت صابرين الممرضة تختبأ جوار الفراش وهي تصرخ بهستيرية، أراد تيام الهرب وحده، ولكنه لم يستطع فتلك الرؤيا التي شاهدها لا تزال تؤثر فيه، اقترب من الفتاة الخائفة وقال لها بصوت صارم:

- يجب أن نرحل الآن...

لم ينتظر منها ردًا وسحب يدها في الحال، وتحرك الثنائي عبر الباب الآخر للغرفة قبل أن يظهر القاتل، كان تيام يترنح وبعد لحظات لم يعد يسحب يد صابرين، بل كان يرتكز عليها، بين الطرقات تعالت الصيحات في المستشفى وضربت أجهزة إنذار الحرائق وصار الجميع في حالة من الذعر والخوف وعدم الفهم نجح تيام والفتاة في الهرب من ذلك المكان الخطير ووقف كلاهما في الشارع لا يعلم إلى أين يجب الذهاب، هنا قالت الفتاة وهي تتحرك ناحية شارع جانبي مظلم:

- هيا إلى سيارتي.. إنها ليست بعيدًا كما يجب الابتعاد عن الطرق الرئيسة.

داخل السيارة مكث تيام والفتاة للحظات هادئة سألت الفتاة بفضول يناسب شخصيتها:

- يجب أن أفهم كل ما يحدث أخشى أن تكون متورطًا في أمرٍ خطير!

نظر لها تيام وقال ساخرًا:

- وبعد كل ما حدث لا تزال تسألني إن كنت متورطًا في أمر ما..

- ماذا فعلت أيها الأحمق!

كاد أن يجيبها، ولكنه لا يعلم من أين يجب أن يبدأ، عند تلك اللحظة كان تأثير المهدئ عنيفًا جدًا في جسده، كأنّ كل الأدرينالين قد انسحب منه، شعر بدقات قلبه تتباطأ تدريجيًا وصوت غريب ينساب بين خلايا عقله بدأ يظن أنه على أعتاب غيبوبة لا يتمنى أن تكون طويلة

- أريدك أن تخبرني بكل شيء الآن.

- صابرين أشعر أنني أغيب عن الوعي.. أرجوكِ لا تتركيني الآن أو على الأقل اتركيني في مكان بعيد عن هنا.. بعيد عن ذلك القاتل.

نظرت صابرين إلى تيام وعيناه تُغلقان تدريجيًا، وساد الصمت والسكون والهدوء..

حينما عاد تيام إلى وعيه وجد نفسه لا يزال في السيارة، وبجواره صابرين ولكن رأسها ساقطة على عجلة القيادة، كانت السيارة متوقفة داخل جراج أحد المتاجر الضخمة علم الرجل أن الفتاة خافت الانتقال أكثر من ذلك، وعلمت أنّ من الأمان أن تبقى بسيارتها في مكان معلن ممتلئ بكاميرات المراقبة. هز تيام صابرين.

- هل أنت بخير؟

نهضت الفتاة وأجابته بصوت نائم:

- نعم أظن ذلك.. لم أجد مكانًا أفضل من هذا حتى ننال قسطًا من الراحة.. يا إلهي، لا أصدق أننا بخير.

بدأت صابرين في تذكر ما حدث ومعها تعالت وتسارعت أنفاسها وبدأت في الصراخ والبكاء

- كان يحاول قتل الجميع، كاد أن يقتل الجميع.. لا أصدق أن هذا حدث أمام عيني ... لا أصدق!

حاول تيام تهدئة الفتاة كثيرًا، ولكنها لا تستجيب واستمرت في بكائها.

- أرجوكِ يجب أن تهدئي قليلًا، ذلك الصراخ قد يجذب ذلك المختل المجنون إلينا وأنا لا أعلم ما مدى بعدنا عنه الآن، حاولي التفكير بعقلك ولو للحظات وسوف يكون كل شيء بعدها على ما يرام.

نظرت السيدة إلى تيام وظن الأخير أنها سوف تلومه على ما حدث، ولكنها لم تفعل.

- لولاك لكنت ميتة الآن.. لولا أنك سحبت يدي وأخذتني من المستشفى بالتأكيد لكان قتلتني ذلك المجرم.

هدأ تيام كثيرًا وتنهد لأنها الآن وفرت عليه الكثير من الكلمات والشروح والأحاديث لتفسير ما حدث.

- هذا جيد.. أنا أيضا أشكرك أن القاتل لم يمسك بنا أمام المستشفى.. أشكرك لأنك أخذتيني بعيدا، أنا مدين لك بحياتي.

قالت صابرين:

- نحن متعادلان لا أكثر..

لم يكن يظن تيام كذلك، ولكنه وافقها حتى لا يحمل نفسه المزيد من المجاملات الواجب ردها.

قال تيام:

- الآن سوف أخبرك ما حدث..

ثم التزم الصمت منتظرا إشارتها لبدء الحكاية، ولكن صابرين قالت:

اسمعني جيداً وحاول أن تفهمني، ما حدث أكبر مني وأنا لدي الكثير من المسئوليات وفي رقبتي أناس أرعاهم، لذلك وبعد تفكير كافٍ، أنا لا أريد أن أكون جزءًا من معركتك.

تألم تيام من كلمات صابرين رغم منطقية حديثها، ولكنه كان يتمنى أن يشارك أحدًا معه تفاصيل حكايته الغريبة تذكر زوجته وحزن عليها وشعر بالاشتياق لها بالرغم من قسوتها المستمرة معه.

- ألم تكوني تريدين معرفة ما حدث؟

ردت صابرين بحسم :

- لم أعد أريد.. أخشى أن أكون مطاردة مثلك لو علمت أكثر من اللازم.. الحياة علمتني أنه توجد معارك لا بد من تجنبها، صدقني يا صديقي الغالي لديّ معارك كثيرة ولا أريد المزيد، قلبي معك كثيرًا وأتمنى لك السلامة في معركتك وبإذن الله سوف تمر تلك الأيام الصعبة..

ابتلع تيام لعابه ووضع يده على مقبض السيارة حتى يشرع في الرحيل وود لو أن الزمان توقف عند هذه اللحظة فهو يعلم أن تلك اللحظة المريحة سوف تكون الأخيرة وأن العالم خارج تلك السيارة مليء بالمطاردة وأن العبث بتلك البطاقة الائتمانية الخبيثة سوف يجعله مطاردًا الباقي من عمره، فتح تيام باب السيارة وقال:

- أنا أفهمك وبالفعل أنتِ محقة، لو كنتُ مكانكِ لما أقحمت نفسي في ذلك الأمر الخبيث.

حاول تيام الخروج من السيارة، ولكن صابرين أمسكت بيده وسألته:

- ماذا ستفعل ؟ أقصد بعد أن ترحل الآن إلى أين سوف تذهب؟

أجابها تيام بأسف وشرود ذهن:

- لا أعلم..

قالت صابرين:

- حسنا انتظر لحظة.

أخرجت صابرين من حقيبتها حقنة مهدئة ومسكنة للآلام قوية وسريعًا دستها في وريد تيام دون أن تستأذنه وهمهمت:

سوف تحتاج إلى هذه الساعات القادمة حتى تحسن التفكير ويا - أخي إن كانوا يريدون شيئًا منك امنحهم إياه وانج بروحك.

ابتسم تيام وقال ساخرًا:

- إنهم لا يريدون سوى روحي الآن..

خرج تيام من السيارة في النهاية وتبادل نظرات أخيرة مع صابرين وهو يعلم أنه لن يراها ثانية.

إلى اللقاء يا تيام.

إلى اللقاء يا صابرين!

***

توقف تيام عن السرد وابتسم ابتسامة تحمل الكثير من الألم والأسف على حاله لأنه عاش تلك الذكريات والمواقف الأليمة وحده، ثم قال لي:

- هل أنتِ مشفقة على حالي دكتور فريدة؟

باغتني بالسؤال ولكنني متمرسة بكل تأكيد في الرد على أي تساؤل مفاجئ

- أكثر ما يحزنني في قصتك هي وحدتك لو كان هناك رفيق لكانت الأهوال أقل حدة.

لم يعقب تيام على إجابتي وهز رأسه موافقًا رأيي ثم قال:

- في ذلك اليوم فعلتُ أحمق شيء في الوجود وهو أنني عدت إلى البيت ولكن إلى أين يمكنني الذهاب وأنا أرتدي تلك السترة الغبية الخاصة بالمستشفى والدماء تلوثها من كل الاتجاهات؟ وأيضًا بكل تأكيد لن يوافق أي فندق على أن يمنحني غرفة بهذا المنظر كما أنني لا أمتلك أي أموال في تلك اللحظات الحرجة حتى البطاقة الملعونة في البيت الآن وأخشى إعادة استخدامها فيعلمون.

سألته وأنا أتوقع الإجابة:

- وماذا عن أصدقائك؟

رد تيام ساخرًا:

- أيُّ أصدقاء أيتها الطبيبة؟ أي أصدقاء بحق الجحيم! في رحلتي إليكِ فقدان كل الأحلام وكل الأصدقاء...

- لم يكن لديك سوى العزلة..

- حتى العزلة لم تكن أفضل رفيق أخشى أن ما أصابني من نوبات فزع ثم صرع كان مصدرها الأول وحدتي.

- ولكنها أنقذت حياتك لولا ذلك لكنت هالك بسبب المعزوفة.

تساءل ساخرًا ...

- أنقذت حياتي؟

فهمت أن الرجل لم يكن ولن يكون لديه أصدقاء أبدًا فلم أستزد معه في تساؤلات لا إجابة لها وطلبت من استئناف حكايته.

- حسنًا أكمل قصتك..

***

-٥-

تـيـام

تناولت حبة كافيين حتى تُزيل ما تبقى بداخلي من آثار لتلك المهدئات وتقضي على قدر حتى لو كان بسيطًا من ذلك الخمول والصداع المسيطرين على جسدي، خلعت رداء المستشفى وغصت بجسدي في حوض الاستحمام محاولا التناسي تارة أو إعادة التفكير تارة أخرى فكرتُ في إعادة استخدام البطاقة الائتمانية من جديد ولكن كيف أستخدمها دون أن يعلموا كيف أفعلها؟ دون أن أجذب انتباه ذلك الأحمق؟ والسؤال الأهم بالتأكيد نفوذ هؤلاء القوم يستطيعون إيقاف تلك البطاقة نهائيًا، لماذا يهتمون هكذا بمطاردتي؟ وما سر نوبات الصرع التي بدأت تصيبني مؤخرًا؟ وهنا تذكرت الموسيقى على رسالة هاتفي، نهضتُ من حوض الاستحمام. ارتديت ملابس نظيفة، ولكن جسدي كان يتألم منها كأنني لا أتحمل أي شيء يلامسني، أمسكت هاتفي ووقفت أمام النافذة حيث بدأت الشمس في رحلتها نحو السماء بدأت الأشعة تلامس الأبراج المرتفعة شعور الضوء بث في قلبي نوع ما من الهدوء النسبي، فحسبت أن الليل السابق هو الأخير لي في تلك الحياة فتحت رسائل هاتفي ووجدتُ الرسالة مرة أخرى: «هل سمعت الشيطان يغني؟» وأسفل منها التسجيل الملعون لا أعلم كيف حدث ذلك هل هذا نوع من المخدرات الرقمية المطورة أو سلاح رقمي جديد للاغتيال؟ وإن كان الأمر كذلك لماذا لم تتم العملية وما زلت على قيد الحياة، هل أنا مميز؟ أم أن السلاح به أخطاء ولا يزال في مرحلة التطوير أم أنني لا أفهم أي شيء على الإطلاق؟

الآن بكل تأكيد يجب علي الرحيل من ذلك المكان، ارتديت ملابسي وأخذتُ كل شيء ذي قيمة وخفيف وزنه وشرعت في الرحيل، على سلم البيت وجدتُ قطة تعبث في أكياس القمامة السوداء فجالت في خاطري فكرة اقتربتُ من القطة وحاولت جذبها ناحيتي بواسطة قطعة من اللانشون ربت على ظهرها وحملتها وعدتُ بها إلى الشقة، وضعتها على الأرض ونظرت إليها فنظرت إلي كأنها تعلم ما سوف أفعله بها.

- أنا آسف.. ولكن يجب أن أفهم كل شيء، يجب أن أتأكد أن ذلك اللحن مصدره الشيطان فعلًا.

حملت القطة ووضعتها داخل غرفة وحدها، ثم فتحتُ معزوفة الشيطان، ثم تركت المكان سريعًا قبل أن أسقط داخل نوبة جديدة من الصرع.

جلست في الخارج وشربت قدحًا من الشاي وحاولت رثاء زوجتي وتذكر أي لمحات سعيدة بيننا تجعلني حزينًا ولكن للأسف لم أجد أو أتذكر سوى كل لحظة كانت تسخر فيها تلك السيدة مني، للمرة الثانية أقنع نفسي أنني لا أحزن عليها بسبب ما منحته لي صابرين من مسكنات ومهدئات ولكن هنا بدأت أشعر أن سبب عدم حزني على فراقنا هو أنني كنت أبغض تلك السيدة للغاية

***

توقفتُ عن الحديث ونظرت إلى الطبيبة فريدة، شعرت بالحرج من قسوة كلماتي وتمنيت لو لم أنطق بمثل هذا الحديث، فهمت فريدة ما بداخلي، فقالت:

- أنت ترهق عقلك بكثير من الأسئلة، وتحاول تأنيب ضميرك وتحمل نفسك ذنب موت زوجتك تشعر أن لولا استخدامك لتلك البطاقة الائتمانية لما حدث كل هذا.

نظرتُ إليها وفهمتُ محاولاتها من أجل تخفيف آلامي.

- أنا لا أحاول إقناع نفسي بكوني السبب لأنني السبب بالفعل.. لولا البطاقة بكل تأكيد لما حدث كل هذا.. كل ما حدث كان خطأي، ولكن من قال إنني إنسان بلا خطايا؟ لا، على أي حال أنا لا أهتم أن أكون كاملا، يكفيني أنني لا أجامل ولا أنافق ولا أخون!

- هل تعتبر كلماتها الأخيرة خذلان وخيانة لك؟

- لم يخذلني أحد، أنا من راهنت على أنهم أوفياء مثلي...

طرقت الباب سكرتيرة الطبيبة وأخبرتها أنه توجد مكالمة طارئة قادمة إليها من جهة سيادية ويجب للرد عليها حالا فأخبرتها الطبيبة أن تحول المكالمة إليها.

- عذرًا يا أستاذ تيام دقيقة واحدة وسوف أكون معك.

ثم أضافت ساخرة:

- جهة سيادية..

رفعت فريدة سماعة الهاتف ثم تغيرت ملامحها تمامًا وهي تسمع أحدًا يخبرها باختيارها حتى تحتل منصب وزيرة الصحة، قالت فريدة:

- وزيرة؟ حسنًا يا سيدي بكل تأكيد سوف أكون في الموعد.

أنهت فريدة المكالمة ثم نظرت ناحيتي وقالت بسعادة بالغة:

- هناك من يخبرني أنه تم اختياري لمنصب وزيرة الصحة في الحركة الوزارية القادمة.

ابتسمتُ وهنأت الطبيبة بمنصبها الجديد وأضفت:

- هل يجب أن أتركك الآن من أجل الاحتفال؟

هزت فريدة رأسها نافيةً في الحال، وقالت:

- لا بكل تأكيد، أنت من أغرب الحالات التي رأيتها في حياتي وأريد معرفة كل شيء عنك.. أما أفكارك لكونك السبب في موت زوجتك...

تنهدت ثم أردفت:

- للمرة الأولى أشعر بالعجز في إيجاد رد مناسب لك. ابتسمت وأجبتها فورًا:

- صدقيني يا طبيبة أنا لست هنا باحثًا عن كلمات تخفيف الآلام أعلم كل كلمة تريدين قولها.. لا عليكِ، أنا تجاوزت كل هذا بالفعل ولم يعد يسبب لي الألم الآن.

- اللطيف أنك أمامي الآن أشعر أنك انتصرت في نهاية تلك القصة وأن القاتل لم يتمكن من فعلها في النهاية.. أشعر أن السعادة سوف تكون نهاية تلك القصة المثيرة.

- السعادة هي النهاية .. هذا الأمر نسبي على أي حال، ولكنني راض بشكل كبير عن نهاية تلك القصة رغم أنني لم أتوقع الفصل الأخير

- الفصل الأخير؟ أستاذ تيام هل يمكنني أسألك سؤال يحيرني بشدة ولم أعد قادرة على تجاهله أكثر من ذلك؟

أجبت مازحًا:

- بكل تأكيد دكتور فريدة.. أم أقل معالي الوزيرة.

ضحكت فريدة وسألتني:

- لماذا أنت هنا؟

لم أفهم سؤال الطبيبة فسألتها:

- ماذا تقصدين يا طبيبة ؟ هل تشعرين بالملل؟

أجابت فريدة بالنفي سريعًا:

- مطلقًا، أخبرتك أن حكايتك مثيرة، ولكن إن كانت نهاية القصة سعيدة.. إذن لماذا أنت هنا؟

أجبت هذه المرة:

- أخبرتك أن الفصل الأخير في حكايتي صادم للغاية!

اومأت وحكت شعرها بقلمها ثم دونت كلمات طبية في الأوراق الموضوعة أمامها وغيرت دفة الحديث وعادت بكلامها لقصتي:

- أخذت القطة وشغلت لها معزوفة الشيطان حتى تختبر تأثير ذلك عليها، فكرة ذكية رغم قسوتها.

أغمضت عيني وتذكرت اللحن في رأسي فانتفض جسدي وتعالت موجات السعادة داخل دمائي فخشيت أن أستمر في تذكر اللحن فتأتي لي نوبة جديد من الصرع، تجاهلت الأمر سريعا فسألت فريدة:

- هل أنت بخير يا تيام؟

لم أجب سؤالها، ولكن بدأت أعود تدريجيا لقصتي.

ظهور القطة أمامي وكأن الأقدار حملتها لي حتى أحلل وأرى مدى تأثير لحن الشيطان وخطورته، وبالفعل ما توقعته بالضبط هو ما حدث.

توقعت فريدة أن ما حدث لتلك القطة كان مأسوي بكل تأكيد.

- لا تقل لي ذلك، لا تخبرني أنها ماتت.

سريعًا أجبتها موضحًا:

- نعم، ماتت المسكينة بعد ثوان معدودة من تشغيل الموسيقى جوارها، أخذت لحظات تجري في الغرفة بجنون مخيف ثم شرعت في

التقيؤ حتى فرغت معدتها بالكامل وسقطت على جانبها وارتشعت قرابة العشر ثوان إلى أن فاضت روحها.

همهمت فريدة:

هذا شرير!

لم تقصد أن أسمعها، فهي حريصة بشدة على ألا تلقي اللوم على المرضى النفسيين، ولكنني سمعتها على أية حال، فأجبتُ مدافعا عما فعلته:

- أليس كل العلماء مباح لهم تجربة الأدوية على الحيوانات المختلفة وأحيانًا على البشر؟ أنا فعلت الأمر ذاته كان يجب أن أفهم العدو الذي يطاردني، هذا حق وتلك كانت حرب ولكل حرب ضحاياها.. أتعلمين أنني أنقذت بتلك المعلومات صابرين من موت محقق؟

اندهشت السيدة من كلماتي فقد كانت تعتقد أن لقائي مع صابرين هو الأخير، ولكن واضح أنه يوجد المزيد.

- يا إلهي تورطت السيدة أكثر رغم أنها أرادت الابتعاد عن كل شيء، ولكن كيف حدث ذلك؟ ظننت أنكم لن تتقابلا من جديد.

تنهدت وقلت:

- كنت أريد فعلًا إبعادها عن كل شيء، ولكنها غبية وسرقت البطاقة الائتمانية مني يوم المستشفى.

سألت فريدة:

- مهلا توجد أشياء ناقصة في قصتك أنت قلت حينما كنت في السيارة مع صابرين ظننت أن البطاقة في البيت.

- بالفعل ظننت إنها في البيت ولكنها لم تكن كذلك.. حينما سمعت المعزوفة أول مرة في بيتي كانت البطاقة في جيبي وحينما تم نقلي إلى المستشفى كانت ما زالت في جيبي وهناك أزالوا عني ملابسي ومنحوني ملابس المستشفى لأنني خضعت إلى جلسة رنين مغناطيسي ووضعوا كل المتعلقات التي كانت معي أمانات في المستشفى.

- حسنًا إذن كانت البطاقة في الأمانات.. كيف لك أن تقول إن صابرين

سرقتها وأخذتها منك وأنت بجوارها في السيارة؟

ضحكتُ وأنا أتذكر تلك المواقف وأجبتُ ساخرًا:

- حينما سقطتُ في غيبوبة أمام المستشفى نقلتني صابرين من المكان ووضعتني في ذلك الجراج وأخبرتك سابقًا أن الجراج كان على مسافة قريبة من المستشفى وحينما راجعت كاميرات الجراج لاحقًا علمت أن صابرين تركت السيارة قرابة الساعة ثم عادت مرة أخرى إليها... بالتأكيد تعلمين ماذا فعلت.

- أنت تقصد أنها تركتك وعادت إلى المستشفى واستغلت الفوضى هناك وأخذت كل شيء متعلق بك ومنها البطاقة، ولكن ما زال يوجد شيء ناقص لا أفهمه.

- وما هو الأمر؟

- كيف علمت صابرين أنه توجد بطاقة سحرية تمنح الأموال بجنون ؟

- لا أعلم، ولكنني استنتجت الأمر سريعًا.. الواضح أنني كنت أهذي في أثناء الغيبوبة بتلك التفاصيل.

اومأت فريدة وقالت:

- تبًا لك! هكذا صارت صابرين تجذب القاتل إليها بدلًا منك.. أنت محظوظ وهي مسكينة!

- لو كنت مكاني ماذا كنت تفعلين؟

- لا أفهم.

- بل تفهمين قصدي...

- لا أعلم، لن أدعي المثالية، ولكن ربما فكرت مرارًا وتكرارًا في ترك كل شيء والالتفات إلى حياتي، صابرين هي من ورطت نفسها في كل شيء.. هي من تجاوزت الحدود وتستحق جزاءها..

- وجهة نظر..

***

-٦-

العضو رقم ٢٠

على بعد ثلاثة أميال تحرك قيس مترنحًا بعدما قضى ليلة داخل حانة تطل على شاطئ البحر، على الرغم من فشله للمرة الثانية في القضاء على الرجل الجامح حامل بطاقة الأموال غير المنتهية، وإزهاق روحه بما يحمله الآن من أسرار عن العائلة المقدسة لكن القاتل يشعر بشيء ما من الهدوء والسكينة لأنه من وقت لآخر يسمع نغمته الموسيقية لمدة ثوانٍ معدودة، فتبث بدمائه جرعة مثالية من السعادة تحافظ على هدوئه وسلامه النفسي حتى يتمكن من مواجهة ذلك المأزق المتورط فيه الآن، عبر القاتل من بوابة فندق كليوباترا الصغيرة واستخدم المصعد حتى يصل إلى الطابق التاسع حيث تقبع غرفته المحجوزة تحت اسم أسعد الحسيني، وهو الاسم المستعار الذي يتحرك به قيس في الآونة الأخيرة عند دخوله المسكن المؤقت نظر بعينيه الحمراوين مراقبًا الردهة الفارغة حتى يتأكد أن لا أحد يتابع تحركاته ثم أغلق الباب وأحكم إغلاقه بالترباس وألقى جسده على الفراش ناظرًا إلى السقف في حالة شرود ذهني، كم كان ساخطًا الآن وغاضبًا من نفسه حينما سمح لنفسه العمل مع تلك المؤسسة وكبار رجال الأعمال، لطالما كان مرتزقًا ومتطلعًا إلى إزهاق الأرواح مستخدمًا معزوفته الشيطانية ولكن للمرة الأولى التي يشعر بها بهذا الكم الهائل من الضغط، لم يكن يحتاج قيس إلى العائلة الأولى حتى تمنحه ما يريد فهو بالفعل كان لديه كل شيء يريده، يعلم أنه أخطأ حينما توغل في الأمر إلى تلك المسافة ويعلم أن الخطر صار يحيط به أكثر مما سبق وأنه لا مجال للعودة الآن، وسرعان ما تلاشت هرمونات السعادة من دمائه وحل محلها الخوف والقلق وأخذ يفكر ماذا لو أصبح تيام يعلم سر المعزوفة وكيفية استخدامها؟ لم يتحمل أفكاره وشغل

فورًا اللحن الخطير على هاتفه بعدها وضع سماعات صغيرة في أذنيه ورفع الصوت إلى الحد الأقصى في الحال انسابت إلى دمائه جرعة هائلة من جديد لاحقا، بدأ القاتل العمل مرتزقًا، وسرعان ما تطور الأمر حتى أصبح قاتلا، أما عن علاقته بالمعزوفة فلا نعلم سوى روايته عنها، حيث قال ذات يوم أنه شهد الشيطان في أحلامه وعزف أمامه ذلك اللحن الملعون مثلما حدث مع العازف تارتيني حينما عزف الشيطان في أحلامه أيضًا ذات يوم.

ظل قيس عاجزا عن إيقاف اللحن كأنه مسحور وسقط في لعنة لن تتوقف حتى تأخذ روحه، ولكن الأقدار رفقت به هذه المرة ومنحته فرصة أخرى حينما توقف اللحن تلقاء نفسه بسبب تنبيه جاء على هاتفه المحمول، شهق شهقة الحياة وأخذ يضحك بقوة عقله يعلم أنه يجب عليه الخوف الآن، ولكن لا يشعر سوى بالسعادة ورغبة عارمة بالضحك والمزاح، أمسك هاتفه ووجهه شديد الابتسام.

- تم سحب مبلغ عشرين ألف جنيه من ماكينة سيدي جابر.

***

-٧-

تـيـام

ماتت القطة وعلمتُ كل شيء عن المعزوفة، وأيضًا أدركتُ أن البطاقة مفقودة ولم أستغرق وقتًا حتى علمت أن صابرين سلبتها مني وهربت، ولكن كيف لي أن أعلم عنوانها أو مكانها، حتى رقمها لم تمنحي إياه تلك الحمقاء كانت تظن أنها بتلك الطريقة تقطع كل الروابط بيننا حتى لا أصل إليها أبدًا وأستعيد تلك بالطاقة منها، كيف لها أن تفعل هذا بعدما رأت ذلك القاتل المجنون يحاول التخلص مني بسبب تلك البطاقة اللعينة حمقاء فكرتُ في العودة إلى المستشفى والسؤال عن عنوانها ولكنني خشيت الأمر بالتأكيد هناك رجال شرطة وتحقيقات وعودتي إلى ذلك المكان سريعًا والسؤال عن عنوان ممرضة ما أمر غير مستحب في تلك الأوقات الحرجة، كان الأمر مربا وعقلي يتخيل تلك المسكينة الآن وهي تسمع لحن الشيطان وجسدها ينهار تدريجا مع نغمات الملعون وفجأة جالت في عقلي فكرة. جلبت هاتفي وبحثت عن اسمها على الفيس بوك ثم حاولتُ تحديد موقعها من خلال تلك الخاصية بالموقع التي لا يعلم عنها الكثيرون كنت أتمنى ألا تكون سبق وأغلقت تلك السيدة خاصية تحديد الموقع وبالفعل كما توقعت ظهر عنوانها بشكل تفصيلي أمام عينيّ.

فتحت الباب وشرعت في المغادرة فوجدتُ السيدة ميرفت الساكنة في الشقة العليا تقف أمام بابي في ارتياب انتفضتُ فزعًا من ظهورها المباغت فقالت بلسان مهتز:

- لا أعلم أنك هنا.. خشيت أن يكون لص بالمكان.. سمعت حركات فجئت حتى أطمئن.

- لا عليكِ.. أعتذر إنه أنا فقط...

- هل أنت على ما يرام؟

- نعم.. أو لا أعلم تحديدًا.

- أهل المكان يحاولون التواصل معك من أجل التساؤل عن مواعيد العزاء، واتصلوا بزوجي وهو لا يعلم بماذا يخبرهم.

ترددت لحظات وسألت نفسي كيف لي أن أنسى ذلك الأمر، بالتأكيد بعد ساعات سوف يتطوع الكثيرون للقدوم إلى بيتي حتى يقدموا الدعم وواجب العزاء وغيرها من تلك الأمور.

- أنا لا أعلم ما زلت أفكر في الأمر.. أنا يجب أن أرحل الآن وبعد ساعة سوف أعود وحينها نفكر كيف سوف ندير ذلك الأمر...

ابتسمت السيدة بشفقة وتعاملت مع كلماتي المترددة وحالتي المزرية بأنني في حالة صدمة وأن عقلي على وشك الانهيار، فقالت:

- هل يجب فعلًا أن تترك البيت الآن ولا ترتاح؟ جسدك ما زال معبأ بالغاز المسموم الذي تسرب من السخان... يجب أن ترتاح قليلًا حتى لا تنهار كليًا.

كليًا.. هل لا تزال تظن أن هناك شيء لم ينهار بعد؟ لم أنتظر أكثر ورحلت عن المكان.

***

أجري ولا أعلم إن كان تصرفي الآن هو الصحيح أم أنني أرتكب المزيد من التصرفات الحمقاء، أجهل المقصود بما رأيته في أحلامي حينما أخبرتني نسخة شخصيتي أن أثق بتلك السيدة هل كان المفترض الآن ترك تلك السيدة تتحمل مصيرها وخلاصها على أيدي هؤلاء القتلة جزاء سرقها البطاقة؟ وهل إن فعلت هذا سوف يضمن هروبي وعدم ملاحقتي مرة أخرى من جانبهم؟ ولكن إن كان الأمر بتلك البساطة لماذا أشعر داخليًا بضرورة الإسراع وإنقاذ تلك المسكينة الطامحة؟ بشكل أو بآخر أحس أنها تورطت في تلك القضية المخيفة بسببي ومن جانب آخر تصرخ بعض الأفكار في عقلي وتذكرني أن كل ما فعلته هو حصولي على تلك البطاقة من شخص يحتضر.

أنا لم أقصد سرقة البطاقة، ولو كنتُ علمت سرها لما فعلت ذلك من البداية وكذلك صابرين، فلماذا أتحمل عناء أمرها؟ توقفت في تلك اللحظة قرب شارعين من العنوان المفترض الذهاب إليه، وكان صوت شديد بداخل رأسي يجبرني على الانسحاب من ذلك المشهد الآن، ويأمرني أمرًا بالجري والتحرك في الاتجاه المعاكس والابتعاد قدر الإمكان عن هذا المكان.

أوقفتني فريدة عن سرد الحكاية بغضب شديد:

- أرجوك أخبرني أنك بالفعل تركت تلك السيدة لشأنها.. إنها سرقتك يا رجل وكانت فرصتك المثالية والوحيدة حتى تبتعد عن ذلك الأمر كله ويطارد القاتل صابرين بدلاً منك.. لا أعلم، كان يجب أن تهرب الآن.

تفهمت خوفها وغريزة البقاء بداخلها.

- لا.. لم أفعل.. حاولت كثيرًا أن اتجاهل تلك السيدة، ولكنني لم أستطع حتى ولو كانت لمة سرقتني، كونها أثنى جعلني ضعيفًا ومشهد موت زوجتي وكذلك القطة أجبراني على محاولة إنقاذها.

قالت فريدة مستنكرة تصرفي كثيرًا:

- يا إلهي... كأنك تعشق المشاكل وتجذبها إليك.

همهمت:

- لا أعلم.. شعرت بالمسئولية تجاهها.

اومأت فريدة وتساءلت بفضول وراحة متوقعة نجاحي في إنقاذ الممرضة.

- ثم؟

شعرتُ بقبضة قوية في قلبي وأنا أتذكر تلك التفاصيل المؤلمة فقلت بأسف:

- يا إلهي القادم في تلك الحكاية كانت أحداثًا مؤسفة وانقلب كل شيء راسًا على عقب!

***

وصلتُ إلى العنوان المنشود بيت متواضع من ثلاث طوابق في حي المندرة الجانب القبلي المطل على القطار، وجدتُ بوابة البيت مفتوحة على مصراعيها، قال لي البواب إن صابرين تعيش في الطابق الأخير، دلفك

نحو الداخل وأخذت أصعد درجات السلم القديم المحطم واحدة تلو الأخرى وأنا أفكر للمرة الأخيرة في الهرب من ذلك المكان.

ولكن الوقت كان تأخر على ذلك التصرف شعرت بدوار كبير في راسي كأنني صرت أخشى المرتفعات، أخذت أنظر إلى الخلف وإلى الأعلى حتى أتأكد أن لا أحد يراقبني، تزداد الدوخة حدة وتتراقص السلالم من تحتي تلك النغمات الشيطانية ما. زالت تعصف برأسي، ارتعش جسدي حينذاك ولكنني بصعوبة تحكمت به وسيطرت عليه وواصلت الصعود حتى وصلت إلى الطابق الأخير وهنا انقلب كل شيء وتغيرت كل الأحداث.

كان باب الشقة مفتوحًا، وهذا بالتأكيد أمر يثير الخوف والذعر، عقلي يراوغني من جديد بالرحيل ولكن الفصول هذه المرة جذبتي نحو الداخل كالمنوم مغناطيسيًا. وجدت صابرين ساقطة أرضًا وجسدها ممتلئ بالجروح وجوارها القاتل الذي حاول اغتيالي في المستشفى ظننت أنه قتلها وحاولت التراجع في الحال ولكنني تعثرت بشيء ما لا أتذكره فانتبه ذلك المجرم لي ونظر نحوي فعلمت أنه لا مجال لي سوى المواجهة.

- لماذا قتلتها أيها المجرم! لماذا تطاردنا بحق الجحيم! سحقًا لك سحقًا لك!

هكذا قلت له، ولكن فيس ظل ينظر إلى الجنة في حالة ذهول، رأيت أنفاسه تتسارع بقوة كأنه يخشى شيلا ما ثم نظر لي وهمهم:

- لم أقتلها.. لم أقتلها.. لم أفعل ذلك. يا إلهي. يا إلهي يوجد شيء ما خاطئ كيف حدث هذا.. كيف حدث هذا.. إنهم القدماء.. القدماء...

لم أكن أفهم كلماته وقبل أن أنطق بشيء أردف القاتل قيس:

- لقد جاءوا يقاتل آخر لاستئناف المهمة.. قاتل من نوع آخر. نحن في ورطة كبيرة. العائلة تخلت عني العائلة تخلت عني.. يا إلهي. يا إلهي!

كنت لا أفهم شيئًا، ومصدوقا من هيئة الجنة الجديدة في حياتي.

- قاتل من نوع آخر؟

قال القاتل بصوت يائس وساخر في الوقت ذاته:

- لم تعد أنت المطارد وحدك منذ تلك اللحظة انا مطارد مثلك ويجب أن أهرب

مثلك. إنها الكارما ...

***

- صابرين ماتها ولكن كيف أنت قلت إنك أنقذتها!

قالتها الطبيبة بنبرةٍ ذاهلة، فلم تكن تلك النتيجة المتوقعة على الإطلاق. ابتسمت لها وشعرت أنني انتصرت في صنع حبكة تخالف توقعاتها، شعرت بسخرية شديدة داخلي عن صدمة تلك المسكينة حينما استمر واستمر في الحكي وتعلم أن موت صابرين مجرد قطرة في بحر من المفاجآت.

- قلت إنني حاولت إنقاذها.. لم أقل إنني نجحت...

هزت فريدة رأسها نافية وقالت بإصرار:

- لا، أنا أتذكر جيدًا أنك أخبرتني بإنك أنقذتها.

شرد ذهني لحظة ثم قلت:

- محتمل أنني حاولتُ صنع نوع من الإثارة والغموض والمفاجآت معك.

كانت فريدة مستاءة للغاية مني كأنها للمرة الأولى تفشل في توقع القادم من حكايات المرضى.

- هذا ليس لطيفًا.. لا يمكنك أن تفعل هذا.

أخبرتها وأنا لا أبالي.

- أنا مريض نفسي وهذه عيادة نفسية وكل شيء متوقع مني وهذا عملك وواجب تقبل كل شيء من جانبي.

- أنت تلاعبت بي!

- الكون والعالم كله تلاعب بي..

- حسنًا، حسنًا، اهدأ.. لا عليك أنا هنا من أجلك بكل تأكيد ورحم الله كل من مات في : ب تلك الرحلة القاسية، أتعلم أن حكايتك تشبه إحدى قصص أغاثا كريستي؟

- لا.. لا تشبه شيء على الإطلاق.. حكايتي تشبه الجحيم فقط كما أنها ليست خيال حكايات وروايات بل كل ما قيل وكل ما سوف يقال حدث بالفعل يا دكتورة فريدة.

- رغم كل شيء أكرر كلماتي مرة أخرى أنا سعيدة أنه بالرغم من كل تلك الأحداث أنك ما زلت على قيد الحياة، أشعر أنك بشكل أو بآخر انتصرت في آخر تلك الحكاية.

- حسب تعريفك لمعنى الانتصار. ولكنني على أية حال توصلت إلى أفضل حلٍ ممكن.

- أعلم، أعلم... إن الفصل الأخير من الحكاية كان صادمًا ومفاجئًا.. أخبرتني من قبل.

جلستنا هذه هي الفصل الأخير من الحكاية!

- ماذا تقصد؟

- لا شيء

- حسنًا أخبرني بالمزيد.. ماذا حدث لاحقا؟ وما موضوع القاتل المختلف أو القاتل من نوع آخر؟

***

رأيت شخصًا يرتدي قلنسوة تغطي رأسه بالكامل وسكينا صغيرًا يخرج من مكان ما في يده، لم يكن يمسكها، بل كانت مربوطة في معصمه تشعر للوهلة الأولى كانه هارب من أحد ألعاب الفيديو، أخذ يقترب من قيس فبدت دماء واضحة حول فمه كأنه أكل صابرين حية، مسح فمه بمؤخرة يده، وكاد أن يعض قيس من رقبته فشهقت ذعرا ليس لأنه سوف يقتل القاتل الذي حاول مرارا وتكرارا التخلص مني ولكن هول المشهد كان يخفيني جدًا وذلك التحذير كان كافيًا حتى يتفادى قيس ذلك المجنون، ثم هبط بقبضته في معدة ذلك الشخص الغريب فسقط الأخير أرضًا متألقا بشدة. كشف غطاء رأسه واتضح أن القاتل سيدة وهرب قيس في الحال وهربت أنا خلفه ولكن القاتلة قاومت آلامها في الحال ونهضت وألقت السكين الصغير ناحيتي فأصابت ركبتي فشهقت وصرخت بقوة

ولكنني لم أتوقف وظللت أجري وأنا لا أعلم هل أهرب من قيس إلى السيدة الذي تعض البشر في رقابها أم أهرب من أكلة البشر إلى قيس؟ أم أهرب من الاثنين إلى مكان بعيد؟ تمنيت في هذه اللحظة بقوة لو أن الاثنين قتلا بعضهما بعضًا وخرجت من بينهما سالمًا آمنًا.

خرجنا من بوابة البيت ووصلنا إلى الشارع أخيرًا، وقفتُ التقط أنفاسي ونظرت ناحية قدمي الدامية فزاد الألم أضعافا مضاعفة وكنت على وشك السقوط وبصعوبة تمالكت نفسي وقيس بجواري لا يحاول قتلي هذه المرة كالمعتاد، نظر النبي وقال بصوت وتبرة سورية أو عراقية أو لبنانية لا أعلم لم أكن خبيرًا في اللهجات.

- لا تخف يا أخي... لم تعد هدفا لي بعد الآن.

لم أصدقه وكل ما أفكر فيه الآن هو الهرب بعيدًا، ولكن قبل أن أهرب يجب أن أعلم المزيد عما أهرب منه يجب أن أعلم أكثر عن عدوي لا معلومات عبر الإنترنت أو مقالات أو مقاطع مرئية تتناول شيئًا عن هؤلاء وبطاقاتهم التي تمنح الأموال بلا نهاية، وذلك القاتل الجديد من الواضح أنه أكثر دهاء وعنفًا وبراعة عن قيس، وقيس هو فرصتي الوحيدة لمعرفة ما يحدث من حولي.

- من يكون ذلك الشخص في الأعلى؟

نظر لي قيس وقال:

- إنه قاتل أو قاتلة تسعى للتخلص مني لأنني فشلك مرتين في قتلك ومن المؤكد أنها سوف تبحث عنك بعد أن يتخلص مني.

- إنها تأكل ضحاياها يا رجل!

- لا تأكل بل تشرب الدماء، أخي. تلك القاتلة من مصاصي الدماء، وهي من أعضاء العائلة الأصليون.

- يا إلهي!

صمت قيس لحظات ثم أردف:

- أنا راحل يا أخي.. ليرحم الله روحك البائسة!

***

توقفت عن الحديث فسألت فريدة:

- مصاصو دماء!

ضحكت وهمهمت:

- سخافة.. أعلم أن حديثي سخيف..

ابتسمت فريدة وتجاهلت كلماتي، وقالت مغيرة دفة الحديث بعدما دونت شيئًا ما في دفترها:

- ومنذ ذلك الحين أنت هارب!

رفقت ما دونته وفشلت في تفسيره، ولكنني توقعت انها كتبت أنني مجنون للغاية، مجنون جدّاً.

- لا أيتها الطبيبة أنا لم أهرب على الإطلاق.

- ماذا تقصد؟

- في تلك اللحظة جاءت سيارة غريبة ووقفت أمامي وأمام قيس وهبط منها رجال ضخام ألقوا بنا في سيارتهم وغطوا وجهينا.

***

حينما عدت إلى وعيي كان الصداع شديدًا في رأسي، كل شيء من حولي مشوش وللوهلة الأولى أشعر أنني لا أتذكر أي شيء على الإطلاق، كنت مقيدًا في مقعد خشبي وجواري قيس الأحمق بالقيود ذاتها، لم أستغرق وقتًا طويلاً حتى تذكرت كل شيء، وعلمت سريعًا أننا داخل قصر ما في مكان مهجور وبعيد، تلك الأحداث كانت غريبة للغاية، حياتي كلها انقلبت رأسًا على عقب بسبب محض صدفة خسرت فيها كل شيء، وفجأة وجدتُ نفسي داخل صراعات عائلات قوية ونفوذ لا تنتهي، كشخص استيقظ فجأة ليجد الفضائيين يهبطون علينا من السماء. كيف صار كل شيء غريبًا بتلك الصورة، كأنني أتعرف العالم من جديد، نظرتُ إلى الأحمق المقيد جواري وهو غارق في النوم وأخذت أناديه بصوت منخفض، قمة السخرية ألا أجد بديلًا لكي يساعدني سوى القاتل المأجور الذي تسبب في قتل زوجتي بالرغم أنني كنت لا أحبها كثيرًا خاصة بعد ما فعلته مؤخرًا في علاقتنا، ولكنها زوجتي بكل تأكيد، وكنت أفضل الانفصال الطبيعي وليس الموت.

- أنت يا رجل.. أنت. استيقظ وأخبرني أين نحن؟

توقعت عدم رده ولكن القاتل فاجئني حينما رد سريعًا دون أن يفتح عينيه:

- اهدأ.. أنا مستيقظ.

قيس كان يدّعي النوم حتى يستغرق المزيد من الوقت لكي يفكر ويحلل الأمور من حولنا وسريعًا علمت أن ذلك الشخص من المحتمل أن يُخرجنا من ذلك المأزق رغم أنني مقتنع بشدة أنه كلما هربنا من فخ وقعنا في آخر، واعتقادي بأن تلك الليلة لن تنتهي سوى بتخلص العائلة منا يزداد بشدة، قلت:

- حسنًا أخبرني...

رد قيس مقاطعًا بصوت منخفض يشبه الهمس:

- لو علمتُ لأخبرتك.. أنا لا أعلم شيئًا وأبق صوتك منخفضًا.

لم أسمع كلماته جيدًا، ولكنني علمتُ من نبرة صوته أنه يأمرني بخفض صوتي.

- هل لديك طريقة نهرب بها من هنا؟

- أعمل على الأمر.

- كيف لرجل مثلك ألا يعلم أعداءه أنا لا أفهم أي شيء على الإطلاق، لماذا الجميع يطاردني بتلك الصورة؟ أنا مجرد إنسان عادي.

- أعلم أنك إنسان عادي.. والإنسان العادي لا يحق له أبدًا امتلاك بطاقة أموال لا تنتهي، لم تُصنع تلك البطاقات للبشر العاديين كل شيء كان متوازنًا إلا عندما عبثت في نظام العائلة.

- يا إلهي.. يا إلهي كل هذا من أجل تلك البطاقة اللعينة! أقسم أنني لم أقصد كل هذا.

- اهدأ.

صمت قيس لحظة ثم أضاف بصوت خافت:

- الأمر شديد التعقيد يا أخي، لم يكن عليك قط سرقة تلك البطاقة.

- لم أسرقها، الرجل كان يحتضر ومنحها لي.

- أنا لا أعلم من يكون المالك الأصلي، أنا مجرد مأجور قادم لتصحيح بعض الأوضاع الخاطئة.

- وهل نحن مخطوفان الآن ممن استأجروك لقتلي؟

- محتمل، لا أعلم..

هبطت سيدة أنيقة في خمسينيات عمرها من الطابق العلوي، ترتدي رداءً أبيض فضفاضا وتشبه ملكات مصر القديمة شعرها أسود فحمي وقصير ينقصه تاج الملكات، وحول رقبتها عقد يتخذ من الثعبان شكلًا له لها بشرة ناعمة غير مجعدة وقوام ممشوق وجسد مشدود كما يغطي ذراعيها وشم أسود على شكل مفتاح الحياة، وقفت السيدة أمام عيني وقالت بصوت عذب وهادئ للغاية:

- أعتذر عن تلك الطريقة، ولكنني لو لم أفعل ذلك لكنتما من الموتى الآن، مرتزقة العائلة كانوا يحيطون بالمستشفى من كل الجوانب وعملية اغتيالكما كانت ستتم هذه المرة ولا مجال للفشل فيها.

كانت ملامح السيدة مألوفة لي، ولكنني لا أتذكر متى رأيتها من قبل.

- أفهم من حديثك أنك لست من العائلة الملعونة؟

على العكس، أنا من العائلة، أنا عضو أصلي ورقمي ١٩٠، ولكنّ العائلة لم تعد كما كانت الصراعات الداخلية فيها صارت متفاقمة إلى حدٍ كبير، وهذا ما دفعها إلى قتل العضو ٣٢١٠.. العضو الذي تحمل أنت بطاقته يا تيام.

لا أعلم لماذا فاجئني أن موت ذلك الرجل لم يكن مجرد حادث، بل أمر مدبر.

- كل شيء أعد له مسبقًا.

تحدث قيس هذه المرة:

- بالتأكيد أيها الأحمق.. ألم تفهم بعد؟

التزمتُ الصمت وحاولت ترتيب كل شيء في عقلي ولكنّ التفاصيل كانت كثيرًا للغاية، لعنت داخلي تلك اللحظة المشؤومة التي أخذت فيها البطاقة الملعونة، ولكن حتى أكون محقًا كان يوجد هاجس داخلي كأنه صوت غير نادم على كل ما حدث، كأنني سعيد بمعرفة هذا القدر من الأسرار ولا يزال يوجد الكثير أود معرفته، على الأقل تلك المخلوقات التي تشرب الدماء من أين جاءت وكيف بدأت حكايتهم، فسألتهما:

- ولكن لماذا حدث كل هذا؟ ما علاقة كل تلك الأشياء ببعضها البعض؟

نظرت إليّ السيدة بعينٍ حانية واومأت لي وهي تفهم كلماتي وأسئلتي، فأجابت:

- أظن أن ذلك غير مهم الآن... إنها قصة طويلة للغاية ومعرفتكما للمعلومات لن يزيد موقفكما سوى السوء. الأفضل لكما أن تظلا على هذه الشاكلة.

قلت بغضب ناكرًا أن يكون هناك أسوأ من حالنا:

- ولكننا مطاردان من كل شيء!

لم تهتز نبرة صوتها الهادئة تحدثت بكلمات تشبه الهمسات:

- لا تقلق.. سوف أساعدك للتخلص من تلك المطاردة.. ولكن الأمر سوف يتطلب تضحية صغيرة منكما.

لم أكن أهتم بالأمر كثيرًا، فلم يعد لديّ ما يمكن التضحية به الآن، ولكن قيس نظر لها وسألها بحسم:

- وما تلك التضحية؟ دومًا تلك الكلمات تحمل في طياتها المصائب.

ضحكت السيدة وأجابته:

- سوف يتنازل كلاكما عن اسمه وهويته بالكامل.. وغدًا سوف ترحلان إلى ألمانيا ومعكما بطاقتا هوية جديدة، ونصيحة أخيرة ألا يعبث أحدكما من جديد في الماضي، لأنهما سوف يجدان جثتيكما خلال ساعات...

حسنًا لم تكن التضحية مؤثرة للغاية، بل إنني أعدها هدية وبداية جديدة، سأل قيس من جديد:

- جثتينا؟

أضافت السيدة موضحة حديثها أكثر:

- أقصد سوف يتم تزييف موتكما.. خالص التعازي لك يا تيام في رحيل زوجتك المسكينة، أما عنك يا قيس فلا أعلم، كنتُ أود ألا أساعدك ولكن إنها الأوامر. وجودك مطاردًا من المحتمل أن يسبب لنا متاعب كثيرة، أتمنى أن تستفيد من تلك الفرصة غير المستحقة لك، وتصير إنسانًا مختلفًا وجديدًا ونقيًّا.

انتهى الحديث بيننا وتركتنا السيدة ننم في سلام داخل إحدى غرف أنيقة تمتلئ بالرفاهية ووسائل المتعة والراحة كان عقلي شاردًا ومفكرًا في كل ما حدث لنا خلال الأيام البسيطة السابقة وكيف كانت صدفة مشؤومة جلبت لي الكثير من الأموال، جعلتني أرى وأتيقن أن مزحة مصاصين الدماء حقيقية وأنه يوجد نظام عالمي سري يحكم الكون كله وهو يملك جيشا أو جنودًا أو أعضاء أو أبناء، لا أعلم. من ذوي القدرات الخارقة الذين يشتهون شرب الدماء، يا للسخافة!

هل هؤلاء شاربو الدماء لديهم خشية من الشمس مثلما رأيت في الأفلام وقرأت في الكتب؟ هل هؤلاء أبديون كما شاع دومًا عنهم؟ هل أنا أحلم وكل هذا مجرد وهم داخل عقلي لا أكثر؟ هل بالفعل تسرب غاز من السخان وقتل زوجتي وصرت أنا مجنونا أهذي بتلك الحماقات؟ أم إنني أعيش تجربة كالتي عاشها ليوناردو دي كابريو في فيلم Shutter Island وسوف يتضح في النهاية أن كل هذا مجرد محاكاة؟

في الليل ، جمعني لقاء آخر مع السيدة الأنيقة حينما خرجت من غرفتي قاصدًا دورة المياه، وبعدها صرت أتجول في القصر رأيت صورة معلقة على الجدار تقف بداخلها السيدة الأنيقة، ولكنها ترتدي ملابس أظنها تعود للعصر الفيكتوري، وهنا فزعت حينما جاء صوتها من خلفي:

- ألم تنم بعد؟

انتفض جسدي ونظرت لها فضحكت وشرد ذهني لحظة ثم أجبتها:

- وكيف لي النوم وكل ذلك يحدث حولي؟

- أنت محق.. أنت رأيت الكثير.

- هل يمكنني أن أسألك سؤالا؟

- بالتأكيد.

- كيف دخلت تلك العائلة وأنت قبل سنوات حاولت فضحها؟

- لطيف.

- أنا تذكرت لقد شاهدتك في إحدى القنوات التليفزيونية قبل سنوات تتحدثين عن التنظيمات السرية وكيف تحكم العالم، هل كنت حينها تعملين تحت هويتها؟

- تلك الجماعات تبحث عن المميزين والكم الهائل من المعلومات التي نشرتها على العامة أثارت إعجابهم.

- كلماتك مختصرة للغاية.

- صدقني قصة دخولي العائلة أن سردها عليك سوف تحتاج أسبوع كاملًا.

- لهذه الدرجة طويلة!

- طويلة ومعقدة ومخيفة.. أنا خسرت كل شيء وكسبت كل شيء.. صدقني جهلك بتلك المعلومات مفيد لك، أنا أحاول الحفاظ على حياتك.

- بعد رحيلنا ماذا سوف تفعلين؟

- كما كنت أفعل قبل أن أخطفك في قصري.

- أي...؟

ابتسمتْ السيدة فعلمتُ أنها لا تود الإجابة، فضحكت وأومأت:

- حسنًا فهمت.

ولكن الفضول هزمني وجعلني أسألها بشكل مباغت:

- هل أنتِ من مصاصي الدماء؟

لكنها رفضت الرد على سؤالي وأخبرتني أنها سوف تنام، وطلبت التوقف عن البحث والتساؤل وأخذ قسط من الراحة.

***

توقفتُ عن سرد قصتي شاعرًا بإرهاق شديد، تنميل في مؤخرة رأسي، ورعشة طفيفة أمام عيني تنتابني من وقت لآخر منذ اللحظة التي سمعت فيها معزوفة الشيطان للمرة الأولى لا يزال قيس عاجزا عن فهم ما حدث يوم سمعت لحنه الملعون ولم أمت، ولكنّ الأقدار كانت رفيقة بي حينذاك، شعرتُ أن فريدة الطبيبة تعاني من الإرهاق ذاته وأعتقد أن

الأوان قد حان لنهاية تلك الجلسة بيننا، شربت قدحًا من الماء وكذا الطبيبة فعلتُ، ثم نظرت لي وقالت:

- سيدة؟

كانت تقصد الساحرة إيفيت بكل تأكيد، نطقها سريعا وأردفت:

- إيفيت..

- السيدة إيفيت طلبت منكم الرحيل ومنحتك الأموال وكل شيء حتى الهوية الجديد، ولكن لماذا تفعل كل هذا؟

- بل منحتنا عنوان شخص تعرفه حتى يساعدنا هناك...

- هذا غريب يا رجل!

أخرجت هاتفي وأتيتُ بصورة للسيدة إيفيت التي ظهرت على شاشات التلفزيون منذرة الناس أجمعين من مخاطر العائلات والجماعات السرية قرأتها فريدة وسحبت الهاتف من يدي وهي تنظر إليها من فوق نظارتها:

. مهلًا، أنت محق، إنها هي.. الكل كان يتساءل أين اختفت.

ظللت صامتًا وأضافت فريدة:

- تلك السيدة ظهرت قبل عشر أعوام على شاشات التليفزيون في ثلاثة لقاءات مسجلة مع المذيع آسر يونس وتحدث بكثرة عن...

ابتسمت وقلت:

- حكومات الظل...

أجابت فريدة وهي تتذكر بحماسة شديدة:

- نعم نعم تذكرت كانت تتحدث عن حكومات الظل ثم بدأت في توقع الكثير من الأمور التي حدثت لاحقا.. قرابين الأطفال والزلزال المدمر الأخير قبل عامين وأيضًا تحدثت عن الوباء.. يا إلهي تلك السيدة كانت محقة في كل شيء، ولكن لم يكن اسمها إيفيت، بل.. لا أتذكر

قلت لها:

- دكتورة آيات مخلص البشرية والثائرة الأخيرة أمام جنود الشيطان.

قالت فريدة:

- نعم إنها آيات...

دون أن تطلب إذني تجاوزت فريدة الصورة على هاتفي لتظهر صورة أخرى لإيفيت جثةً بجرح غائر وعميق في رقبتها، وكذلك رمح خشبي مغروس في صدرها فكادت أن تعتذر على العبث بالهاتف ولكن هول الصورة جعلها تتوقف فارتعش لسانها، وقالت:

- مهلًا، أهذه السيدة التي وجودها قبل عام مقتولة داخل بيتها الفخم في الساحل الشمالي؟ يا إلهي قتلوها!

ظللت صامتًا وتذكرتُ بغضب ما حل بتلك السيدة الأنيقة الجميلة، أضافت فريدة:

- قتلوها.. إنهم يقتلون الجميع بحق الجحيم، آيات كانت الدرع الأخير أمام تلك العائلة.

همهمتُ قائلًا في أسفٍ:

- إنّها العائلة الأولى والأخيرة يا سيدتي من الأزل وحتى الأبد، إنها أعظم قوة على الأرض، توغلت في كل شيء ذا أهمية إنها تملك العلم والمعرفة، والسلاح، والنفوذ، والأموال.. إنها تملك الأرض وتكتب التاريخ وتسرق الكنوز وتوزع الخيرات بقدر بسيط حتى لا يتمرد أمامها أحد.

نظرت إلي وسألتني باستنكار:

- قتلوها لأنها ساهمت في هروبكما؟

تنهدتُ وقلتُ ناهضًا من مقعدي:

- ظننت ذلك في البداية، ولكنني علمتُ لاحقًا أن الأمر أعمق من ذلك.. أنا أشعر بالإرهاق لنكمل حديثنا الأسبوع المقبل...

- جميل أنك حصلت على إجابة سؤالك الأخير.

نظرتُ لها ولم أفهم مغزى حديثها، فأردفت:

- يوجد رمح خشب في صدرها.. إنها من مصاصي الدماء.

تحركت ناحية الباب ولم أنتظر ردًا منها قائلا:

- إلى اللقاء يا دكتورة فريدة...

قالت فريدة:

- إلى اللقاء يا عزيزي.

***

القسم الثاني
شاربو الدماء
وجدوا الثغرة التي
يبحث عنها الكثيرون!
-١-
صحف العربي المجنون
المجلد السابع عشر
من صفحة ٤٨ إلى ٦٠

المحروسة - يناير ١٨٠٠

نامت العيون باكرًا وساد الصمت داخل الشوارع والبيوت أغلقت الحوانيت أبوابها بعد الغروب مرغمة حسب الأوامر الجديدة التعسفية وفرض حظر التجوال في جميع الطرقات، رغم ذلك تحرك بدوي بثبات غير مبال بكل المخاطر التي تحيط به، كان الرجل يطرق بعصاه على الأرض بقوة كأنه يريد إخبار الجميع أنه يتحرك في ظلمات الليل لا يبالي بأوامر النظام أو بطش قطاع الطرق، في مدخل الزقاق المجاور لوكالة الملايات توقف ليفرغ مثانة ضاقت بحملها، رفع جلبابه وزفر في راحة وهو يفكر في خطوته التالية وما سوف ينتج عنها من خير عظيم له ولكل نسله من بعده، عاد للطريق وأكمل طريقه الخالي من البشر عدا ذلك المجذوب الجالس بجوار الجامع يردد:

- يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف.. يا خفي يا الألطاف نجنا مما نخاف.

تجاهل كل شيء واستمر في طريقه، لم يتخذ كلمات المجذوب تحذيرًا له كما يفعل دومًا، رفع المنادي صوته ينادي لصلاة العشاء في استحياء

خشية بطش الجنود الفرنسيين لمخالفته قوانين الحظر الصارمة، فسخر بدوي من ذلك المنادي وهو يضحي بنفسه لأجل مصليين لن يصلوا أبدًا، تغيرت أحوال البلاد كثيرًا بعدما توغل الفرنسيون فيها فلم تعد المقاومة مجدية ورحل الكثير من العلماء والأعيان إلى خارج البلاد ولكن بدوي وسط كل هذا لا يبالي، فأخيرا الرجل وجد نفسه وجدد أحلامه وطموحاته توقف عند رفاق آخر وهو يعلم بداخله أن ذلك المكان هو المنشود، خلع عمامته وسلخ المعطف، لم يشعر بالبرودة رغم قسوتها وكلما تخلل الهواء صدره زاده انتعاشا واسترخاء، أخرج قناعا أسود من جيب معطفه ووضعه على وجهه ثم ألقى بالمعطف والعمامة أرضًا، ودخل الزقاق وعند ثالث بيت على اليسار بدأ في طرق الباب أربعة مرات متتالية فتح الباب من الداخل وظهر رجل يرتدي جلبانا وقناعا أسود مشابها لما يرتديه بدوي.

- من تكون يا رجل ؟

تنهد بدوي وأجاب:

- بدوي..

دخل الرجل وشرع في إغلاق الباب أمام بدوي وقال:

- لا أسماء هنا..

وضع بدوي يده على الباب حتى لا يُغلق إلى النهاية وأضاف:

- نعم. نعم.. حسنًا أنا الابن رقم مائة.

توقف الرجل عن غلق الباب وعاد لفتحه من جديد

- هذا أكيد يا أخي... ولكن يجب أن تضع القناع على وجهك بشكل صحيح يمكنني رؤيتك بكل وضوح، ولو علموا أنني رأيتك سوف تقتل في الحال ومن المحتمل قتلي أيضًا لا أعلم.

همهم بدوي بصوت منخفض:

- يا إلهي

سمعه الرجل فقال:

- حتى هذا له هنا مقاييس ونظريات أخرى هؤلاء لهم كرامات يأتيهم الوحي من الأنبياء والعظماء.

علّق بدوي وهو لا يفهم كلمات الرجل:

- يا واقعة سودة ماذا تقصد بكلماتك يا رجل ؟

أجاب الرجل في ملل وهو يفتح الباب على مصراعيه أمام بدوي حتى يفسح له المجال للدخول:

- لا عليك الآن سوف تتعلم كل شيء في وقته كل ما أريدك أن تفعله الآن هو أن تعدل وضعية قناعك وتتحرك نحو الداخل وتلتزم الصمت قدر الإمكان حتى لا تخطئ وتقول ما لا يجب قوله، وبالتأكيد لا تخبرهم أنني رأيتك.. أنا أعلم أنك قلق مهما حاولت إظهار عكس ذلك، أتذكر جيدًا المرة الأولى لي هنا كانت غريبة ومربكة للغاية، وبالتأكيد لا تخبر جماعتك، أقصد زوجتك أي شيء أنت تعلم النسوان وكثرة حديثهن!

- بكل تأكيد.

عدل بدوي قناعه وصار الآن يخفي ملامحه أكثر ثم دلف نحو الداخل مع المقنع الآخر، البداية كانت إحدى الطرقات المظلمة الخاوية عدا طاولة خشبية مستديرة على اليمين يعولها خمس شموع مضيئة موزعة حول كومة من الأوراق البيضاء وجوارها قلم بوص ومحبرة، توقف الثنائي أمام تلك الطاولة وأمر الرجل بدوي وهو يمنحه ورقة مطوية على نفسها:

- اقرأ هذه الكلمات ثلاثًا، ثم اكتبها على تلك ورقة من تلك الأوراق واكتب اسمك في الأسفل.

فرد بدوي الورقة وتأمل حروفها وكلماتها المخطوطة بخط رقعة جميل وقرأها:

- أقرُ بالموافقة على ذلك العهد الأبدي بالانتساب إلى العائلة الأولى... سوف أعيش للعائلة دومًا ... روحي وكل ما أملك لها ... تتعهد العائلة بتنفيذ كل ما أريد .. وأتعهد أنا بتنفيذ كل ما تريده العائلة..

أمسك بدوي القلم ودوّن الكلمات بيد مرتعشة، يشعر بسقوط الحبر كأنه سقوط ذكرياته الماضية الفقيرة للأبد، يُدوّن كأنه يتنازل عن الذل والمهانة وقلة الحيلة والاستعباد، يعلم أن ذلك النفق المظلم الواقف فيه هو الصراط الفاصل بين الجنة والجحيم وهو الآن يكتب ميثاق النعيم الأبدي، ولكن ما يحدث الآن لم تكن وجهة نظر سوى بدوي وحده، فأخوه جعفر كان يرى أن ذلك العهد هو تنازل المرء عن روحه للشيطان ذاته، ورأى أن هؤلاء لا شيء سوى أبالسة من أتباع الدجال، وأن كل ما يحدث وكل وعودهم كما أخبرنا الرسول أنها وعود وجنات كاذبة وأن نعيمهم هو الجحيم ذاته والواجب على الجميع هو كفاح

هؤلاء ومحاربتهم والقصاص منهم وتعليق أوصالهم على أبواب البلاد حتى يكونوا عبرة للجميع.

لم يفكر ووقّع بدوي على كلماته وعهده ثم انغمس أكثر في النفق المظلم حتى ذلك الضوء البعيد، وهناك كان يوجد عدة مقاعد من الخشب مرتفعة عن الأرض. حولها مقاعد يجلس عليها أناس ترتدي الأقنعة نفسها عدا مقعد واحد كان فارغا، ففهم أن ذلك المكان مخصص له، شكر بدوي الرجل وشرع في الدخول فقال الأخير:

- لا تسأل أحد عن اسمه في الداخل، تذكر دومًا أنه لا أسماء هنا.. كلنا إخوة كلنا واحدا واخلع نعليك قبل أن تدخل إلى القاعة المقدسة.

أوما بدوي في تفهم ونزع حذاءه ولم ينطق بكلمات أخرى مع ذلك الرجل، وفي الداخل جلس بين رفاقه وحاول الا يبدأ الحديث مع أحد، ولكن الوقت استطال مع الصمت الدائم بين الجميع فلم يتحمل بدوي ذلك الأمر فسأل متى سوف يبدأ الاجتماع، فأجابه أحد الحاضرين:

- بعد أن يأتي الأب...

لم يفهم بدوي الحديث، فقال:

عذرًا إنها المرة الأولى لي...

نظر الجميع إلى بدوي وقال شخص آخر من الحاضرين:

- مرحبًا بك يا أخي.. صدقني لقد وقع اختيارك لمهمة عظيمة، معنا ستتعلم الكثير من أسرار الكون والعالم. أنت مميز يا أخي ويجب أن تفخر بنفسك، نحن العائلة الأولى العائلة الأزلية والأبدية...

راق إلى بدوي تلك الكلمات وبثت فيه الكثير من الاسترخاء والانتعاش فتسائل من جديد ولكن بثقة وفضول أكثر عن السابق:

- من يكون الأب؟

قال أحدهم:

الأب هو قائد ذلك المجلس والمسؤول عنا.. هو من يمنحنا المهام الواجب علينا تنفيذها وأيضًا نطلب منه ما نريده وهو ينفذه لنا في الحال...

ظهر رجل مهيب عند باب القاعة فكان الواضح أنه الأب الذي تحدث عنه أعضاء ذلك المجلس، وخلفه رجل ضخم الجثة من الواضح أنه مساعده أو حارسه الشخصي، كلاهما يرتدي قناعًا، فك الأب المست الجلدي الذي يغطي نعليه ثم خلعهما، نهض جميع الأعضاء مرحبين بالأب ومقبلين يديه الاثنتين، ثم أفسح الجميع المجال إلى بدوي حتى يدخل ويفعل كما فعلوا، تردد الأخير فلم ينحن أمام أي إنسان طوال حياته وتذكر أنه لم يأتِ إلى هنا سوى للتخلص من الذل والانحناء، ولكن من الواضح أن الانحناء لن يتلاشى سوى بالانحناء، نفّذ بدوي الأمر، وقبل يد الأب، وهنا قال أحد الأعضاء:

- هذا الرجل هو ابن جديد في العائلة يا أبانا.

أومأ الأب وقال:

- أعلم ذلك.. إنه ليس مجرد ابن إنه آخر العنقود.. رقم مائة يا مرحب بك يا بني في العائلة.

نظر بدوي للجميع ثم عاد ببصره إلى الأب من جديد وقال:

- أنا وروحي وأسرتي وأهلي كلها في خدمة العائلة يا أبانا....

أجاب الأب وهو يقترب نحو مقعده على رأس الطاولة:

- أعلم ذلك يا بني.. أعلم ذلك!

جلب الحارس الضخم مقعدًا ووضعه على رأس الطاولة وأشار إلى الأب حتى يجلس عليه فجلس وظل ينظر إلى الجميع وكأنه يستعرض أفكارهم، كان للمشهد مهابة مخيفة تبث الذعر في القلوب في الجوار، جلس الحارس الضخم أو العبد الخدوم وصار يقرب لسيده أكواب النبيذ كانت عيناه مثبتتين على عيني الأب دومًا، يدرس رغباته لينفذها قبل أن ينطق بها.

تجرع سيد المجلس قدحين من النبيذ ثم كسر الصمت وقال:

- من شَهِدَ الشجار الذي حدث مؤخرًا في بولاق بين الفرنسيين والفلاحين؟ كانت تحركات الفلاحيين مثيرة للاهتمام كيف أتى هؤلاء الحمقى بهذا الكم من «الطبنجات» وكيف يُصوّبون أسهم الجريد الفتاك بتلك الدقة كما حملوا السيوف ببراعة حتى الممالك أنفسهم لا يستطيعون فعل ذلك؟

علّق أحد الحاضرين:

- ولكن الفرنسيين انتصروا في النهاية وقتلوا أغلبهم.

قال الحارس الضخم:

- يجب أن تقدم نفسك للأب قبل أن تتكلم يا أخي.. وبالتأكيد يجب عليك عدم قطع حديث أبينا.

تنهد الأب وهمهم:

- لا عليك يا رقم مئة وعشرين.

هنا علم بدوي أن ذلك الأحمق المجاور للأب هو عضو مثلهم، ولكن رتبته واضح أنها أكثر علوا وتقربا للمناصب العليا، ومن الواضح جليًا للجميع أن رقم مائة وعشرين بارع في جذب الاهتمام حيث إنه كثير الحديث والكلام، ومحتمل أن يكون له خدام ينقلون إليه أسرار جميع الأعضاء، فالجميع يعلم أن ذلك الرجل دومًا يسبق الجميع..

شرب الأب قدحًا آخر من النبيذ، ثم قال:

- لا أتحدث هنا على الانتصار يا بني.. أريد أن أعلم فقط من المسؤول عن تدريب هؤلاء الفلاحين من وراء تلك البراعة المتناهية، بالتأكيد من استطاع تعليم هؤلاء الجهلاء القتال بتلك الصورة البارعة فهو شخص مميز وعائلتنا دومًا تبحث عن المميزين.

تذكر بدوي أخاه وكم هو معارض للانضمام إلى تلك العائلة وكيف يراها أنها من أتباع إبليس وأبنائه، فحاول التوغل داخل ذلك النقاش، فسأل:

- وماذا إن رفض الانضمام إلى عائلتنا يا أبي ؟

نظر الجميع إلى بدوي، فبدا إليه حمق سؤاله فأضاف بصوت مهتز:

- أعتذر لو كان سؤالي أحمق، ولكنني فعلا لا أعلم ما الإجراءات المتبعة في مثل هذه المواقف.

- نحرقه المميز الذي يرفض الانضمام إلى عائلتنا يُحرق.

قال الحارس هذه المرة بصوت حاد:

ابتلع بدوي لعابه بصعوبة وبدأ يفهم أن الحياة داخل تلك العائلة رغم مدى رفاهيتها الواسع إلا أن الأخطاء فيها غالية الثمن للغاية، فتساءل شخص آخر من الجالسين بصوت واضح عليه شيء ما من الغضب:

- هل نحن نساند الفرنسيين الآن في تلك الحرب! منذ انضمامنا إلى تلك العائلة لم يخبرنا أجد أننا سوف تصبح خائنين إلى بلادنا وأرضنا وأهلنا..

قال الأب متسائلاً:

- ما هو رقمك يا بني؟

أجاب العضو:

- أنا رقم ثلاثمائة.

رد الأب بحزن وهو يشير إلى حارسه العضو مائة وعشرين:

- هذا مؤسف ...

نهض الابن مائة وعشرون وتحرك ناحية ثلاثمائة فقام الأخير بصوت يكاد يبكي:

- أنا اعتذر يا أبانا، لم أقصد بكل تأكيد.. أنا فقط أتساءل.

ظل مائة وعشرون يتحرك ناحيته فنهض ثلاثمائة من على مقعده وأزال قناعة وكانت المفاجأة كان ذلك العضو هو إمام الجامع وكان صديقا

مقربا بشدة لبدوي. لم يفكر الأخير في التدخل وعلم مدى فائدة تلك الأقنعة في مثل تلك المواقف، لو علم الإمام أن صديقه بدوي جالس أمامه مباشرة لكان استغاث به ومن المحتمل أن يأمر الأب بالتخلص منه هو أيضًا. أمسك مائة وعشرون رقبة الإمام وظل يضغط عليها حتى سمع الجميع صوت تهشيم عظامه ثم القى الجلة الهزيلة بعيداً، وعاد إلى مقعده بالثبات والهدوء ذاتهما لا تعليق من أي عضو من الأعضاء وساد الصمت طويلاً بين جميع الحاضرين إلى أن قطعه الأب قائلًا:

- ابن ثلاثة وخمسون؟

صمت الجميع ثوان ولكن بدوي علم بسرعة من يكون ثلاثة وخمسون حينما رمق العضو المجاور له في حالة من الرعشة والخوف الشديد، تساءل الأب من جديد فرد ثلاثة وخمسين بصوت مهزوز شديد الخوف:

- أنا..

قال الأب بنبرة الصوت الهادئ ذاته:

- أنا غاضب منك يا ابن الثلاثة وخمسين.

كاد أن ينهض الحارس من جديد، ولكن الأب أشار إليه بالجلوس وتنفس الجميع الصعداء، فقال ثلاثة وخمسون بصوت خائف:

- أعتذر لك أبانا. أعتذر، أعدك أنني سوف أصلح أخطائي كافة.

رد الأب متجاهلًا الاعتذار:

- ما المشكلة في رقعة أرضك؟

أجاب ثلاثة وخمسون بصوت متسارع بنبرة مرتعشة مذعورة:

- المشكلة أن الشرقاوي ذراعي اليمين لم يعد يستطع السيطرة على الناس هناك في جلب الإتاوات منهم شيوخ الجامع، يخطبون في الناس كل يوم جمعة. ويجهزونهم على عدم دفع الإتاوة، وأيضًا يجهزون جبهات مقاومة جديدة ضد الجنود الفرنسية.

همهم الأب بنبرة جادة:

- أحرق ذراعك اليمين وسأرسل لك ذراعًا أخرى....

هز ثلاثة وخمسون رأسه متفهمًا كلمات الأب، ولكن الأخير ناداه مجددًا:

- ثلاثة وخمسين....

- نعم أبانا.

- أحرق ذراعك!

- حسنًا.. سأفعل أقسم لك.

صب الآب كأسًا جديد من النبيذ وشربه في الحال ثم تساءل مازحًا:

- من يريد الشراب؟ حسنًا لا احد؟

شرب كاسًا آخر وتساءل مرة أخرى.

- من لديه طلبات تساعده في تلبيتها الآن؟

تردد الجميع لحظات والظل الكل ينظر إلى الباقيين حتى يبدأوا هم الكلام أولا، ثم قطع أحدهم تلك الحالة، وقال بصوت مستغيث:

- أريدك أن تساعدني يا أبانا...

تحمس مائة وعشرون وكاد أن يوبخ العضو المتحدث لأنه لم يذكر اسمه في بداية كلمته وتمنى لو قام من مقعده وهشّم عظامه مثل سابقه، ولكن الأب قطع أفكاره في الحال بصوت هادئ

- هون عليك يا بني وقل ما لديك.

استقر صوت الرجل أكثر، وأردف في حديثه:

- كلُّ أرضي بارت من قلة المياه ومحصولي تلف وما حصدته منه لا أستطيع بيعه. الفرنسيون يفرضون ضرائب باهظة وأنا لا أستطيع دفعها.. أنا في ضيق شديد.

سأله الأب:

- ما رقمك يا بني؟

أجاب العضو:

- أنا الابن رقم ستون.

أومأ الأب في تفهم ثم نظر إلى العضو رقم ثلاثة وخمسين المتطلع إلى إحراق ذراعه ووجه إليه الحديث:

- لن يضايقك أحد بعد الآن.. والعضو رقم ثلاثة وخمسون سوف يمنحك نصف ثروته.

شعر العضو رقم ستون بالضيق لأنه فهم أن الاب يستغل الموقف والأزمة من أجل عقاب العضو رقم ثلاثة وخمسين فقال بصوت متردد وحذر حتى لا يتخطى حدود الحديث، فدماء الإمام لا تزال تلطخ حائط الغرفة:

- أخشى أن يشعر الأخ ثلاثة وخمسون بالضيق.

صمت الجميع وظل الأب ينظر إلى ثلاثة وخمسين منتظرًا رده فقال الأخير في الحال:

- لا لا، بكل تأكيد يا أخي كلام الأب سيف على رقبة الجميع.

ابتسم الأب ثم سأل الجميع:

من لديه طلبات أخرى؟

تشجع أحدهم هذه المرة وتحدث بصوت أكثر ثقة عن جميع السابقين:

- أنا يا أبانا...

ابتسم الأم ونظر له وقال:

- حسنًا تفضل...

شعر الرجل أنه تسرع وفجأة انخفضت ثقته وقال بصوت أكثر ضعفًا وهو ينظر

للرفاق من حوله

مرسي بن عبد الله بائع الخبز الذي يعيش في... قاطعه مائة وعشرون وقال بصوت أجش - الأب يعلم من هو مرسي بن الخباز.. أكمل...

ابتلع الرجل لعابه بصعوبة وبدأ يتحسس كلماته بهدوء شديد وذعر أشد:

- رأيته يتلصص على ابنتي في حجرتها وهي تجلس بلا برقع وحينما واجهته وشرعت في ضربة دفعني وسقط أرضًا، فكاد أن يقتلني ومن جانب آخر لا أعلم كيف لي أن أقول ذلك، ولكن ابنتي تريده، وأنا مستحيل أن أرضى بأن يكون ذلك الرجل . زوجها ومع ذلك لا أريدها أن تراني قاسي القلب...

رد مائة وعشرون مرة أخرى وتساءل:

وما طلبك بالتحديد ؟

أجابه الشاكي الخائف:

- أريد القدر أن يتدخل وأن يرقد ابن عبد الله في لحده خلال أيام.

تحدث الأب موجها كلماته إلى ذلك الحزين:

- حسنًا ما رقمك ؟

- أنا الان رقم تسعة وسبعون.

رمق الأب بدوي وهو صامت بشكل دائم كأنه لا يحاول جذب أي اهتمام إليه في تلك الجلسة نظر الأخير نحو الأب فوجده ينظر إليه هو أيضاً،

حاول بدوي الابتسام ولكن شفتيه عمته ورفضت تنفيذ الأمر، فقال الأب وهو ينظر إليه:

- حسناً يا تسعة وسبعين.. أرى أن تلك المهمة احتمال أن تلائم ابننا الجديد رقم مائة.

رد بدوي بصوت متسارع متعالي يفتقد لكل معايير الثقة والأمان:

- بالتأكيد أنا لا أمانع في خدمة أخي...

صمت لحظة ثم أضاف:

- ولكنني لا أفهم تحديدًا ما المطلوب مني!

رد مائة وعشرون وهو يدفع لفافة بها مسحوق أبيض اللون:

- ستقتل مرسي بن عبد الله بذلك السم...

همهم بدوي إلى نفسه.

- أقتل!

سمعه مائة وعشرون فأضاف:

- نعم.. خلال أسبوع واحد للعلم بالشيء نصف تلك الكمية كافية للتخلص من مرسي إلى الأبد الزرنيخ بلا طعم أو رائحة تذكر ولا يتلف بالحرارة أو البرودة يمكنك خلطه بالشاي أو النبيذ أو حتى أي مقبل عاهرة يضاجعها وفي الحال سوف يفترق جسده وروحه إلى الأبد يا أخي.

لم يجد بدوي أمامه سوى الموافقة حتى لا يكون قصيرة مماثلًا لمصير الإمام فأخذ الثقافة ودسها في جلبابه، وهمهم بصوت يكاد لا يسمعه سواه:

- حسناً.

انتهى الاجتماع، فخرج بدوي إلى الشارع وأزال القناع من على وجهه فكانت الحرارة خانقة والشمس قاسية لا يعلم كيف مر الوقت وأشرقت الشمس نحو كبد السماء وهو لا يشعر كاد أن يشعر في الداخل أن الظلام سوف يدوم إلى الأبد وأن غروب السابق سيكون الأخير، ذهب الانتعاش والاسترخاء مع أول مهمة تلقاها بدوي علم أن ثمن النعيم ليس بالهين وأن يده سوف تتلوث بالدماء من اليوم الأول له كابن لتلك العائلة الغامضة، العرق يسيل على جسده بالكامل، وكاد أن يتعثر في حجر وسط الطريق ولكنه بصعوبة بالغة تمالك نفسه وأحكم السيطرة على جسده. اقترب شحاذ من بدوي وسأله المساعدة قائلًا:

- حسنة قليلة تمنع بلاوي كثيرة...

انتفض بدوي من صوت ذلك الشحاذ المباغت وصاح فيه:

- ارحل منها وإلاّ هشمت عظامك أيها الصعلوك الأحمق.. تبًا لك والشحاذين كلهم!

الشوارع ضيقة لا تتسع إلى البشر، زاد عددنا مؤخرًا رغم الهزيمة والاستعمار كأن الرجال لم تجد انتصارًا سوى على زوجاتهم، انطلق عويل نسائي في أحد البيوت ينبأ بحالة وفاة عجوز هناك كم تمنى بدوي حينذاك لو أن الأقدار خدمته الآن ومات مرسي بشكل مفاجئ حتى يريح ويرتاح، يسير بدوي بين رجال ونساء تحمل أطفالهن فوق أكتافهن

مهرولين ناحية البيت الصادر منه الصراخ والعويل. أخبره مائة وعشرون أنه فور الانتهاء من ذلك الاجتماع أن يرحل إلى حي الأحمدي المجاور لهم ويسأل على بيت السيد قارون ويخبره أن جاء من طرف العائلة الأولى ونصحه ألا يتأخر في تنفيذ الأمر حتى لا تلحق به المشاكل والأزمات، بالفعل أخذ في الطريق إلى هناك وهو يفكر في نوع الكارثة التي تنتظره هناك، وبعد وقت تقابل بدوي وقارون فكان الأخير رجلًا هذيل الجثة رفيع الصوت كالمخنثين قال وهو بدوي يتحرك يغمز بعينيه:

- عم تبحث أيها الرجل؟

شعر بدوي بالاشمئزاز من صوت الرجل ومن غمزته وفي سره أخذ يلعن مائه وعشرين والأب والعائلة كلها وفكر كثيرًا أن يرحل من هنا ويعود إلى جعفر يطلب السماح منه والعفو وليحدث ما يحدث المهم أن يكف عن تلك الرحلة المقززة ولكنه تذكر الإمام وصوت عظام رقبته وهي تتهشم وتراجع على الفور وتحمل قارون ولزوجة صوته وأجابه:

- لا أعلم.. أنا من طرف العائلة...

- أي عائلة أيها الرجل؟

- الأولى.. العائلة الأولى.

أومأ قارون وقد فهم الأمر فقال وهو يضحك مثل العاهرات:

- عضو جديد لا يعلم عن ماذا يبحث.. هذا لطيف.

- أنا لا أفهم شيئًا.

لا عليك.. أخبرني ما ذوقك.. غلمان أم جواري؟

- ماذا؟

- لا أعتقد أنك تشتهي الغلمان رغم أن لهم مذاق خاص، ولكنه طعام فريد لا يبغاه سوى المميزين.

- لا أحب الغلمان...

- حسنًا أتريد البدينة أم الرفيعة؟ البيضاء أم القمحاوية؟ فكر يا رجل ولا تضيع الفرصة.

بدأ يفهم بدوي الأمر وفي تلك اللحظة حاول تناسى كل شيء والتماشي مع الأمر وقرر أن يجيب عن كل الأسئلة الواضح أنها فرصة لن تتعوض بسهولة.

- البيضاء.. أريدها مثل الحليب.

- الحليب..

هز الرجل ذو الصوت الغريب رأسه في تفهم ثم ابتسم إلى بدوي وهمهم:

- أظن أن صباح سوف تكون اختيارًا مناسبًا جدًا لك، وأريدك أن تبلغ الأب أن ذلك اللقاء سوف يكون على حسابي الشخصي إكرامًا لعائلتنا...

- هل أنت من أبناء العائلة؟

- ليس بالضبط...

- لا أفهم.

- أبناء العائلة الأصليون وهم من ولدوا وجدوا أنفسهم منها، ويوجد التابعون وهم من تم تجنيدهم مثلك وأخيرًا هنالك المندوبون وأنا منهم.. أنا مندوب أعمل لصالح العائلة.. ولكن عرضوا عليّ الانضمام إليهم ولكنني لم أود ذلك.. أشعر أن العائلة تقيد من فيها بقوانينها الصارمة.. كما أنني رأيت قدرات الأصليون.. يا إلهي مخيفون للغاية!

- أبونا بالفعل رجل مخيف وله صوت مهيب ومخيف، وذلك التابع رقم مئة وعشرون واضح أنه كابوس لا يرحم المخطئ.

ضحك الرجل ساخراً:

- أنت لم ترَ شيئًا بعد.. لم أقصد الصوت المهيب وقبضة مئة وعشرين.. الأصليون لديهم الكثير من الأسرار، والآن دعك من ذلك لا أحب الحديث طويلا عن العائلة ودمائها.

تذكر بدوي كلمات الحب حينما أخبر أحد الأعضاء بأن يحرق ذراعه، وهو يقصد أحد المساعدين ففهم أن ذلك الرجل الواقف أمامه يعتبر واحد من مساعدي أعضاء العائلة.

- أنت اليد اليمنى لأحد الأعضاء؟

- أنا أخدم كل الأعضاء ولكن بالفعل أتلقى أوامري من واحد فقط منهم.

ظن بدوي أن بإمكانه خداع ذلك الرجل وكشف هوية أحد الأخوة لعله يستفيد من ذلك ذات يوم.

- ومن يكون؟

- ماذا تقصد؟

- أقصد العضو الذي يتواصل معك.. من يكون؟

- لا أعلم أنه لا يظهر لي سوى من خلف قناع أسود يغطي ملامحه كما أنني أشعر أنه يغير صوته أحيانًا.

- ألم تفكر أن اختلاف الصوت ينم على اختلاف الشخصيات التي تقابلك؟

ابتسم الرجل وهو يشعر بالغباء:

- أنت محق يا أخي...

أوماً بدوي في فخر وقال:

- أين الجارية؟

- تفضل، إنها بالداخل وتنتظرك.

بداخل غرفة تمتلئ بالشموع المعلقة بشكل دائري على لوح معدني يتدلى من سقف الغرفة المنقوش، تكسو حوائطها الستائر باللون الأبيض والأحمر فلا تلمح لها نافذة أو باب، حتى الأصوات الخارجية تكاد تكون معدومة كأنها تخجل التسلل إلى ذلك المكان المثير يحتوي المكان على فراش راقٍ مرتفع مصنوع من النحاس عليه لونها كألوان الستائر ويعلو كل شيء سيدة جامحة لها عينان مكحلتان وشعر أسود ناعم وطويل يحاول سترها جسدها المثير ولكنه يفشل، ينظر بدوي لها متعطشا وقد أنساه كل ما حدث خلال الاجتماع، اقترب من السيدة الجميلة وهو يعلم أن لتلك السيدة أسرارًا عديدة يتطلع إلى معرفتها واختراقها وكما يود شق أفكارها ومعرفة علاقتها بتلك العائلة الغامضة ثم الاغتسال بجمال

وعذوبة معسول كلماتها ونظراتها ورغبتها سال لعاب المسكين كلما اقترب منها ولكن بمجرد أن خمدت نيران رغبته وتباطأت دقات قلبه ابتعد الرجل عن السيدة وهاجمته الأفكار من جديد عن الهدف المنتظر التخلص منه، تذكر كلمات العضو رقم مائة وعشرين عن وضع سم الزرنيخ في وعاء مرسي بن عبدالله، اقتربت العاهرة من بدوي وحاولت جذب الحديث معه لعلها يمنحها أجرًا إضافيًّا بشكل خاص وبعيدًا عن عيني قارون القواد حيث تعلمت ذلك الأسلوب في العمل من خلال الفرنسيين.

- أنت حائر بشدة يا هذا...

نظر لها بدوي ثم شرد ذهنه قليلا وأخذ يتخيل مرسي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. اقتربت السيدة ولمست جلباب الرجل مداعبة فشعرت بلفافة الزرنيخ وضعت يدها سريعًا وأخرجتها منه:

- ما هذا؟

سحب بدوي اللفافة في الحال ووضعها في جيبه من جديد وأجابها:

- لا شيء..

ابتسمت العاهرة وقالت

- إنه الزرنيخ.. أنت من العائلة الأولى بكل تأكيد..

شعر الرجل بالدهشة من كلمات تلك السيدة، فسألها:

- العائلة الأولى؟ كيف تعلمين عنها؟ والأهم ماذا تعلمين؟

- ليس الكثير. ولكنهم يحبون القدوم إلينا كثيرًا.

- من بين كل عاهرات قارون لا يحبون سواك؟

ضحكت السيدة في سخرية شديدة وقالت:

قارون لا يمتلك عاهرات غيري.. كما أنني لا أحب لفظ عاهرة.

همهم بدوي:

- أعتذر لم أقصد...

- لا عليك..

- ولكن كيف لا يوجد عاهر.. أقصد سيدات غيرك هنا؟

لأن قارون لم يتزوج غيري!

اقشعر بدن الرجل لما يسمعه فلم يكن يقصد أو يتخيل أنه يوجد شيء مثل هذا.

- أنتِ حقًا زوجة ذلك الديوث؟

- نعم.. وأود التنبيه أيضًا أنني لا أحب كلمة ديوث.

- ولكنه يسمح لك بممارسة ذلك الأمر مع رجال آخرين.

- فقط العائلة الأولى ومن المحتمل الفرنساوية أيضًا لأنهم يدفعون الكثير، ولكن العائلة الأولى هي الأصل يا هذا مهم إخوتها وكان هذا طلب

كل الأعضاء في الاجتماع والأب أمر قارون أن ينقذ الأوامر، والأخير لا يمتلك سوى الموافقة بالتأكيد انت تعلم هذا.

- قارون من العائلة الأولى؟

شعرت السيدة بالخوف وأحست أنها قالت أكثر من اللازم. فابتعدت في الحال عن بدوي وارتدت ملابسها كأنها تعلن نهاية لقائهما عند ذلك الحد لم يسترسل بدوي وشرع في النهوض والرحيل عن الغرفة. ولكن قبل أن يفتح الباب أمسكت السيدة يده بسرعة وقالت بصوت مرتعش خائف:

- أرجوك لا تخبره أنك تعلم! سوف يقتلني.

ابتسم بدوي وريت على كتف الفتاة، وقال:

- ما اسمك يا جميلة؟

شعرت السيدة بقليل من الأمان وأجابته:

- أسماء.. اسمي أسماء.

-٢-

صحف العربي المجنون

المجلد التاسع

من صفحة ١٨ إلى ٢٤

المجلدات من ١ إلى ١٠ تخص القدماء الذين عاشوا قبل ميلاد المسيح

جمعت بعد سقوط العائلة الثانية على يد الأب الأصلي المعتصم بالله بن خالد الأحمدي

القرن الثالث قبل الميلاد

حينما مات صديقي ومعلمي كاو غادرت مصر وقررت الذهاب مباشرة نحو الغرب السحيق رغم أنني لا أميل إلى الغوص داخل الصحاري الشاسعة الحارة والقاسية. ولكنني شعرت أن الحياة في بلاد الأهرامات نوعًا ما مستحيلة، لأنني كنت المطاردة من عدة جوانب لا داعي لذكرها الآن.

عبرت واحة القديسين التي كانت حينذاك واحدة من أخطر البقاع التي يمكن يحيا فيها إنسان، حيث كان يقطنها الكثير من السحرة والمشعوذين المتصلة أصولهم بالسحرة الأوائل فلم يحاول أي عاقل التوغل في تلك الأراضي لأنه يعلم جيدًا أن من العسير الخروج منها على قيد الحياة فبكل تأكيد سوف يسعى هؤلاء المسوخ لتقديم الغريب قربانًا للآلهة أو الشيطان ذاته.

تنقلت بين الواحات المختلفة حتى وصلت إلى قرية صغيرة تدعى أرض أوزوريس. وهناك رأيت الجميع يتحدث عن سوق مميز للتوابل يدعى سوق الشرق فذهبت إليه تلقائيا وابتعت منهم الكثير من الأطعمة الغريبة القادمة من أراضي بعيدة.

وفي تلك الأرض وذلك العالم الغريب كانت تجربتي الأولى مع شاربي الدماء.

لقد تنزهت طول اليوم عند الجانب الشمالي من القرية وقرب منتصف الليل قررت أن أعود إلى خيمة الغرباء الفقيرة الجميع حينذاك كان في سبات عميق فقد خلا السوق من البشر وكذلك الحيوانات، فكنتُ أسير في الشارع وحدي خلال طريق ضيق يؤدي إلى الخيمة الزهيدة التي أجبرتني أموالي على البقاء فيها.

علمت أنه يوجد خيمة أخرى أكثر رفاهية تمتلئ بالطعام والشراب وكذلك النساء للسياح القادمين من الأراضي البعيدة، ولكن كل ما أحمله معي من أموال لا يكفي أن أقضي بتلك الخيمة ليلة واحدة.

بينما أنا سائرة شاهدت سيدة عجوز ربما تجاوز عمرها المائتي خريفًا تجلس أمام منزل منخفض من طراز غريب يختلف عن بقية البيوت الموجودة في تلك القرية الغريبة. كان البيت ذا طابع تجهل إن كان شديد القدم حيث كان لقوم من الأقوام السابقين التي لطالما سمعنا عنهم أن ذلك البيت شديد الحداثة وأنه بيت قادم إلينا من المستقبل البعيد لأحد الأقوام التي لم تولد في عالمنا بعد.

كان على جوانب البيت أعمدة مشيدة مليئة بالزخارف والرسوم المنحوتة والبروز المتخذة لأشكال ربما كانت لغة غريبة أجهلها ولكنها تخص هؤلاء السكان.

اقتربت من السيدة ببطء فبدت تجاعيد وجهها أكثر وضوحًا وزادت دهشت عندما لمحت الكثير من الجروح على يديها وقدميها وكذلك رقبتها، اقتربت أكثر منها وكلما اقتربت استطعت رؤية تفاصيل مخيفة أكثر، السيدة هادئة وساكنة وتكاد تكون لا تتنفس.

وقفت أمامها وهمهمت:

- هل أنتِ على ما يرام يا سيدتي؟

كانت السيدة لا ترد فاقتربت منها أكثر وأكثر ومددت يدي ناحية كتفها:

- سيدتي، هل أنت بخير؟

لمستُ السيدة فسقطت في الحال وعلمتُ أنها جثة هامدة، رأيتُ ضوءًا فسفوريًّا ينبعث من إحدى غرف البيت كما وجد أثاث شديد الفخامة بالداخل من طراز لم أره من قبل وبساط أبيض يمتد ناحية جميع الحوائط.

رأيت أيضًا في وسط الغرفة طاولة طويلة مغطاة بقطعة من القماش حمراء اللون، وكان بالداخل الكثير من الأوعية الفضية وكذلك الذهبية، ربما تكفي لعشرين شخصا والكثير من الأقداح الممتلئة بالدماء وبالتأكيد لم أستغرق وقتًا طويلًا حتى أدرك أن تلك العجوز البائسة المسكينة عُصرتُ عصرًا حتى تملأ دماءها تلك الأكواب ولكن من يشربها بحق الجحيم؟

كنتُ مشوشة للغاية وأتذكر جيدًا أنني مررتُ في كل أرجاء القرية صباح ذلك اليوم وعلى يقين أنني لم أر ذلك البيت من قبل، ولكن العقل أحيانًا يتلاعب بالإنسان، ولا يريه كل شيء أمامه، ولكن هناك صوت داخل عقلي يخبرني بحقيقة أفكاري وأن ذلك البيت لم يكن هنا من قبل.

بحثت عن شخص ما يساعدني على نجدة تلك السيدة الساقطة أرضًا فيا الخارج وعيني تتأملان كل درجات السلالم المزخرفة في نهاية الرواق وكذلك وهج شموع لا حصر لها وحتى الشمعدانات المتفرعة من الجدران وغيرها انعكست أضواؤها القوية على الأطباق والأكواب على الطاولة المستديرة الهائلة.

ثم رأيت سيدة شابة شديدة الجمال والسحر تهبط من الطابق العلوي وترتدي رداءً أبيض فضفاضا وجميلا يشبه ملابس كهنة بلاد الأهرامات قبل أن تسقط الأرض في أيدي الفرس. كان شعرها أسود فحميًا وتجري في عجلة من أمرها.

ألقت السيدة نظرة سريعة على الطاولة ثم تقدمت إلى كوب من الأكواب الموضوعة وأخذت إحداها، ثم رشفتُ منه مرتين في تلذذ وكلما شربت أكثر ازدادت ابتسامتها ثم تحولت عيناها إلى الخارج ورمقت السيدة الجثة الهامدة أمام البيت ولكنها تجاهلت الأمر، شرد ذهنها لحظات ثم نظرت إلي وأشارت بسبابتها ناحية أحد المقاعد، وقالت بصوت تَغْلب عليه لكنة غريبة:

- لِمَ الوقوف الطويل؟ يمكنك الجلوس والانتظار الأمسية طويلة والجزء المثير منها لم يبدأ بعد أتعلمين سوف يُكسر ذلك الصمت العميق وسوف يحضر الجميع الرؤية الاحتفال.. إنّه يوم غير عادي يا جميلة..

صمت لحظة أفكر في حديثها الغريب والمبهم ولكنها قطعت أفكاري سريعًا، وقالت:

- هيا بنا.. أريد أن أريك شيئًا ما قبل أن يبدأ الحفل الكبير.

قادتني إلى قاعة كبيرة ومهجورة صامتة وغريبة على طول ممر مضاءة بشكل خافت وسجاد خشن سميك غاصت فيه قدماي حتى وصلنا إلى غرفة بها جثة طفل رضيع يتوسط دائرة دموية والكثير من الشموع المطفأة فهمس صوت داخلي:

- يوجد شيء بشع حدث هنا.

قالت السيدة الغريبة دون أن تنظر لي:

- تأخرت كثيرًا يا.. ما اسمك أيتها الجميلة؟

شرد ذهني وعقلي وعيناي تنظر إلى جثة الطفل برعب شديد:

.أرم

همهمت سيدة القصر، ورددت اسمي كأنها تتذوقه:

- أرم..

صمتت لحظة وشربت المزيد والمزيد من الدماء ثم أردفت:

- اسمك جميل للغاية..

اومأت ثم سألت:

- لماذا قلت إنني تأخرت؟ هل كنت تعلمين أنني قادمة إليك؟

مسحت بقايا الدماء من على فمها بيدها واقتربت مني ووضعت يدها على كتفي ثم وجهي، وقالت:

- بالتأكيد كنت أعلم.. دومًا يوجد شخص يبحث عني..

كأنّ عقلي يرفض تصديق ما يحدث أمامي...

- لا أفهمك.. كلماتك غامضة.

جلست السيدة وأشارت لي أن أجلس أمامها.

- لا عليك.. بالمناسبة أنا اسمي آثار

- رأيت سيدة في الخارج، من الواضح أنها ماتت.

- ماتت، العجوز المسكينة.. لا عليك فهي عاشت عقود طويلة للغاية..

- ولكنني أشعر أن موتها مثير للريبة بعض الشيء.

- بالتأكيد مثير للريبة، فقد دفعت العجوز دماءها العتيقة لي ولجميع بنات وأبناء قومي.

- ولكنني لا أرى غيري وغيرك هنا..

- رحلوا..

- هل أنتِ من شاربي الدماء؟

- هذا الأمر معقد.

- هل أنت حقًا خالدة؟ وما حكايتك وهل فعلا الشمس تحرق جسدك؟ وكيف بدأت هذه اللعنة أو الهبة لا أعلم ؟

ابتسمت آثار وهمهمت:

- حاولي النجاة اليوم، لربما أحكي لكِ في المستقبل...

مر أحد سكان تلك القرية بالقرب من البيت ثم صاح بصوت مرتفع مناديًا الجميع وأخبرهم أن شاربي الدماء جاءوا إلى القرية وقتلوا العجوز، اقتربت من نافذة الغرفة في الطابق العلوي ورأيت سكان القرية قادمين وكل منهم يحمل رميًا من الخشب في يده، نظرت إلى آثار ولكنها لم تكن موجودة في المكان، شعرت بالخوف وعلمت أنني من سوف يدفع ثمن المذابح التي تمت داخل ذلك البيت الملعون، اقتحموا البيت وأخذوا يشعلون النيران في كل أرجائه، سمعت خطواتهم على درج السلم فكرت في القفز من النافذة ولكن الوقت فات ودخلوا الغرفة، وجدوني واقفة أمام جثة الرضيع والدماء على ملابسي ووجهي كدتُ أتكلم وأدافع عن نفسي، ولكن أحدًا هبط بحجر هائل على رأسي فسقطت داخل نوم عميق!

لاحقًا كنتُ مقيدة إلى أحد الأشجار في وسط القرية والجميع يلتفون حولي. يتمتمون بكلمات بلغات لا أعلمها لم تكن المرة الأولى التي أقيد فيها بتلك الصورة وتوشك جماعة مجنونة على الفتك بي، ولكن لماذا أجهل سبب عدم شعوري بالسوء تجاه ما يحدث هؤلاء يظنون، بل

يعتقدون أنني من شاربي الدماء الذين طالما سمعت عنهم في الأساطير القديمة، لا أصدق أنني قابلت واحدة منهم والآن على وشك أن أعدم.

أجهلُ الخلاص من تلك الأزمة الممتدة جميع أهل القرية بلا استثناء واقفون ينتظرون موت شاربة الدماء التي لطالما قتلت أطفالهم وشربت من دماء نساءهم. تقدم رجل عريض الجثة يرتدي قناعًا على وجهه حاملًا رمحًا خشبيًا مدببًا، وبدأ يقترب مني. صرخت وأنا أكره ذلك:

- يا قوم لستُ أنا من تبحثون عنها أنا غريبة قادمة من الشرق.. لا أشرب الدماء بحق الجحيم، أنتم تقتلون الشخص الخطأ.

صاح أحد المواطنين المتحمسين:

- لم يرك أحد من قبلُ في القرية، أنتِ السَّاحرة التي تشرب الدماء ولا تظهر إلا ليلًا.

اقترب حامل الربح وكاد أن يفعلها، ولكن صاح أحد التجار قائلًا:

- مهلًا... ماذا تقصد يا رجل أنها لا تظهر إلا ليلا؟

رد حامل الرمح وهو يستعد للتخلص مني

- شاربو الدماء أعداء للشمس العظيمة حرارتها تعذبهم وتحرقهم.

قال التاجر مندهشًا :

- هذا مستحيل يا رجل.. لقد رأيتُ تلك السيدة صباحًا وابتاعت مني التوابل.

هنا تذكرت التاجر والوقت الذي اشتريت منه وجالت في بالي خاطرة، ولكن الرجل سبقني إليها.

- أنا متأكد أنني رأيتها صباحًا.. يجب أن نتأكد حتى لا نعدم الشخص الخطأ.

توقف حامل الرمح لحظة، ثم أزال عن رأسه قناعه الأسود وقال صائحًا:

- حسنًا سوف ننتظر الشمس.. إما تحرقها أو نعتذر لها.

ثم نظر لي وأردف:

- ولكن إن كان يومًا بلا شموس فبئس الحظ هو حظك وسيكون تمزيق قلبك بالرماح هو قدرك.. الكل هنا لها ثأر مع شاربي الدماء والكل يعلم أنكِ منهم.

-٣-

صحف العربي المجنون

المجلد السابع عشر

من صفحة ٧٨ إلى ٩٠

المحروسة - يناير ١٨٠٠

- تذكرني بالمرة الأولى لي، شعرتُ أن الكون كله واقف من حولي وأنا الوحيد المتحرك، الكل يتحدث وأنا أسمعهم، لكن عقلي يأبى فهم كلماتهم.. أشعر أنني محور الكون.

قالها شعبان وهو يشرب من فنجان قهوته، وجواره بدوي جالسا يتأمل حركة

المارة ويشرب لفافة تبغ ابتاعها مؤخرا من أحد الجنود الفرنسيين.

- ماذا تقصد يا شعبان؟

نظر شعبان إلى بدوي وابتسم:

- ألم أخبرك أنه من المحتمل أننا نعلم بعضنا البعض؟

- يا إلهي، أنت ذلك الرجل.. أنت منهم؟

نادى شعبان صبي القهوة وطلب منه النارجيلة، ثم نظر يمينه ويساره حتى يتأكد ألا أحد يتابعهم حيث إنه على وشك كشف أمره لصديقه مخالفا كل أوامر العائلة.

- منّا.. أنت جزء من العائلة يا أخي.

- شعبان أنا خائف.. أخشى أنني نادم لانضمامي إلى تلك العائلة.

- شعرتُ بهذا أيضًا قبل أول عملية قتل قمت بها.

- أنت قتلت من قبل؟

جلب الصبي النارجيلة ووضعها أمام شعبان ورحل سريعاً، تناول الأخير عدة أنفاس متتالية وزفر دخانًا كثيفًا أمام عينيه، وأخذ يتذكر تلك الذكريات القديمة وكم الأرواح التي أزهقها في سبيل العائلة، وكم من رجل قام بدفعه وهو على قيد الحياة ثم

أجاب بشكل مختصر:

- بالتأكيد.. كل الإخوة فعلوا ذلك.

- ولكن هذا وحشيّ.

- لكل قمة ونجاح ثمن غال يا أخي.. وعلى أية حال يمكنني التأكيد أن كل قتيل كان يستحق مصيره، العائلة لا تتبع نظام أحد يا أخي، إنها فقط تضع قوانين صارمة حتى لا يفقد العالم توازنه، يمكنك اعتبار ما يحدث مثل القصاص.

- لا أعلم إن كنت قادرا على دفع ذلك الثمن أم لا، أنا لا أستطيع الاقتصاص من دجاجة، فكيف لي أن أتخلص من إنسان!

- لا بد لك أن تدفع ثمن انضمامك للعائلة، وتفعل ما تؤمر به ... روحك صارت المقابل، أنت قبلت بالعهد وعهد العائلة كما تعلم حتى الموت ... الموت يا أخي.

- جئتُ حتى أصنع مستقبلًا مثاليًا لي ولأسرتي.

- لا يزال بإمكانك فعل هذا وإن رفضت سوف تموت أنت وأسرتك.

شعر بدوي بالغضب من كلمات صديقه الحانوتي، وانقبض قلبه من ذلك التهديد غير المباشر، وشك أن يكون كل ذلك النقاش مدبرا وليس سبيل الصدف، فسأل بحيرة:

- هم أرسلوك من أجلي؟ هل أتيت حتى تهددني؟

ضحك شعبان وتحشرج صوته وبصق بلغمه على الأرض، ثم أجاب:

- يا لك من أحمق! لو علموا أنني جئت لك سوف يتخلصون مني مثل الإمام.

- إذن لم جئت؟

- حتى لا أتركك وحدك... أردت أن أخبرك أننا عائلة والكل جوارك... جئت لأنني أعلم شعورك بالضبط وأعلم أن بعض من انضم للعائلة سقط مع أول اختبار ووصل الزرنيخ إلى دمائه بشكل أو بآخر في خلال أيام.

قال بدوي باستنكار شديد:

- الأب طلب من قارون تقديم زوجته للإخوة جميعًا هل تتخيل هذا؟

- ماذا!

- الأب يرى أنه يملكنا نحن وأبناءنا وزوجاتنا..

لم يهتم شعبان بأمر دياثة قارون بقدر ما اهتم أن ذلك الرجل الأحمق عضو منتسب إلى الجماعة.

- هل قارون الأحمق هذا من العائلة؟ يا إلهي! كيف لم أفكر في هذا من قبل!

- وزوجته عاهرتنا.

- لا تقل هذا ... قارون كان يبيع تلك السيدة الرائعة إلى الفرنسيين من قبل، أحلال عليهم وحرام علينا؟ لا تصدق العاهرات يا أخي، إنها تكذب، تارة تخبرنا أنها زوجته وتارة تخبرنا أنها أخته، إنها تشعر أن بتلك الكلمات نزيد الأمر إثارة.

- ماذا تقول يا شعبان؟

- أرى أنك في حاجة إلى النوم الآن... استرح حتى تجيد التفكير وتعلم الواجب عليك فعله حتى تعيش داخل العائلة في سلام وتنعم بخيرها.

- أشعر بالقلق.

- غدًا سوف تشعر بالقوة والسعادة.

حاول بدوي تجنب الحديث مع أخيه جعفر الجالس على مقعد مجاور لباب البيت، يشعر أن عيون الجميع تراقبه وتمسحه مسكا، طرق الباب قبل أن يتحدث مع جعفر وظل الأخير يراقب ما يحدث في صمت، لم يكن لدى بدوي أي عزم للرد على تساؤلات أخيه وتبرير ما يحدث له، في الداخل ركل «طبلية»

كانت تأكل عليها زوجته فتناثر الطعام يمينًا ويسارًا، فنظرت له بغيظ كتمته في قلبها، صمت دام طويلاً، جلس على مقعد في ركن الغرفة ونظر إلى تلك الأرائك ووسائد الحرير الموضوعة فوق السجاجيد والتحف المنثورة -التي ورثها عن أبيه-

في الزوايا ومعلقة على الحوائط والجدران، كان بدوي ميسور الحال وبدا ذلك جليًا في كل شيء يحيط به، خلع جعفر حذاءه عند حافة السجاجيد واقترب من أخيه، فوقفت الزوجة -بعدما وضعت برقعها على وجهها- لعلها تمنع الشجار المتوقع حدوثه بينهما، دفع بدوي زوجته بعيدا وقال لها في صرامة:

- هذا أخي يا بنت الكلب!

كان بدوي يحاول استعطاف أخيه ليس خوفا منه بقدر ما كان رغبة داخلية بضمه إلى العائلة الأولى، لم يكن يريد الشعور بوحدته، ذلك التجمع الغامض خاصة بعدما ظهرت طلباتهم الشاذة والغريبة في إزهاق الأرواح. قال جعفر:

- أما زلت تذكر أن لك أخ؟ بالتأكيد أتممت ما في بالك ومنحتهم روحك وكرامتك!

رد بدوي مدافعا عن نفسه:

- لم أتمن شيئا في حياتي سوى الانتقال بكم إلى الأزبكية، تمنيت العيش مثل الأعيان والأمراء.

صاح جعفر بغضب شديد:

- لن تكن سوى خادم لهم أيها الأحمق.. أنت لا شيء!

تبادل الأخوين النظرات وجالت في خاطرهما ذكرى حدثت قبل أربعة أعوام حينما كان يمر أبوهما العجوز على حماره بمجموعة من الخراف، يتحرك بها نحو الترعة والأرض العشبية حتى تأكل وتشرب مثلما يفعل كل صباح، ولكن ذلك اليوم كان مختلفاً حيث تربص له بعد من جنود الوالي ودفعوه من فوق حماره وأسقطوه أرضًا، ثم سرقوا كل شيء بعنجهية واستعراض سخيف، لم يعترض أحد من المارة خشيًا بطشهم حتى الأب نفسه اتخذ وضعية تشبه السجود إليهم..

- ولماذا لم يساعد الله ذلك العجوز حينما خطف جند الوالي ماشيته أمام عينيه وجعلوه يركع لهم في ذل ثم مات من القهر ولم يهتم أحد بذلك!

أجابه جعفر:

- الله له حسابات أخرى.

رد بدوي بسخرية:

- هذا ما نقوله دومًا.. نحن وحدنا هنا يا أخي.. وحدنا.

لم يكن جعفر يصدق كم التغييرات التي طرأت على أخيه بعدما انضم إلى تلك الأسرة، كم صار جريئا في كلماته ويعتدي بها على كل شيء ثابت وراسخ ومقدس كأنه لم يعد يبالي بكل شيء.

- أنت ملعون!

قالها جعفر بيأس فأجابه بدوي في الحال:

- بل صرت كرا ولن أعيش سوى مع الأعيان.

شرب بدوي من «قلة» الماء، ثم قذفها جوار أخيه وصاح به:

- فهمت يا أخي!

اقترب جعفر من أخيه وأمسك كلتا ذراعيه:

- على جثتي أن تبيع روحك للشيطان! إنهم يشربون الدماء وملعونون في الشمس وغداً قريبًا سوف تصبح مثلهم!

بنبرة تحدي همهم بدوي:

كفى هراءً! على أية حال فليكن على جثتك يا أخي.. سأطلب منهم تدميرك وتدمير كل من يقف أمام طموحي ورغباتي!

فجأة دسّ جعفر خنجرًا في صدر بدوي وهو يقول:

-- لعنة الله عليك!

انفجرت نافورة دموية من صدر بدوي وتراقصت الأرض من تحته والدنيا من حوله فسقط في الحال وهو يقول متألمًا:

وأنا سوف أريك لعنتي! سوف أريك لعنتي هل تظن أنهم سوف يتركونك؟

مات بدوي في الحال وأخذت زوجته تلطم خديها وتصرخ، فكتم جعفر فمها:

- اسكتي يا حرمة!

دفعته السيدة بعيدًا عنها وأخذت تهرول نحو الخارج حتى تصرخ وتستغيث ضد قاتل زوجها، ولكن جعفر أمسك بها بقوة ومنعها من ذلك وقال:

- أنت من أتيت بي حتى أوقف زوجك عن بيع روحه للشيطان، أنت من طلب مني التصدي له!

استمر جعفر في خنق السيدة فقالت بصوت متحشرج:

- لم أطلب منه قتله أيها الأحمق.. سأبلغ الجميع عن فعلتك هذه!

شعر جعفر باستفزاز كبير من كلماتها وأخذ يضغط على رقبتها أكثر فأكثر، كانت المسكينة تحاول المقاومة، ولكن قوتها ارتخت وضعفت وسقطت يديها بعدما فاضت روحها. لم يصدق جعفر ما حدث وكيف آلت الأمور إلى ذلك المأزق الخطير،

وأنه قتل شقيقه وزوجته في دقائق معدودة! يعلم أن مصيره الآن لن يختلف عنه كثيرًا، وفجأة جالت في خاطره فكرة لم يفكر فيها طويلًا، يعلم أنه لا يوجد وقت لذلك فعرى شقيقه وزوجته ووضعهما في الفراش مستغلًا التشابه بينه وبين أخيه

وخرج للناس صارخًا أنه لمّا عاد وجد أخاه جعفر يضاجع زوجته فلم يتحمل ذلك وفارت الدماء في أوردته فقتلهما معًا، صدقه الناس بلا شك لأن لكل منهم حكايته الشاقة والضرائب المرهقة والأموال المعدمة حتى الجنود لم يتوقفوا عند تلك القصة طويلًا، علم جعفر الآن أنه سوف يعيش الباقي من حياته في شخصية بدوي، سوف يرتدي ملابسه ويعمل عمله وبالتأكيد سوف يربي ابنه وأيضًا سيكمل الطريق مع العائلة الأولى بدلا من أخيه وهو يتمنى من كل قلبه ألا يُكشف.

- يا الله، أقسم بك لك أنني لم أقصد كل ما حدث.. وعزتك سوف أكفرن عن خطيئتي.. سوف أدمرن الشيطان وأتباعه كلهم واحدا تلو الآخر.

لم يكن جعفر مثل أخيه الراحل رغم أن الأخير كان متطلقا نحو مستقبل أفضل له ولأسرته دون الأخذ معايير أخلاقية تسيطر على تصرفاته وتحركاته في الحياة، أما جعفر فهو على النقيض تمامًا من أخيه، الأعراف والعادات والتقاليد والأخلاقيات

تلعب الدور الأكبر في حياته وتنظم بشكل هائل تحركاته، ولا أعلم إن كان لفظ تنظيم هو الأصح أم أنها تسجنه بداخلها وتقيد الكثير والكثير من تحركاته وتطلعاته التي نسيها مع الزمن.

اختلف الأخان في الشكل النهائي للضمير المسيطر على كليهما لكنهما امتلكا نسبة ذكاء حادة وهيئة تقريبًا متساوية ولطالما أخفق الجميع في التمييز بينهما، كان لدى بدوي طفلًا في التاسعة يدعى هادي يساعد والده في العمل حينًا ويذهب إلى الكتاب حينًا آخر، ورث الفتى عن أبيه وعمه سرعة البديهة ولون البشرة القمحي وكذلك لون العين البنية.

مرَّ أسبوع على رحيل بدوي وزوجته، في تلك الأثناء مكث هادي عند الجارة الأرملة ذات الثمانين عاما التي تدعى الحاجة فاطمة، على الجانب الآخر، بقي جعفر داخل بيت أخيه لمح ورقة ملقاة تحت إحدى الأرائك، تناولها وقرأ ما فيها، كانت مخطوطًا بخط يد هادي، آيات من القرآن الكريم، من الواضح أن تلك الكلمات كانت إجابة سؤال تخص اختبار الكتاب، تأمل جعفر خط الولد ورسمه المميز للحروف فابتسم وتذكر ما آلت إليه الأحداث وكيف حرم ذلك الصغير من أبويه، والأهم ماذا تخبئ الأحداث القادمة لهما معا.

عاد هادي في النهاية واتخذ من كومة قش موضوعة في طرف الغرفة مجلسًا له، كانت تلك المرة الأولى التي يتقابل فيها الثنائي بعد الأحداث الأخيرة، كان الفتى صلبا كأنه لا يبالي بموت أمه بينما عاش جعفر تلك اللحظات في قلق أن يكتشف الفتى حقيقته، اقترب الرجل من الصغير، وسأله:

- أتريد قددًا من الشاي؟

أجاب هادي:

- أنت تعلم أنني لا أحبه.

شعر جعفر بالغباء وتصاعد القلق أكثر في دمائه، وأخذ يفكر في صعوبة ما يمر الآن من تحديات عن كيفية إقناع ذلك الفتى أن الجالس أمامه هو أبوه وليس عمه، فالجميع يعلم أن مستوى ذكاء هادي أعلى من أقرانه وأصدقائه وليس من السهل

خداعه.

- نعم بالتأكيد..

صمت الثنائي، ولكن سرعان ما قطع السكون جعفر متسائلًا:

- ألن تسألني عم حدث في تلك الليلة المشؤومة؟

ابتسم هادي وأومأ برأسه مجيبًا:

- الكل يعلم ما حدث.. يا أبي..

كلمة يا أبي بثت في صدر جعفر مزيجا من القلق والراحة، في الوهلة الأولى شعر بالأمان أن هادي خدع، وأنه بالفعل الآن يصدق أنه يجلس أمام أبيه، ولكن نبرة صوته مخيفة بعض الشيء كأنه يعلم شيئًا مما جعل جعفر يشعر ببعض من القلق، ولكنه سرعان ما طرد تلك المشاعر محاولاً إقناع نفسه أن هادي مجرد طفل لا أكثر ولا يجب منحه مكانة أكثر مما يستحقها.

- ألا تريد سماع الأحداث مني؟

- لا أهتم، أمي زانية وأفسدت في الأرض ولا جزاء لها سوى حد الحرابة.

كلمات الفتى هذه المرة كانت مريحة لجعفر، فهنا تأكد الأخير أن الفتى على يقين أنه الجالس معه الآن هو أبوه بالفعل، ولكن من جانب آخر كان صوت هادي شديد الغضب وعباراته قاسية غليظة لا تتلاءم مع سنوات عمره القليلة.

من أين أتيت بتلك الكلمات الشاقة يا بني؟ عباراتك قاسية وقلبك غليظ!

لم يبال هادي بكلمات جعفر، وقال:

- الشيخ تحدث معي.. وأخبرني أنك رجل صالح يا أبي وأنا أيضًا أرى أنك كذلك، كما أخبرني أنك سوف تتغير في بعض التصرفات والمشاعر ومن المحتمل أن تكون شخصًا آخر بعد تلك الحادثة وأن الواجب عليّ تحمل غضبك وتقلبات مزاجك، فأنت وأنا الابن.

ابتسم جعفر ونظر إلى هادي وربت على كتفه وهمهم شاعرا براحة شديدة:

- هذا جيد.. هذا جيد..

نهض الصغير وتحرك ناحية رف خشبي معلق في أحد أركان الغرفة فسأل جعفر:

- إلى أين أنت ذاهب يا هادي؟

سحب هادي كتابا وعاد به إلى أبيه الزائف.

- سوف أجلب المصحف لك يا أبي حتى أقرأ عليك ما حفظته.

وقف جعفر ونظر للكتاب المقدس وشرد ذهنه لحظات كأنه يتذكر كل ما حدث وكيف تسبب في موت أعز الناس وأقربهم إليه، ربت هادي على يد جعفر برفقٍ ولينٍ.

- لا تقلق يا أبي كل شيء سيكون على ما يرام.

ابتسم جعفر ونظر للفتى وقال:

- لا عليك.. أنا أعلم أن كل شيء سيمر.

مد جعفر يده وأخذ الكتاب وهو يضيف:

- والآن، امنحني هذا الكتاب الآن.. وقل لي ما لديك.

كاد أن ينطق الفتى فقاطعه جعفر:

- هادي.. هل نفعل هذا كل يوم؟ أقصد هل نحن معتادان على أن تقرأ لي كل ما حفظته؟

ابتسم الصغير وأجاب بصوت هادئ:

- بالتأكيد، الامتحان غدا يا أبي.. نفعل هذا كل عشية امتحان.

أومأ جعفر في تفهم:

- نعم نعم.. من أين يجب أن نبدأ يا فتى؟

ظل الصغير يقرأ على أبيه طوال الليل حتى وصل إلى الآية الثامنة والسبعين بعد المائة من سورة البقرة.

- يأيها الذين ءامنوا كتب عليكم القصاص في القتلى لم يتحمل جعفر كلمات الآية فأغلق المصحف الشريف وشك أن الفتى يعلم شيئًا

أو أن الله يرسل له رسالة بأن الموت غدرا سوف يلاحقه مهما طال الزمان.

- أبي.. أنا لم أنته بعد.

اقترب جعفر من هادي، وقال:

- هل يمكنني أن أسألك سؤالًا؟

- بالتأكيد يا أبي.

- هل كنت تحب عمك جعفر؟

صمت هادي لحظات وكأنه يفكر في الإجابة.

- لا أعلم.. كان رجل جيدا أو هكذا كنت أظن، ولكنه ذهب إلى خالقه في النهاية بسوء خاتمة ستدخله جهنم إلى أبد الآبدين.

قاطع جعفر الفتى:

- كفى.. كفى.. أنت قاس في كلماتك يا فتى.

- متى سوف تتزوج من جديد يا أبي؟

- أتزوج!

- بكل تأكيد، شيخي قال الواجب عليك الزواج سريعًا حتى تجلب لنا امرأة ترعى شئون حياتنا.

- نعم نعم.. قريبا بكل تأكيد يا هادي..

- هذا جيد..

سلوكيات الصغير بكل تأكيد كانت غريبة ومن الواضح بقوة أنه يحتاج إلى إعادة تربية وتأهيل، وبالتأكيد ذلك الشيخ يلعب دومًا كبيرا في وصول هادي إلى تلك النقطة الحرجة في الأفكار والمعتقدات، ولكن من جانب

آخر شعر الرجل أن تلك التصرفات سوف تساعده كثيرًا في عبور كل المرحلة مع الفتى بشكل سلس ودون انكشاف أمره.

غربت الشمس وكاد أن ينتهي اليوم ويعم حظر التجوال، ولكن جعفر يعلم جيداً أن أخاه دومًا يكسر قيود الفرنسيين، ويحب الخروج في أوقات قبضتهم حتى يخبرهم أن لا شيء قادر على كسر شوكة أهل تلك البلاد، ويا سبحان الله لم يعترضه أحد من الغزاة طوال الفترات السابقة كأن هناك شيء ما بداخلهم يخشاه.

ارتدى جعفر جلباب أخيه وشعر أنه ضيق بعض الشيء عليه، فأدرك ضرورة إنقاص وزنه خلال الأيام المقبلة، فيجب أن تسير الأمور كما كانت تسير، وضع العمة فوق رأسه وخرج من الباب بعدما اطمأن أن هادي سقط بين ثنايا النوم. عبر جعفر الطريق وأخذ يمشي على أحد جانبيه، ولكنه تذكر أن بدوي لا يمشي إلا في المنتصف كأنه يشق الطريق نصفين وينظر في عيون الناس باحثا عمن يتحداه. رمق الرجل ثلاثة جنود من الفرنسيين قادمين من الجهة المقابلة، ارتجف قلبه وشعر أن ليلته لن تمر بسلام وأن حياته المقبلة سوف تكون بين أسوار السجون، ولكن كانت المفاجأة حينما من الجنود كأنه لا يرونه. ما هذا بحق الجحيم؟ همس بها جعفر في داخله وهو لا يصدق ما حدث، نظر خلفه ووجدهم يكملون الطريق مبتعدين عنه، وصل إلى مقهى بعيد عن عيون الجنود كان يقصدها بدوي دومًا واختصها بالجلوس ليس

لكونها بعيدة ولا يقترب منها الفرنسيون، ولكنه كان يعدها ملاذًا بعيدًا عن صخب الحياة وقسوتها جلس على كرسي داخلها وطلب قدحا من الشاي، وضع عامل القهوة قدحين من الشاي أمام جعفر فنظر الأخير

نظرة متسائلة حيث إنه لم يطلب سوى مشروب واحد، وكاد أن يتحدث، ولكن قطع ذلك جلوس أحد الرجال جواره قائلاً:

- لعن الله الزناة يا أخ بدوي.. اذهب أنت يا صديق وأحضر لي الشيشة.

نظر جعفر إلى الرجل، وجده شعبان الحانوتي فالتزم الصمت وأخذ يفكر طويلًا عم يريده ذلك الشخص، فكان الترحيب ونبرة الصوت تؤكدان أنه كان يوجد شيء بين الراحل بدوي وبين ذلك الحانوتي.

- أهلا بك يا شعبان، تفضل.

لم ينتظر شعبان عرض جعفر وجلس بالفعل ثم جلب النارجيلة، ووضعها أمام شعبان، فأمسك بها الأخير وأخذ يسحب أنفاسها بشكل متلاحق فتحشرج صوته فسحب البلغم وبصقه جانبًا وقال:

- كيف الحياة مع ابنك؟ هل يتفهم ما حدث أم عقله الطفولي يتحكم فيه؟

صمت جعفر ثوان، ثم أجاب على السؤال بشكل مجرد ومحدد:

- يتفهم الأمر بصورة أكبر من المتوقع وهذا مقلق للغاية.

مر اثنان من الجنود الفرنسيين أمام أعين شعبان وجعفر فكاد أن يرتجف الأخير، ولكن شعبان نهض من مقعده وبصق جوارهما ثم عاد إلى مقعده، بينما نظر إليه الجنديان وتقدم أحدهما، ولكن الجندي الآخر منعه وجذب يده، ثم ابتعدًا.

- ماذا فعلت يا مخبول؟ كان سيعتقلاننا.

ضحك شعبان بسخرية وهمهم:

- أنت حديث عهد بهذا! كيف قتلتهم بحق الجحيم؟ حسنا لا عليك، لماذا يقلقك

ذكاء ابنك الحاد؟

ظل جعفر لحظات يحاول السيطرة على أعصابه ويفكر مليا في إجابة مختصرة واضحة لا تحمل شكوكًا لأحد.

- لا عليك..

أومأ شعبان وسحب نفسا طويلاً من النارجيلة، وتساءل:

- ماذا سوف تفعل في أمر مرسى الخباز؟

- أي أمر؟

- آو بكل تأكيد.. كما وقعت أن أراك في حالة يرثى لها.

- لا أفهمك يا رجل.

- أمر أبينا.

جعفر لا يفهم، فحاول ادعاء معرفته بالأمر، وهمهم بحذر شديد:

- نعم صحيح..

عاد شعبان وكرر سؤاله:

- ماذا سوف تفعل في أمر مرسي؟

نظر جعفر إلى الحانوتي وهو لا يعلم إجابة ولا يفهم السؤال فكرر الانسحاب من المكان، ونهض من مقعده وشرع في الرحيل قائلًا:

- أخي شعبان أنا سوف أرحل الآن، أشعر أنني مريض.

تحرك شعبان خلف بدوي وأوقفه بيده:

- بدوي أعتذر لك.. أنا جئت إليك ليس لأنني جارك، بل أخوك من العائلة الأولى.

توقف جعفر وخفق قلبه بسرعة كان يعلم الرجل أن حياته سوف تتقاطع بكل تأكيد مع تلك المنظمة الملعونة، ولكنه لم يتوقع أن يتم هذا الأمر بتلك السرعة، تمنى لو كان هناك مجموعة كتب تتحدث عن تلك الجماعة المنبوذة السرية حتى يعلم عنها أكثر، ولكن الحياة لا تسير دومًا على تلك الشاكلة. التفت جعفر ونظر إلى شعبان وهو لا يصدق أن ذلك الحانوتي جزء من ذلك الكيان الغامض.

- ماذا؟

أجاب شعبان في الحال:

- جئتُ حتى أخبرك أنني سوف أنفذ مهمة قتل مرسي بن عبد الله الخباز بدلًا عنك، وسوف أخبر الأب أنك من فعلتها حتى لا تشوب سيرتك داخل العائلة شائبة.. والآن أين الزرنيخ؟

لا يفهم جعفر منطق العائلة حتى تتخذ من ذلك الحانوتي جندا لها، تمنى لو سأله عن سر رغبتهم في رجل أحمق مثله، ولكنه تذكر أن أخاه لا يقل حماقة عنه، كرر شعبان سؤاله:

- أين الزرنيخ يا رجل؟

تردد جعفر لحظة، ثم أجاب:

- في البيت. نعم في البيت بكل تأكيد.

أومأ شعبان وشعر أن جعفر غير متأكد من إجابته وشك في ضياع السم.

- حسنًا أجلبه وسوف أنتظرك هنا حتى تعود..

تحرك جعفر مبتعدًا عن المكان، قال شعبان بصوت مرتفع:

- وحتى إن ضاع منك في ظل الأجواء المتوترة، لا تقلق يمكنني جلب المزيد، المهم أنه إن كان في بيتك فتخلص منه، كي لا يتناوله ابنك عن طريق الخطأ، أنت لن تتحمل صدمة أخرى.

وقف جعفر مرة أخيرة وابتسم إلى الحانوتي:

- حسناً شكراً يا أخي، سوف أفعل بكل تأكيد.

صاح شعبان:

- نحن أخوة يا رجل.

رحل جعفر من المكان سريعاً، وأخذ يسير في الطريق بخطوات تشبه الركض، الجميع ينظر له والكثير يظن أن الرجل يكاد أن يفقد عقله لما حدث له ولأسرته يتجاهل أمرهم ونظراتهم الممتلئة بالشفقة على حاله، كم تمنى لو أمتلك الآن

الشجاعة الكافية للاعتراف بكل شيء، ولكنه لا يستطيع ذلك بكل تأكيد حتى أنه لا يعلم أيضا فكيف سيعيش حياته المقبلة مع ذلك السر العميق، وكل هذا لا يمثل شيئًا مقارنة بأمر العائلة الملعونة، وما تنتظره من ابنها البار الجديد لعنهم الله جميعاً وبدوي أولهم.

فور أن دخل جعفر البيت لم يستطع تمالك نفسه وأفرغ معدته بالكامل على الأرض أمام الفتى الصغير الذي ظل واقفا ينظر إلى أبيه الوهمي، منح الولد جعفر قماشة وقارورة من الماء دون أن يتكلم، أخذها الأخير ومسح فمه ثم شرب من الماء ثلاثا، وكاد أن يتكلم وينطق ويعترف بكل شيء أمام ذلك الفتى، ولكن الصغير بادر بالحديث وقال:

- لا عليك يا أبي.. كل مر سوف يمر.

هدأ جعفر، وتنفس بعمق، وتمالك نفسه بصعوبة، نهص الفتى وقال:

- أنا ذاهب إلى الشيخ.. ادعو الله لي أن يتم الامتحان على خير.

رحل الصبي وأومأ جعفر ثم أخذ يبحث عن السم في جلباب بدوي، ولكنه لم يجده، فتنهد وتذكر كلمات الحانوتي حينما أخبره ألا يرهق نفسه بالبحث وأنه سوف يتولى كل شيء عنه، فعاد إليه مسرعا وجده جالسًا على المقعد ذاته أمام الشارع.

- أظن أن السم ضاع مني.

ابتسم شعبان وكان لا يبالي بالأمر حقًا.

- كنت أتوقع ذلك.. لا عليك سوف أتصرف، ولكن لا تخبر أحدًا بذلك غيري.

تعجب جعفر من ثقة الحانوتي في كلماته، فسأله:

- لماذا توقعت هذا؟

رشف شعبان من قدح الشاي الموضوع أمامه مرتين، ثم تنهد وكأنه يتذكر البدايات، ثم ابتسم وقال:

- لأنني فعلت مثلك... ألقيت بالسم في الترعة وأقسمت أنني لن أقتل أحداء ولكن في لحظة وعي ونضج أدركت خطورة تلك الأفكار وعواقبها.

- يا إلهي! وماذا فعلت؟

أجاب شعبان، وهو لا يبالي بالأمر:

- قتلت حتى الآن ثلاثة، وأظن أن مرسي سيكون الرابع.

- هل الانضمام إلى العائلة يستحق كل ذلك العناء؟

- بالتأكيد، تلك العائلة سوف تحكم العالم أو أنها تحكمه الآن بالفعل.

- إنهم يدعمون الفرنسيين في الحرب.

- لا يا أخي... أنت لا تفهم الأمر بعد أنهم لا يدعمون أحدًا سوى أنفسهم.

- لا أفهم.

- إنهم يدعمون العائلة فقط وتجارتها، سوف يدعمون فرنسا اليوم، وغدًا سوف يقفون ضدها اليوم، وفي الحروب تدعم العائلة كلا الطرفين.

- حتى تستمر الحرب..

- لا.. حتى يستمر سحب السلاح منهم في عائلتنا الحرب مثل السلام المهم هو التجارة والبيع والشراء والتوغل داخل السلطات، والتحكم في البلاد والهدف صدقني تجاري بحت.

- هذا مشين..

- لا أعتقد ذلك.. التجارة شطارة.

ساد الصمت بين الثنائي لحظات بعدها تناول شعبان الرشفة الأخيرة من كوب الشاي، ثم نهض من على مقعده، وقال:

- اليوم لا أريدك الظهور في الشارع نهائيًا.. وعند الفجر سوف يعلم الجميع أن مرسي مات ولا تنسَ الاجتماع يوم الخميس القادم، واستعد أن تتلقى الكثير من المدح والثناء من الأب وباقي الإخوة.

لم يرد جعفر ولم ينتظر شعبان رد ورحل سريعًا.

***

-٤-

صحف العربي المجنون

المجلد السادس

من صفحة ٥٨٣ إلى ٦٠٠

المعلم كاو

كانت كل تجاربي البحثية عن شاربي الدماء في أرض الأهرامات مرتبطة دومًا بالبيوت القديمة الفقيرة والبعيدة والمهجورة من زمن سحيق، ودومًا تكون لها تاريخ سيئ السمعة وغالبًا حدث فيها جرائم قتل بشعة وحالات انتحار، وسفك فيها

الدماء أو حوادث مخيفة وجثث وأشلاء أدت رائحة دمائها إلى جذب كيانات الظلام الملعونة.

لم أقابل قط مصاص دماء خارج الأماكن المغلقة، فهي كائنات دوفا تخشى الضوء والشمس والحرارة والناس والتجمعات والصيحات، ولكن في غابة وادي الدماء القريبة من الحدود الجنوبية لبلادنا حدث أربعة عشر معركة دامية بين المتطرفين

القادمين من الجنوب وجنودنا البواسل على الحدود وكانت المعركة الأخيرة قد انتهت قبل ستة أشهر، ولكن جاءتنا رسالة من رئيس حامية الجنوب أن هناك حوادث مخيفة تحدث ليلًا، وأننا خسرنا خمسة جنود مؤخرًا والقتلة تركوا أجساد أبنائنا تمتلئ بالجروح، كأن حيوانًا بريا مفترسًا يهجم عليهم ليلا ويفتك بهم واحدا تلو الآخر.

أظن أن جميع الأجزاء المتطرفة في بلادنا مسكونة بأشباح من ماتوا فيها أو كيانات الجان الحارسة مقابر الملوك وخدامهم، ودعنا لا نغفل الأرواح الشيطانية الشريرة للكيانات المرعبة التي عاشت لفترات طويلة منذ أمد بعيد في الأراضي الغامضة، وهم الآباء الأوائل.

كلما زادت حالات القتل في أرض الأهرامات تطور صائدو الأشباح والأرواح ومصاصو الدماء وصاروا أكثر براعة وملائمة لتطور الكيانات الغامضة وأنا كوني جندياً من كتيبة العقارب السرية أستطيع التمييز بين الصياد الأصيل والكاهن المجذوب وحتى المعلم الساحر البارع في استخدام الكيمياء والمحاول لإيجاد تفسير علمي لكل شيء غريب يحدث.

أقول في الصياد الأصيل المتتبع دومًا مصاصي الدماء أن طبيعته مختلفة، وهو ينظر للكيان الشرير الملعون من الناحية الشهوانية والدوافع التي أدت لظهوره وبقائه في مكان ما لفترة طويلة، كما ينظر ويتأمل طبيعته العنيفة جراء منظر ورائحة الدماء المسفوكة، وكذلك اللعنة الدائمة والمرتبطة بضوء الشمس. يحاول الصياد البحث باهتمام عن مصدر لعنة مصاصي الدماء وكيفية تتبعها والتخلص منهم ولا أذكر أن نجح صياد في قتل مصاص دماء سوى واحد فقط ولم ينجح سوى مرتين.

سمعت ذات يوم أن أصل لعنة مصاص الدماء جاءت من أقوام قديمة عاشت في جوار نهر الفرات كانوا يشربون دماء الأطفال لأنهم يظنون أنها تحمل إكسير الشباب، فجاءهم رسول من الآلهة، ولكنهم سخروا منه فجاءتهم لعنة الشمس

وشهوة الدماء إلى نصفهم والنصف الآخر صار يعاني من لعنة القمر والتحول المؤلم إلى كائنات حيوانية تشبه الذئاب.

لقد سمعت قصة رهيبة من رجل ريفي يدعى سنفر، قابلته مع اثنين من زوجاته أو بناته، لا أعلم تحديدا، قابلته في إحدى رحلاتي الجنوبية لتقصي أمر شاربي الدماء، حينها نظر لي وشرب كوبين من الخمر ثم قال لي:

- رغم أنني ولدت في الريف وترعرعت فيه وتعلمت فنون الزراعة والصيد لكنني خدمت في كتيبة مقربة من الفرعون ذات يوم، عشت فيها سنوات طويلة قبل أن أفقد يدي، وأجبرني ذلك على ترك خدمتي والعودة إلى الريف والآن دعني أخبرك ما جئت من أجله.. ألم تأت حتى تسمع عن مصاصي الدماء؟

كانت تلك المرة الأولى التي لا أسمع فيها شاربي الدماء، بل مصاصي الدماء، اومأت له وأظهرت أسفي على يده التي فقدها في خدمته للأسرة الحاكمة. لحظات واستأنف سنفر حديثه:

- في فترة خدمتي كنت أعيش في بيت صغير على البحر الشمالي، وأظن أنني مكثت فيه قرابة عشر سنوات كاملة.. حينها كانت أصداء الهجوم الفارسي في كل مكان وجاءني أمر من الفرعون بالخروج مع كتيبة صغيرة إلى متابعة قافلة بحرية

قادمة بها الكثير من السيوف والدروع، وكان من المتوقع أننا سوف ننتظر هناك أربعة ليالي.. كان الميناء يدعى ميناء توت.

لم يكن هناك ميناء يدعى توت طوال عملي كأحد العقارب ولم أقابله قط، ولكن سنفر أوضح الأمر سريعًا لاحقًا وأخبرني أن توت ميناء سري

يستخدم في نقل الأسلحة والرسائل السرية، بعيدًا عن الموانئ التجارية الرئيسية الأخرى. بعدها أضاف:

- عندما اقترب موعد الغروب جاء أحد الرفقاء في الكتيبة، وأخبرنا واحدا تلو الآخر بشؤم ما تفعله الآن واستطرد في الحديث حتى قال إن أردنا نصيحته فلا بد لنا أن تغادر ذلك الميناء ليلا ونعود إلى انتظار القافلة مع الفجر حينها سخرت منه وأخبرته أن يكف عن الترهات فقال وهو يصر أن تلك الأرض تحمل سمعة سيئة وشريرة للغاية ضحكت أكثر وأخبرته أن تلك السمعة الفرعون وحراسة هم من ابتكروا إياها حتى يبعدوا الجميع عن تلك المنطقة وتكون وتظل سرية لأي قوافل تابعة للجيش.

ميناء له سمعة سيئة يا لها من سخافة! ولكنني كوني عقرنا لا أنكر الأمور بإصرار، فلطالما رأيت من غرائب خلال مسيرتي الطويلة فنظرت إلى وجهه موجدته قلقًا للغاية. لم يكن لديه أي رغبة في بث الرعب داخلنا بقدر ما كان لديه قدر هائل من الذعر تجاه تلك الأساطير القديمة فنظرت له وقلت:

- أنا أقدر قلقك وحذرك من تلك الحكايات ولكنك ترى أننا في مهمة رسمية وحذرة للغاية ولا مجال فيها لترك مواقعنا وحتى إن كانت الأساطير صحيحة وذلك الميناء هو مقصد شاربي الدماء ليلًا فلن يقدروا علينا.

ثم نهضتُ ووجهت حديثي بشكل حماسي للجميع:

- لا اريدكم أن تنسوا من أنتم.... أنتم رجال الفرعون ولا عدو ولا غاز ولا سحرة ولا جان.

ثم نظرت إلى الرجل المذعور وأصفتُ:

- ولا حتى مصاص دماء ينزع ثقتنا في أنفسنا جئنا في مهمة محددة وسوف تنجزها إلى النهاية يا قوم.

تقبل الجميع حديثي ما عدا ذلك الرجل. هز كتفيه في استهانة وقال:

- بكل تأكيد على أي حال لترعانا الألهة.

نظرت له وقلت:

- حتماً ستفعل وإن ظهر مصاصو الدماء في تلك الليلة سوف أشرب من دمائها حتى آخر قطرة فيها وسوف تعلق أحفادها على الأشجار وتحمل ضوء الشمس يأكل في لحمها أكلا حتى يحترفوا ويصبروا رمادًا..

في غضون ساعة من حديثنا غاصت الشمس في كبد البحر وأخذ الطقس يميل إلى البرودة وظهرت أصوات الذئاب من مصدر بعيد لا نعلمه، وبعدما مرت ساعة تجمعت الغيوم فوقنا وأعلن الرعد عن قرب هطول أمطار شديدة وشق البرق السماء وأضاءت الأرض في منتصف ليلها حتى أننا فشلنا في إشعال الحطب سبع مرات، نظرت حولي ووجدت بينا قديما مهجورا من الخشب، من الواضح أنه كان لأحد الصيادين القدامى الذين عاشوا هنا قبل زمن بعيد، أمرت الكتيبة أن نتحرك نحو ذلك البيت ونحتمي فيه وقبل أن نصل إلى هناك بدأت السيول تنهال بغزارة.

كان الأمر مثيرًا للضحك والريبة يا سيد كاو فبعد سنوات قضيناها في صحاري مصر الحارة الشاسعة والحارة وشمسها تلفح وجهي كأنها نيران من جحيم الآلهة تحولت الحياة وتبدلت الأقدار وصارت مهمتنا بجوار البحار حتى الأمطار سقطت علينا بغزارة غير معهودة.

لا أعلم لماذا اعتبرت ما حدث الآن نذير بقرب انتهاء خدمتي في الجيش وبالفعل كانت تلك الليلة هي المشؤومة التي فقدت فيها يدي، يا ليتني صدقت الرجل ورحلنا، يا ليتني ما سخرت منه وصدقته في إعداداته.

أخذنا نسير، وكان أحدنا يغني نشيد من أناشيد الآلهة لعلها تراعنا، وضعت يدي على حقيبتي لأتأكد أن ما بداخلها في أمان لأنها كانت تحمل هدية من زوجتي أحببتها أكثر من أي شخص في العالم.

***

التي صمت سنفر لحظة نظر لي وقال:

- لم أكن قد قابلت ابنتي بعد..

التزمت الصمت حتى لا أشتت أفكاره المتدفقة خاصة أن كلماته بدأت تقترب بشدة من غايتي فهو أخيرا بدأ ذكر كلمة مصاص دماء وما هي إلا لحظات وبدأ الرجل في استئناف حواره

***

حسناً، قرب البيت الخشبي المهجور لم نجد أي مشكلة ونحن نسير، ولكن عندما اقتربنا أكثر تغير الأمل قليلا كان يحيط بالبيت وحل عميق وحفر وعرة كأنها آثار أقدام حيوان عملاق ممن عاشوا في العصور السحيقة، كان هناك الكثير من التلال

الطينية الضخمة وكذلك حجارة حادة عسرت من مسيرة وصولنا إلى البيت الغامض، وفجأة في ظل الأمطار صارت الأجواء كأننا في مستنقع به العديد من المخاطر لا يعلمها أحد سوى آمون وحده.

لم أر شيئًا مثل ذلك منذ كنت في الجنوب السحيق حيث هضبة الحبشة والأجواء الشتوية غير المنقطعة، ولكن الإنسان وخاصة الجندي يعتاد تقلبات الحياة سريعاً، فقلت لنفسي إنه مجرد طقس سيئ، بيت مهجور وقافلة أسلحة وحرب ضد الفرس مثل كل الحروب ومهما كانت الصعوبات ظلت راية المصريين عالية ترفرف في عنان السماء، ولو تطلب الأمر الغوص في تلك الأرض الطينية والسباحة حتى أصل إلى ذلك البيت الخشبي الملعون لفعلتها، وبالتأكيد جنود الفرعون لن يموتوا بواسطة طقس سيء، وحتى لو كان كلمات الرجل السابقة عن ذلك الميناء مصدر جذب للكائنات الملعونة مثل شارب الدماء فأنا مدرب بشدة على مواجهة المصاعب، ويمكنني بكل تأكيد الفتك بها فهم مجرد بشر فقدوا آدميتهم، وصاروا كالحيوانات المفترسة، وكم من الحيوانات التي واجهتها وقتلتها بالفعل!

وصلنا البيت أخيرًا، وكان المدخل بلا أبواب حتى النوافذ ربما تطايرت بفعل الهواء، فكان المظهر الأمامي لذلك البيت يشبه الوجه المظلم الغاضب بالداخل وفي المنتصف هناك شجرة سوداء ضخمة من الواضح أن سكان ذلك البيت نسوا بعض البذور وسقطت منهم أرضا والأمطار كانت تسقيها يوميا حتى نمت البذور وصارت شجرة عملاقة وبالتأكيد يا سيد كاو أنت تعلم أنني أهذي.

بالتأكيد لا يمكن للأشجار أن تنمو بالقرب من البحر ولا هناك أمطار يوميا في مدن مصر الساحلية وهنا بدأت أشعر أنه يوجد شيء غريب بتلك المنطقة، شيء كروح شريرة ممكن أو ربما شيطان من الجن.

ثنايا البيت بدأت تصدر أصواتا مرعبة بفعل الرياح الخارجية، وبدأت أوراق الشجرة السواد في التطاير وفجأة رمقت شيئا ما في تجويف

الشجرة كأنها جثة إنسان دفن بداخلها بدون تفكير اقتربت منه وبدأت في الهمس:

- هل أنت بخير يا رجل؟

أمسك يدي أحد الرفاق وطلب بعينيه أن أتوقف وأشار بضرورة الرحيل عن ذلك المكان ولكنني سحبت يدي برفق وظللت أقترب خاصة بعدما لاحظت أن الجثة لأنثى وليس لرجل، لمست وجنتيها الباردتين وتحسست بشرتها الجافة التي تشبه ورق الأشجار الميت، مررت بيدي على تعرجات وتجاعيد وجهها ثم توقفت عند شفتيها

وشعرت بنبض ضعيف للغاية فيها، اقتربت أكثر ونظرت إليها بقرب شديد فتحت عينيها فجأة ونظرت لي، انتفضت وحاولت التراجع ولكنني وجدت أصابعي داخل فمها ودماء غزيرة تنساب على جانبي شفتيها، صرخت بدون أن أشعر وطلبت المساعدة من رفاقي وهنا اكتشفت أن الجميع غادر وتركني وحدي فريسة لذلك المخلوق الغريب، حاولت جذب يدي وشاربة الدماء تأبى إفلات أناملي فظللت أحاول بقوة حتى فقدت أصابعي بالكامل داخل فمها، هرولت نحو الخارج ولكن من الواضح أن قطرات الدماء التي شربتها من يدي منحتها بعض القوة البدنية فنهضت وأخذت تتحرك بسرعة الريح في البيت، خرجت فخرجت خلفي، أنظر إليها أجدها تنظر لي بشراهة مرعبة، أسقط رعبًا وهي تسقط كأنها لا تجيد التحكم في قدميها أو ربما تتذوق ما يسقط من يدي المجروحة من قطرات دموية، تتحرك كحيوان بري مفترس وأنا أهرول كفريسة مسكينة، صرخت:

- أين أنتم بحق الجحيم!

أنهم يختبئون ولا يريدون جذب شاربة الدماء نحوهم، ناديتهم لا أحد يرد مرات عدة وهم تجاهلوني في كل مرة.

- أرجوكم، سوف تقتلني..

هنا توقفت عن الجري وعلمت أنه لا فائدة من ذلك الهرب، نظرت إلى الخلف فرأيت شاربة الدماء تنظر إلي في شهوة وعيناها تخبراني أنني سوف أموت لا محالة، سقطت على ركبتي وبصعوبة حاولت بلع لعابي، ولكنه وقف في حلقي صارت أنفاسي ثقيلة للغاية وإحساس الموت القريب يضغط صدري ويسحق ما تبقى من روحي، اقتربت شاربة الدماء أكثر ثم سقطت على رقبتي وغرست أسنانها في

عروقي وبدأت في سحب دمائي بنهم شديد فحاولت الصراخ من جديد ولكن الصوت أبي الخروج، وفجأة شعرت بالظلام يلتف من حولي ويغمرني غمرا وأنا مدرك تمام الإدراك أنها النهاية لا محالة.

***

توقف سنفر عن الحديث وهو يتذكر تلك المأساة، ولكن مهما كانت صعبة فلا بد له أن يكون ممتنًا أنه نجا من ذلك المأزق، فهو ما زال على قيد الحياة في النهاية فلا بد أنه حدثت معجزة من السماء حررته من قبضة تلك المخلوقة الشريرة، وهنا سألته:

- وكيف نجوت منها؟

ضحك سنفر ونهض من مقعده وتحرك إلى نهاية الغرفة وهناك تناول كأسًا من الخمر ثم استأنف حديثه دون أن يجيب عن سؤالي.

***

لا أعلم كم من الوقت من، ولكنني كنت داخل مستنقع عميق من الطين الأسود، ربما كان ذلك قبل الشروق بقليل، لم أعد كما كنت على الشاطئ، بل كنت أواجه حائطًا طويلًا من الأشجار السوداء الضخمة التي انحنت قممها المدببة بفعل الرياح

العاتية كما لو أنها تؤدي لي التحية أو ربما تسخر مني لا أعلم.

كنت في منتصف طريق لا بداية له خلفي ولا نهاية واضحة أمامي ولا شيء يمكنني فعله سوى إكمال هذا الطريق المروع وأنا لا أعلم إلى أين سوف يصلني مر بعض الوقت وبدأت الشمس في الظهور، ولكن حرارتها كانت أشد وطأة عن كل يوم كأن بشرتي صارت حساسة تجاه أشعتها في البداية ظننتها عدوى ما ربما أصابتني من تلك السيدة التي هاجمت جسدي ولا أعلم كيف نجوت منها.. مر وقت آخر وصارت الشمس أقوى وأقوى لدرجة لم أعد أتحملها، رأيت بشرتي تتمزق كأنني أحترق حيًا فأخذت أجري باحثًا عن بيت أختبئ بداخله، وكانت الأقدار رفيقة بي، ووجدت كهفا على مرمى البصر فدخلته سريعا وألقيت بجسدي جوار جدار الكهف وأخذت أبكي، ولا أعلم ماذا حل بي ولكن حينما رأيت فأرا يجري بالجوار وشعرت برغبة

عارمة بداخلي في التهامه وشرب دمائه فهمت ماذا يحدث..

روحي ربما نجت من هجوم مصاصة الدماء، ولكنني صرت مسخًا ملعونًا مثلها.

***

-٥-

صحف العربي المجنون

المجلد السابع عشر

من صفحة ١١٥ إلى ١٢٢

المحروسة - يناير ١٨٠٠

يوم الاجتماع ذهب جعفر جاهلا بكل التفاصيل التي سوف يشاهدها، يحاول التماشي مع كل شيء يراه، ولكن ما يحدث بكل تأكيد يفوق خياله وتوقعاته، الجميع عاري الأرجل، يرتدي كل منهم الملابس السوداء وتغطي الأقنعة وجوه الأبناء كلهم، جلس أعضاء المنظمة السرية حول طاولة الاجتماعات وعلى رأسها كان الأب وعلى يمينه كالمعتاد وزيره أو مساعده المقرب العضو رقم مئة وعشرين، قال الأب:

- مرحباً بكم يا أبنائي، أنا سعيد بكم فرداً فرداً، وأشعر أنني أحسنت اختياركم، جميعنا سمعنا عن رحيل الخباز مرسي بن عبد الله وهذا يؤكد نجاح ابننا رقم مائة في مهمته الأولى، لنشرب جميعاً نخب الابن الجديد.

نهض مائة وعشرون وبدأ في صب النبيذ للجميع، ثم أضاف الأب:

- من الواضح أن هناك شخص ما هنا لا يفهم طبيعة عمل العائلة، لا أعلم ماذا كان يفكر هذا الأسبوع وهو يحاول خداعنا جميعًا.

نظر الأب إلى الجميع نظرة خاطفة ثم توقف ببصره على العضو رقم ثلاثة وخمسين، فتحرك مائة وعشرون إلى الأخير ووقف خلفه في الحال، وقال الأب:

- ثلاثة وخمسين، بماذا أمرتك الأسبوع السابق؟

ابتلع الرجل لعابه بصعوبة ونهض من مقعده وجسده ينتفض، وقال بصوت مرتعش مذعور:

- فعلتُ كل ما أمرت به يا سيدي، حضراتكم طلب مني أن أتنازل عن نصف ثروتي إلى العضو رقم ستين، وقد فعلت أقسم لك.

ثم نظر العضو رقم ثلاثة وخمسين إلى العضو رقم ستين وأردف:

- أليس كذلك يا رجل؟ ألم أمنحك كل شيء؟

أجاب العضو رقم ستين:

- نعم يا أبانا.. أخي ثلاثة وخمسون منحني نصف ثروته بالرغم من أنني حاولت التنازل عن الأمر، ولكنه أصر على ذلك تنفيذا للأوامر.

أومأ الأب ثم صمت لحظات وشرب كأسًا من النبيذ، ثم أضاف:

- أنا لم أقصد يا ثلاثة وخمسين أمر التنازل عن ثروتك.. بل أقصد أمر ذراعك اليمين، أنسيت؟! ألم تخبرنا أن الشرقاوي ذراعك اليمين لم يعد قادرا على تنفيذ أوامرك ولم يعد يستطيع جلب الضرائب من الناس، فأخبرتك بضرورة التخلص منه؟

لم يكن ثلاثة وخمسون يصدق أن فعلته كُشفَ أمرها، وسرعان ما تذكر كل من حاول مخالفة الأوامر هنا وكيف كان مصيره الموت الحتمي بعدها بلحظات، فقال بصوت بائس مرتعش وكاذب:

- أنا فعلت.. أنا قتله.. وضعت له الزرنيخ وقتلته.

ضحك الأب بصوت هادئ وقاطعه قائلًا:

- لا، لم تفعل ذلك. تحرك ثلاثة وخمسون ناحية الأب، فأوقفه مئة وعشرون في الحال وأمسكه من كتفه.

- لا يجوز الاقتراب من الأب مهما كان السبب.

صاح ثلاثة وخمسون وقال بصوت مذعور:

- أقسم لك قتلته.. يا إلهي قتلته يا إخوة.. أنا قتلته يا أبي!

أجاب الأب بصوت ساكن وهادئ كعادته:

- لا.. أنت طلبت منه ركوب إحدى السفن ومغادرة البلاد نحو الشمال أليس كذلك؟

صمت الجميع وسكن كل شيء في الغرفة، والعيون كلها ترتقب عاصفة الموت الحتمي التي سوف تحل على المكان خلال لحظات، ثم قطع الأب الصمت وقال مخاطبا الجميع:

- ليشرب الكل كأسه في الحال!

أمسكت كل الأيادي الكأس الموضوع أمامها وشربته في الحال ثم فعل جعفر مثلهم وهو يرتجف لا يصدق ما يراه أمامه، فكر كثيرًا في أن يخلع ملابس في الحال ويجري مغادرا ذلك المكان، ولكنه يعلم أن لا مفر من تلك العائلة الملعونة سوى الله وحده ثم لعن أخاه بدوي في سره، وتمنى لو لم يقتله وتركه مع تلك الجماعة السرية المجنونة حتى يلق حتفه.

- لماذا فعلت هذا يا عبد اللطيف؟

سأله ذلك السؤال الأب ثم صمت لحظات وأضاف

- يمكنك نزع قناعك الآن.

عجز ثلاثة وخمسون عن تنفيذ الأمر فقام به مائة وعشرون فانكشفت شخصية ثلاثة وخمسين أمام الجميع، كان جعفر يعلم ذلك الشخص، فقد سبق وأن شاهده في الأسواق عدة مرات يشتري النبيذ بكميات هائلة وكان الجميع في الأسواق يلقبه بالسكير المكير. قال ثلاثة وخمسون بصوت آسف:

- لأنه أخي يا أبي.. قال الأب بصوته المعتاد ثم أومأ إلى حارسه مائة وعشرين:

- حسبت أنه لا أخوة لك سوى الموجودين هنا.

تقدم مائة وعشرون وأمسك رقبة ثلاثة وخمسين، فقال الأخير بيأس:

- إنه أخي بالدماء.. وليس بعهود الشيطان.

حاول ثلاثة وخمسون دفع مائة وعشرين، ولكن الأخير كانت قبضته أقوى بكل تأكيد، ظل يضغط على رقبته بقوة إلى أن سمع الجميع صوت

تهشيمها، كان المشهد معتادا لجميع الحاضرين عدا جعفر الذي وصل فزعه إلى القمة، لا يصدق ما يراه من جنون، ويتعجب أن أخاه ذا العقل والحكمة قد انضم إلى هؤلاء، قال كلمة قالها ثلاثة وخمسون قبل أن يسقط جثة هامدة:

- سحقًا لكم!

رشف الأب من كأس النبيذ ثم قال ساخرًا:

- سوف أشتاق إلى نبيذ ذلك الرجل.

ضحك الحاضرون باصطناع ثم نظر الأب إلى العضو تسعة وسبعين:

- لم تقل لنا يا رجل عن مشاعرك لموت موسى بن عبد الله الخباز... أخوك طهّر شرف ابنتك وقتل من حاول التحرش بها.. بالرغم ما حدث له إلا أنه وضع شرف ابنتك نصب عينيه.

قال تسعة وسبعين وهو ينظر إلى جعفر:

- نعم بكل تأكيد.. أنا اعتذر يا أبانا، وأعتذر يا مائة، فلك مني كل شيء تطلبه. نظر الأب إلى العضو رقم مائة وقال له:

- هيا اطلب ما شئت من أخيك.. هذا حقك يا رجل.

تردد جعفر لحظات وهمهم:

- أخشى أنني لا أريد شيئًا.. أنا فعلت هذا من أجل العائلة فقط.

انتهى الاجتماع ولم يطلب الأب من جعفر أي مهمات جديدة، فقط منحه رخصة للذهاب إلى أسماء العاهرة زوجة قارون الديوث، في مساء ذلك اليوم تقابل شعبان وجعفر من جديد على القهوة، لم يعد الأخير يخشى ساعات حظر التجوال وهو فهم أخيرا أنه توجد أشياء مخيفة أكثر من جنود فرنسا بكثير كما لو أن بداخله رغبة لو تسوء الأوضاع وتم القبض عليه وأسره بعيدا عن الشوارع وأعين أفراد العائلة، فقد تحولت الدنيا كلها في عيني جعفر كسجن يعيش بداخله في جسد ليس جسده وعائلة ليست بعائلته حتى ابنه من صلبه ودمائه، قال شعبان بملل:

- رحلت أنت وتركتني مع الملعون مائة وعشرين.

تعجب جعفر من سباب الحانوتي لذلك العضو بالتحديد.

- حسبتنا لا نشتم أخواتنا ولا نذكر العائلة خارج أسوار الاجتماعات.

بصق شعبان على الأرض وهمهم ساخطًا:

- وهل مائة وعشرون أخونا؟ بربك هذا الملعون هو عزرائيل المجلس، كل مرة يا أخي اشعر أنها النهاية وأنني لن أفلت أبدا من قبضة ذلك الأحمق الخبيث، أتعلم أن هناك إخوة يعتقدون أن ذلك الرجل ليس من الأنس؟

ابتسم جعفر وقال بسخرية:

- أتقصد أن مائة وعشرين من بني الجان؟

قال شعبان بصوت جاد:

- نعم بكل تأكيد هو من الجان.. هل سبق ورأيت إنسانًا بذلك الحجم والضخامة؟ على أية حال لو لم يكن مائة وعشرون من الجان فهو بكل تأكيد من قوم العملاقة الذين عاشوا قبل أمد بعيد.

أتى عامل القهوة وسألهما لو كانا يريدان الشاي، ولكن الحانوتي استشاط غضبًا ونهر الفتى بقوة وأمره بالرحيل على الفور وإلا هشم رأسه، كل هذا وجعفر يتابع الأمر في صمت شديد، ثم سأل الحانوتي الذي يرتجف خوفًا وفزعًا:

- لماذا أنت غاضب هكذا هذه المرة؟ لم أعتد منك تلك الحدة من قبل.. لطالما كنت هادئًا ورزينًا، ما بك يا رجل؟

زفر الحانوتي زفيرًا طويلًا، وأمسك صدره لحظات متألقا ثم قال:

- الملعون طلب مني أن أهبط الأسواق وأجمع النبيذ من جميع الباعة بأقل الأسعار من أجل مجالسنا.. الملعون يريدني أن أسحب كل الخمور من الأسواق!

تعجب جعفر من حديث الرجل لحظات ثم تسائل ساخرًا:

- وهل نشرب في اجتماعاتنا كل مخزون الخمر؟ أجاب الحانوتي وهو يشير إلى ثلاثة جنود فرنسيين يمرون أمامهم:

- لا يا أخي ليس هذا المقصد.. بل يباع لهؤلاء الحمقى بعشر أضعاف ثمنها الحقيقي، كأن بلادهم خالية من الخمور والفسق والفجور.

حك جعفر أذنه بخنصره وأخذ يفكر في صعوبة مهمة الحانوتي، ذلك الأخير له وقاره بالحي ولا يمكن ألا يلاحظه أحد وهو يشتري الخمر،

فكيف لموصل الأموات بسكير يشتري الرجس، بل ويجادل في أسعاره وهنا شعر جعفر أن مائة وعشرين يحاول التخلص من الحانوتي بمنحه مهمة لا يمكنه تنفيذها مطلقًا، كأن لكل عضو فترة صلاحية وتنتهي أو لا يمكن لأحد الأبناء البقاء داخل الجماعة السرية إلى الأبد وأن الموت هو النهاية الحتمية للجميع فتساءل وهو يعلم الإجابة:

- وماذا سوف تفعل؟ مائة وعشرون منحك رخصة سريعة للموت الحتميّ.

لم يسمع الحانوتي العبارة الأخيرة لجعفر أو من المحتمل أنه تجاهلها كأن عقله ينكر تلك الحقيقة التي صارت واضحة هذه المرة، وهمهم:

- لا أعلم.. أشعر أن طلب العائلة هذه المرة يفوق قدراتي.. كيف سآخذ تلك البضائع منهم؟

ثم صمت لحظات وبعدها أضاف:

- لم تقول يا أخي أن مائة وعشرين منحني رخصة للموت؟ هل تقصد أن العائلة تريد التخلص مني؟ كيف ذلك؟ لطالما كنت الابن المطيع لهم، لم أتأخر قط عن تنفيذ أي مهمة طلبوها مني.. هل تظن أنهم علموا أنني قتلت الخباز من أجلك؟

تجاهل جعفر كلمات الحانوتي، وقال مُغيرًا دفة الحديث كله:

- دعنا من كل شيء، ومن كل حديث لا فائدة منه وأخبرني كيف كان يفعلها العضو ثلاثة وخمسين قبل أن يموت في الاجتماع؟

تشتت ذهن شعبان لحظات وأجاب وهو ينظر إلى عيني جعفر:

- يا أخي عبد اللطيف كان معه الشرقاوي وخمسة آخرون مثل شرقاوي.. إنهم من الفتوات أصحاب السلطة هنا ويجبرون الباعة على فعل أي شيء وإلا زادت الضرائب.. لا يمكن للحانوتي شراء الخمر، هذا ضد العقل والمنطق والعادات والعرف.. العائلة مع الوقت تضغط علينا أكثر وأكثر.

صمت الثنائي، ثم قال شعبان:

- أشعر أنني فهمت لماذا طلبوا مني ذلك الطلب بالتحديد.

لم يفهم جعفر إشارة الحانوتي، ولكن قلبه انقبض ولم يتفاءل بالكلمات القادمة منه، فأضاف الحانوتي:

- العائلة تريد أن تصنع مني عبرة للجميع.. الأب والعضو رقم مائة وعشرون صارا يعلمان أننا صديقان ولأنني ساعدتك في المرة السابقة وبسبب عجزي عن تنفيذ ما أمراني به يتوقعان بالتأكيد أنني سوف أطلب منك المساعدة.

حاول جعفر التدخل ومقاطعة كلمات الحانوتي الغاضبة:

- أنت تبالغ يا رجل.. الأمر بالتأكيد ليس هكذا.

كان جعفر يشعر بندم شديد لأنه من بث الشك داخل شعبان نحو العائلة كلها ونيتهم الغادرة، استأنف الحانوتي حديثه وقال:

- العائلة تتوقع أنك سوف ترفض مساعدتي، وأهبط وحيدا إلى الأسواق في محاولة شاردة بائسة من أجل شراء الخمر فتتحطم سمعتي ويسخر الجميع مني، وبالتأكيد سوف تفشل مهمتي والاجتماع المقبل سأكون مسخ الجلسة وجثتها بكل تأكيد وأخسر حياتي وسمعتي وعائلتي وكل

شيء لأنني ساعد في مهمة كان لا يجب لي التدخل فيها.. أنا أخطأت وأنا فهمت.

حل الصمت المكان وتبادل كل من شعبان وجعفر النظرات ثم نهض الأخير وهم بالرحيل فوقف شعبان وقال بصوت مرتفع نسبيًا:

- أفهم من ذلك أنهم كانوا على الحق؟ هل تقتلني يا رجل!

توقف جعفر ونظر إلى شعبان:

- ماذا تتوقع مني أن أفعل؟

صاح شعبان بقوة واستهزاء وألم:

- ماذا أتوقع منك؟ أتقول ماذا أتوقع منك؟ ألن تساعدني فيما طلبوه مثلما فعلت من أجلك؟

لم يرد جعفر وأخذ يبتعد بخطواته عن المكان فصاح الحانوتي بقوة:

- سوف أقتلك بحق الجحيم.. سوف أقتلك..

***

في اليوم التالي أخذ جعفر رخصة العائلة المدون فيها العنوان وتحرك إلى هناك وهو يأمل أن تسير كل الأمور على ما يرام، ذهب ليس لأنه يريد ذلك ولكن حتى يسير على خطى بدوي بالضبط، لا يريد أن يشك فيه أحد، يتصرف كما لو كان أخوه بالضبط وهو يعلم بكل تأكيد أن بدوي لن يفوت ليلة مع عاهرة خاصة لو جاءت بشكل أمر من جانب تلك العائلة الملعونة.

أمام البيت كان قارون يجلس كعادته يدخن لفافات التبغ ذو الرائحة المميزة التي لا تحتاج إلى وقت طويل حتى تعلم أنها ممزوجة بنبات الحشيش، يرتدي جلبابًا بنيًا وتعلو رأسه عمامة سوداء، فور أن رأى قارون جعفر قال مهللًا ومرحّبًا:

- صديقنا الجديد.. آخر العنقود يعود من جديد إلى ديارنا، مؤسف أنني خسرت الرهان مع أسماء الغالية.. بربك يا رجل كيف فعلتها؟ أمثالك لا يعودون أبدًا.

لم يفهم جعفر كلمات قارون، ولكن اطمأن قلبه أن الأخير خدع كالجميع في التشابه بينه وبين بدوي وهمهم متحيرًا:

- هل تراهنت أنني لن أعود من جديد! لماذا؟

هز قارون رأسه نافيا وأجاب موضحا الأمر:

- لا تراهنت معها أنك سوف تموت خلال أسبوع واحد من انضمامك للعائلة الأولى.. أبعاد وجهك تؤكد أنك لن تعيش طويلًا.. بياض عينيك السفلي يؤكد ذلك.

- أسبوع! لماذا ظننت ذلك! وما علاقة بياض العين بالموت يا رجل؟

دُهِشَ قارون من أسئلة جعفر كأنه لم يكن يتوقع جهل الأخير:

- ألم يبلغك أحد بالإحصائية؟ كما أنه كيف تسأل عن بياض العين؟ ألم تقرأ عن علوم الفراسة من قبل؟ كيف تم اختيارك في العائلة المقدسة وأنت هكذا؟

صمت قارون لحظة ثم أردف:

- صارت اختياراتهم مؤخرا دون المستوى للغاية.

قال جعفر بملل لأن الكل نسي وهو يتحدث عن قارون أن يصفوه بكثير الكلام.

- ويحك يا رجل أنا لا أفهم شيئًا.. والآن أين العاهرة أنا في عجلة من أمري؟ ابتسم قارون وهو ينظر إلى جعفر، ثم قال:

- ألا تعلم أن تسعة رجال من أصل عشرة يموتون في الأسبوع الأول من الانضمام إلى العائلة ونصفهم يقتل نفسه والباقي يفشلون في تنفيذ أول مهمه لهم ولكنك نجحت.. نجحت في مهمة العائلة وفشلت في اللياقة واللباقة هنا.. لا يمكن أن تقول عنها العاهرة أبدا، لو سمعتك فسوف تغضب منك بشدة وبالتأكيد سوف تفشل ليلتك معها.

كان جعفر لا يصدق أنه يوجد إنسان يتحدث عن زوجته بتلك النبرة الخبيثة والجريئة.

- أنا لا أصدق أنها زوجتك.

ضحك قارون وقال:

- أنت مميز وبارع.

قال جعفر بثقة أكبر هذه المرة:

- أنت مجرد قواد وهي مجرد سيدة ومسرحية الزوج والزوجة فقط من تدعي مرحلة قصوى من الفجور من أجل أن تلفت نظر العائلة لك وتعمل معها.. العائلة تحب كل ما هو غريب وشاذ للغاية.

تلاشت ضحكة قارون هذه المرة ونظر إلى جعفر بقلق بعض الشيء.

- لا يمكنك إخبارهم بتلك المعلومة.

تجاوز جعفر ذلك الأمر مع قارون، فهو لم يكن يريد أي يصنع أي عداوات جديدة فقال متسائلًا ومغيرًا دفة الحديث:

- هل كنت حاضرًا معنا في الاجتماع هذا الصباح؟ تنهد قارون وصمت لحظات وظل ينظر إلى جعفر ثم أجاب على السؤال بآخر:

- أنت ذكي وفضولي.. أخبرني أنت ماذا تظن؟ هل تشعر أنني كنت موجودا بالجوار ذلك الصباح؟

- لا أعلم، طالما أنت من العائلة فبالتأكيد كنت حاضرًا.

ابتسم قارون من سذاجة جعفر وبساطة تحليلاته وقال ساخرًا ومكررًا كلمات الأخير:

- طالما من العائلة فبالتأكيد كنت حاضرًا.. حسناً إنها نظرية تستحق التأمل، سطحية بعض الشيء، ولكنها يمكن أن تفسر الكثير من الأمور.. لا علينا، تفضل بالدخول، أسماء تنتظرك، نصف ساعة فقط.

لم يتحرك جعفر من مكانه وسأل قارون:

- ما رقمك يا أخي؟ ولماذا أشعر أنه يوجد سر عميق تخفيه؟

- ومن منا ليس لديه أسرار! أما عن الرقم فأنا لا أفضل أن أقول تلك المعلومة، أنا قارون فقط كما أنني أخبرتك بكوني أحد خدام العائلة ولست ابنًا لها.

قال جعفر بإصرار:

- ولكن كلانا يعلم أنك تكذب وأنك أحد أبناء العائلة.

رد قارون بغضب وصوت حاد:

- حسناً.. أنت فضولي للغاية لم تكن هكذا في لقائنا السابق. عند هذه اللحظة قرر جعفر التوقف عن طرح التساؤلات حتى لا يشعر قارون باختلاف الصفات الشخصية بينه وبين بدوي، وشعر بالغضب لكونه يسترسل بالكلام والتساؤل عن كل شيء ومحاولة فهم جميع الأمور بشكل متعجل وتلك العجلة سوف تسبب له الكثير من المتاعب.

قابل جعفر أسماء للمرة الأولى، كانت الأخيرة نائمة على الفراش لا ترى القادم ناحيتها فتنهد جعفر، وهمهم:

- سلام عليكم.

كررت أسماء كلمات جعفر ساخرة:

- سلام عليكم؟

عدلت من وضعيتها ونظرت إلى جعفر، ثم ضحكت بصوت مرتفع وقالت:

- العضو الجديد، يا إلهي! كنت أعلم أنك سوف تعود، كسبت الرهان مع قارون، فطرتي مازالت تعمل بشكل سليم!

جمع بين الثنائي لقاء جنسي سريع للغاية، بدا فيه جعفر عكس بدوي على نحو كبير، الأخير كان متزوجا وذا خبرة واسعة في التعامل مع

السيدات أما جعفر فهو للمرة الأولى يجد نفسه في فراش واحد مع سيدة عارية وكان جاهلًا بالكثير من التفاصيل الخاصة عن العلاقات وأخذ يمارس الأمر مع أسماء كأنه مراهق ابن العاشرة من عمره، دفعت أسماء جعفر، وقالت:

- أنت لست هو.. أنت لست هو.

كتم جعفر فم أسماء بقوة واقترب منها وقال:

- ماذا تقصدين؟ ماذا تقصدين بحق الجحيم؟ أنا لا أحب ذلك المزاح!

دفعت أسماء جعفر من جديد وكادت أن تصيح، ولكن الأخير أحكم قبضته على فمها فقالت بصعوبة وبصوت مكتوم:

- أنت لست بدوي، ربما تخدع الجميع، ولكن أنا غيرهم.. أنا أطلع على لم يره غيري.. أنت لست هو، بدوي كان مختلفًا.. أنت عذري للغاية.

كان يعتقد جعفر أنه سيكشف أمره منذ اللحظة الأولى، ولكن لم يفكر مطلقا أن يكشف بهذه الطريقة، ابتلع لعابه بصعوبة وعقله حائر بين الكثير من العبارات الساذجة التي يفكر في استخدامها حتى تبرر موقفة ثم جالت فكرة إلى خاطره.

- من الواضح أن الأمور متداخلة معك، أنا لست في مزاج جيد، أنت تعلمين ظروفي وما حدث لأسرتي مؤخرا.. بالتأكيد أنا لست على ما يرام حتى لم يكن من المفترض أن آتي إلى هنا اليوم، ولكنها كانت أوامر الأب، وفي عائلتنا لا قرار من أوامر الآباء

- ربما أنت محق ولكنني سوف أبلغ قارون بشكوكي، وهو سوف يبلغ العائلة وهم سوف يتأكدون من صحة كلماتك، يا إلهي أتعلم كم ستكون المكافأة لو كنت كاذبا؟ من المؤكد سوف أدخل العائلة بشكل رسمي وتحرر رقبتي من ذلك الديوث الأحمق الجالس على بابي.

صمتت أسماء وعيناها تلمعان من جنون الفكرة ثم أضافت ساخرة:

- ولكنك سوف تدفع ثمن كذبتك برقبتك، لا تأخذ الأمر بشكل شخصي أنا فقط أريد الحرية، سئمت ذلك العهر والفرصة لا تأتي إلا مرة وحيدة.

- علم جعفر أنها النهاية بكل تأكيد، وأن تلك السيدة لن تتركه يحيا في سلام في سلام نفسي داخلي حتى تقايض حريتها بروحه، فهمهم بصوت بائس وأنها حزين:

- لماذا تفعلين ذلك بحق الجحيم؟ تلك الكلمات سوف أموت بسببها، تلك العائلة حتى لن تأخذ عبء البحث في حقيقتي، سوف يقتلوني مقدمًا، أنا رأيتهم كيف يضحون بكل شيء يمس كيانهم.

- لأنك مخادع وتحسبني عاهرة غبية، تحاول السخرية مني، أتعلم حينما أنني لم أكن الوحيدة في ذلك البيت التي تخدم أعضاء الأسرة؟ كنا تسعة.. تسعة يا أخي أتعلم أين الباقيات؟

تساءل جعفر وهو يعلم الإجابة:

- قُتلن؟

اومأت أسماء:

- ولكن أنا عشقت الحياة وتعاهدت مع نفسي أن أبقى مهما كان الوضع سيئا حتى أستغل الفرصة لأتحرر من ذلك السجن، وأنت تلك الفرصة.

هبط جعفر على ركبتيه وهمهم باكيًا:

- أرجوكِ.. سوف يقتلونني، لا يمكنكِ فعل هذا بي سوف أدفع ثمن سكوتكِ مهمة كلفني الأمر، لا يجب أن أموت الآن.

- دُهشت من انكسار الرجل أمامها وصاحت بسعادة بالغة والنشوة تسري في عروقها:

- يا إلهي أنا محقة! أنت بالفعل لست بدوي.. لست بدوي.. من تكون يا رجل؟

كاد أن يجيبها جعفر، ولكنها قاطعته وأضافت:

- مهلا.. أنت جعفر؟ أنت التوأم؟ صمت جعفر هذه المرة فهو يعلم أنه لا مفر.

- أنت الخائن؟ نعم أنتما توأم تشبهان بعضكما بعضاً.. قتلك بدوي ابن العائلة وصرت تعيش داخل كيانه.. كيف تفعل ذلك به؟ أنت أحمق.

- لم أقصد أي شيء مما حدث.

- سوف تموت..

- أحاول الهرب ولا أعلم الكيفية وكل شيء من حولي يسير بسرعة مطلقة، أنا خائف، ولكنني لم أقصد كل هذا.

- لا يمكن الهرب من العائلة أبدًا.. اقتحم قارون الغرفة وهو ينظر إلى جعفر الدامعة عيناه بدهشة بالغة، نظر جعفر إليه وهو لا يعلم ماذا يفعل الآن، الأمور تعقدت للغاية فكاد أن يتكلم محاولا تبرير أي شيء، ولكن قال قارون:

- أنت خدعتني!

لم يفكر جعفر هذه المرة وتحرك بداخله غريزة البقاء فسحب سكينًا من طبق الفاكهة، وهبط بها على قارون وشق صدره بعنف شديد ثم سحبها وهو يعلم أن أسماء أيضا يجب أن تلحق بزوجها، فقالت الأخيرة:

- ماذا فعلت!

زفر جعفر بغضب وعلم أنه لا بد أن يكمل فعلته مثلما فعل من قبل ويقتل أسماء كما قتل زوجة أخيه بدوي، ولكن هذه المرة سوف يكشف أمره لا محالة فالتشابه بينه وبين أخيه أنقذه مرة، ولكن هنا لا مجال للهروب، هناك شهود والعائلة كلها تعلم أنه هنا اليوم فجأة زغردت أسماء وهللت بسعادة بالغة:

- مات أبونا.. مات الملعون!

تعجب جعفر من كلمات السيدة وسألها وهو يكتم فمها حتى لا تجذب عيون المارة.

-٦-

صحف العربي المجنون

المجلد السادس

من صفحة ٥٨٣ إلى ٥٨٥

المعلم كاو

لا أزال لا أعلم كيف بدأ ذلك النسل الملعون في التناسل والتكاثر ولا مصدر تلك اللعنة التي أصابتهم ولكن تأكدت أخيرًا من وجودهم، ولكن بقي السؤال: إلى أي شيء يخططون؟ ولماذا أصبح سيرتهم تنتشر سريعًا داخل أرض الأهرامات؟ أخبرني سنفر في نهاية حوارنا أنه تتبع الكثير من مصاصي الدماء محاولا التحدث معهم وقهم أفكارهم وسر تواجدهم في الحياة وأنه توجد طريقة للتخلص من تلك اللعنة. ولكنه لم يصل إلى شيء محدد سوى أن أعمارهم أطول من اللازم وحرارة الشمس تحرق أكثر من اللازم والكتاب أخطر عدو يهابه مصاصي الدماء والفضة تسبب لهم الاختناق.

ذهبت إلى الميناء المهجور الذي أخبرني عنه سنقر لعلني أجد دليلًا هناك. وحرصت على أن تكون جميع تحركاتي تحت أشعة الشمس حتى أتجنب أي هجوم مباغت من تلك الكائنات المخيفة وكان الأمر أسهل مما توقعت فوجدت داخل البيت المهجور ثلاثة من مصاصي الدماء في حالة ثبات عميق، دلفت نحوهم ونظرت لهم عن كتب فرأيت أنف أحدهم تتحرك كأنها تشتم رائحة دمائي، بسرعة تحركت نحو الخارج ووقفت تحت ضوء الشمس ورأيتهم يستيقظون واحدا تلو الآخر، كانوا

رجلاً وسيدتين، من المحتمل أن يكونوا جميعًا في منتصف العمر تقدم الرجل الذي علمت لاحقًا أن اسمه سالكا وقال بلهجة غريبة وصوت مختلف عن جميع أهل البلاد:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟

نظرت لهم لحظات ثم قلت:

- جئت في تقصي أمر الملعونين الذين يقتلون المصريين ليلًا.

- لا تقتل سوى المعتديين على بيوتنا إنها ليست بيوتكم وليست أرضكم.

- نحن القدماء وأول من سكن تلك الأرض، أنتم مجرد غزاة.

- لا يهم ذلك الآن أنا معي أمر من الفرعون والكاهن الأكبر بضرورة التخلص منكم.

تراجعت السيدتان إلى الخلف واختبأتا أكثر في الظلام بينما تقدم سانكا أكثر ووقف على حافة الضوء وأضاف:

- انت كنت شجاعًا عندما احتميت في الشمس ولكننا نعلم من هو الأقوى في الظلام.

لم أهتم بكلمات الرجل وأخرجت قوسًا وعدة أسهم من ظهره ثم قمت التصويب ناحية سانكا الذي وقف متحديًا شجاعًا، وأطلقت السهم فمر بجوار مصاص الدماء. ولكنه اخترق نافذة خشبية في نهاية البيت وحطمها ومر شعاع ضوء قوي هبط مباشرة على يد إحدى السيدتين، فأحرق بشرتها في الحال فصرخت السيدة وهرولت بعيدا عن الأشعة

الحارقة وهي تصرخ بألم شديد. نظر سانكا إلى السيدة المتألمة بقلق، ثم عاد ببصره نحوي:

- يجب أن تتوقف الآن.

- أنتم قتلتم اثني عشر مواطنًا من شعبي!

- صدقني حينما تأتي رغبة شرب الدماء لا نستطيع السيطرة عليها، لا تأخذ الأمر نحو محمل شخصي.

أخرجت سهمًا آخر وصوبته ناحية نافذة خشبية أخرى وقلت قبل أن أطلق سهمي.

- أنت أيضًا لا تأخذ الأمر نحو محمل شخصي أنا أحمي شعبي من كائنات مفترسة لا تسيطر على شهواتها.

استمر الأمر على ذلك النحو من ناحية تتوسل مصاصي الدماء حتى أتركهم. ولكنني كنت أصر على التخلص منهم وكيف لا أفعل وهؤلاء القوم قتلوا خمسة من العقارب وستة من الجنود وكتيبة كاملة، خلاف أناس من الشعب وعدة أطفال وسيدتين كان لا بد من التدخل ووضع حد لتلك الظاهرة المخيمة وتحرير أرضا من هؤلاء الشياطين.

انتهى الأمر بموت الثلاثة فقد رأيتهم يحترقون أمام عيني وبالرغم من أن الستين مرت لكن هؤلاء القوم لا أزال أراهم في أحلامي ليلة بعد ليلة كانني أعلم أنه بالرغم من تورطهم في العديد من الجرائم فإن الأمر كان خارج إرادتهم.

على أية حال أنا لست نادمًا على قتل مصاصي الدماء.. أنا عقرب من المعبد الكبير والجميع يعلم أن على العقارب اتخاذ بعض القرارات الخطيرة والحرجة في أوقات الأزمة...

أنا قتلت سانكا والسيدتين وأيضًا سنفر لم يسلم من قبضتي.

ولست نادمًا ...

-٧-

صحف العربي المجنون

المجلد السابع عشر

من صفحة ١٣٩ إلى ١٤٣

المحروسة - يناير ١٨٠٠

في الاجتماع الثالث والأخير والحتمي في حياة تلك العائلة الملعونة بكيانها العربي، التقوا كعادتهم حول طاولة ترتجف أبدانهم وتفكر عقولهم ما بين رغبات في الوعود والثراء والنفوذ وبين الخوف من قبضة العضو مائة وعشرين الفتاكة. وصل جعفر مرتديًا رداء الأب هذه المرة ووضع القناع متمنيًا لو أنه يوجد مثله ليتغير صوته حتى لا يُكشف أمره ولكن العلم لم يوجد لذلك بعد، على يمين جعفر جلس مائة وعشرون وأخذ يصب الخمور المسمومة للجميع ولكنه لم يضع لنفسه كوتا مثل الباقيين هنا قال جعفر محاولا اختصار الكلمات قدر الإمكان حتى لا يُكشف الأمر.

- ضع لنفسك...

تردد مائة وعشرون لحظة فشك جعفر أن الملعون الضخم لاحظ تغيير الصوت فانتفض قلبه وأخذ يخفق بقوة وكاد أن يقفز من صدره رعنا وذعرًا ولكنه تماسك على أية حال، ولم يحاول قول المزيد فقال مئة وعشرون

- بالتأكيد يا سيدي بكل تأكيد.

شرب ذلك الضخم شراب السم فاطمأن جعفر وعلم أنه على وشك أن يصنع التاريخ ويدمر عائلة الشيطان كلها، نظر لكل الأعضاء وأشار إليهم أن يشربوا أقداحهم وبالفعل نفذوا الأمر، ابتسم الرجل ولكن القناع أخفى ابتسامته وظل الصمت يعم المكان دقيقتين بدأت فيهم الأعراض تظهر على بعض الأبناء مازال جعفر قناعه وألقى به على الأرض وهنا فهم مائة وعشرون ما حدث مازال هو أيضًا قناعه وقال:

- هذا كاذب، لقد قتلنا جميعًا.

ابتسم جعفر ولم يرد وزادت الأعراض القائلة على جميع الحاضرين فمنهم من بدأ يتساقط ومنهم من يتقيأ على الأرض وآخرون يتحسسون صدورهم المتأملة، همهم مائة وعشرون وهو ينظر إلى الأرض:

- كيف حدث هذا؟ ليس من المفترض أن تنتهي الأمور بتلك الصورة كيف لذلك الأحمق أن يخدعنا

نهض مائة وعشرون بما لديه من بقايا قوة وحاول إمساك رقبة جعفر، ولكن الأخير دفعه بعيدًا فسقط مائة وعشرون أرضًا تتلاحق أنفاسه بقوة وينظر إلى السقف ويتمنى لو تحطم وهبط ليقضي عليه ويخلصه من ذلك الألم العنيف مرت دقائق أخرى وبعدها كانوا جميع أعضاء العائلة الأولى موتى.

عاد جعفر ليلًا إلى أسماء وطرق دارها ثلاثًا، ولكنها لم تفتح له سريعاً، فهم بالرحيل وحينما ابتعد عن بابها أربع خطوات سمع صوت بابها يفتح التفت ونظر إليها فوجدها واقفة مستورة الجسد للمرة الأولى وسألته في لهفة:

- فعلتها؟

منذ الصباح وهي تشعر أن جعفر نجح في مهمته خصوصا أن لم يأت لها أي أحد من أبناء العائلة ليقضي معها وقتًا مثلما يحدث بشكل يومي، قال جعفر بلسان شارد:

- فعلتها وسقطت العائلة، رأيتهم كلهم يموتون وظللت جوارهم حتى غادرت كل الأرواح واتخذت طريقها إلى جحيم الله لعنة الله عليهم جميعًا.. لعنة الله عليكم...

دخلت أسماء بيتها وتركت بابها مفتوحًا ففهم جعفر التلميح ودلف خلفها وفي الداخل قالت السيدة وهي تشرب من قنينة ماء:

- سقط فرع من فروع العائلة، ولكن البقية صامدة وجذورها في أسفل السافلين. العائلة بدأت منذ مئات السنوات الحرب لم تنته مع العائلة، بل بدأت فقط وأنت يا جعفر صرت مؤسس المقاومة، ولكن لا تنس الأصليون مازالوا أحرارًا بعد. ولكن من حسن الحظ أنهم لا يظهرون إلا ليلًا. اجعل دومًا ضوء الشمس مسلطًا عليك حتى تحتمي منهم، فلو اقتربوا منك لن يتركوا قطرة دماء واحدة في أوردتك.

منحت أسماء قدح مياه إلى جعفر فأخذه وهمهم:

- ماذا تقصدين بالمقاومة وأن الحرب لم تنته بعد؟ ومن يكون الأصليون؟ كما لَم ولن أكون مؤسسا لجماعات مهووسة بالقتل والاغتيالات أنا انتهيت من تلك اللعبة إلى الأبد.

اومأت أسماء في تفهم واخذت كوب المياه من يد جعفر ثم اقتربت منه بشدة، وقالت هي تنظر في عينيه:

- العائلة لن تصمت وبالتأكيد سوف تحاول الثأر على ما حدث وستحاول الانتقام من الشيح الذي دمر أعضاءها. أنت شبح العائلة الذي سوف يقبع في الظلال وينتظر اللحظة المناسبة لينهض وينقض عليها.. أنت فارس الليل وسيف الله الذي نصرت كلمته على أبناء الشيطان.

علم جعفر أنه لا مقر من المستقبل المظلم. ولكن لوهلة شعر أنه ليس بكاتف من المجهول كعادته كأن ما حدث غير في روحه فصار أقوى حتى الموت نفسه لم يعد يهابه:

- لا يهم سوف أكون شهيدًا. الله يعلم أنني فعلت كل شيء من أجله، لم أعد أهتم فليقض الله أمرًا كان مفعولاً.

شعرت أسماء أن كلمات جعفر لا تحمل الشجاعة للمواجهة، ولكنها فقط مجرد الشجاعة للاستسلام وتقبل الموت وهذا لم تكن تريده مطلقا في تلك اللحظة الحرجة.

- هذا خطأ لا يمكنك الاستسلام الآن. جميل أن تطمح إلى الشهادة ولكن توقيتك خطأ، دورك ورسالتك لم ينتهيا بعد لا يمكن لرسول الانسحاب من مهمته في منتصفها، العائلة ستكون مرتبكة حاليا وهذا أفضل وقت للقضاء عليها كلها، أرجوك لا تضيع تلك الفرصة من أيدينا.

كلمات أسماء مدقة. ولكنها رأيها خطير، شعر جعفر بقليل من التوتر والارهاق فتساءل بعدم فهم:

- ماذا تريدين مني؟

أجابت أسماء وهي تضع يدها على خد جعفر:

- يجب أن تكمل الرحلة، ونفشي الطاعون في كل فرد من أفراد العائلة من الأقصى الأدنى يا أخي.. من الأقصى إلى الأدنى.

أمسك جعفر يد أسماء وأبعدها عنه، وشرع في الرحيل من البيت قائلاً:

- هذه الحرب أكبر مني ومنك أيضًا، أعتذر منك يا أسماء أنا سأنسحب من أي صراعات قادمة وإن جاءني الموت فأنا مرحب به والله يعلم أنني حاولت تغيير كل شيء وحققت ولو القليل....

قالت أسماء يصوت بائس وهي تعلم أن كلماتها لم تشكل فارق مع جعفر فمن الواضح أنه اتخذ قراره بشكل نهائي:

- سقوط الأعضاء هنا أيضًا كان أكبر منك ولكنك فعلتها الرب اختارك حتى تدمر أبناء الشيطان.. أتمنى أن تغير رأيك يا أخي.. على أي حال اشكرك لأنك حيرت أسري من قبضة قارون بالمناسبة لم يكن زوجي.. بل كنت أسيرة.

همهم جعفر دون أن ينظر إليها:

- أعلم.

***

-٨-

صحف العربي المجنون

المجلد التاسع

من صفحة ١٢٨ إلى ١٣٠

برديات ارم

لا أصدق أنهم تركوني بعدما أشرقت الشمس ولم تحرقني!

قابلتُ الساحرة أو شاربة الدماء من جديد ولكن هذه المرة في كوخ صغير مهجور على أطراف إحدى القرى قبل ذلك اللقاء عدت إلى المعبد الكبير واقتحمت الأرشيف، وقرأتُ الكثير عن رحلات كاو وصدامه مع مصاصي الدماء، كاو المعلم كان يرى أنه لا بد أنه إن رأيت مصاص دماء فيجب قتله والتخلص منه نهائيا وحرقه تحت أشعة الشمس حتى أنه قتل سنفر شخصيًا وهو الكاشف لأسرار مصاصين الدماء.

ذهبت إلى شارية الدماء وهدفي كله منصب على إحراقها جزاء ما فعلته للسيدة. العجوز، كنت خائفة أن يتأخر اللقاء وتأتي بعد الغروب ولكن الأقدار كانت رؤوفًا بي، وحينما اقتحمت البيت كانت هي بالداخل تنتظرني.

توقعت أنني لن أراك سوى ليلا.

ضحكت السيدة وسخرت مني قائلة:

- هذا لأنني من مصاصي الدماء صحيح؟

اومأت لها، وبسرعة هجمت عليها ودفعتها نحو الخارج، ولكن المفاجأة أن الشمس لم تحرقها كما كان من المفترض. لم أكن أفهم ما الذي يحدث بحق الجحيم والآلهة نهضت السيدة من الوحل وهي تضحك:

- أنا لست منهم أيتها الحمقاء.. أنا الطرف الآخر من المعادلة.

- لا أفهم من تكونين بحق الجحيم ؟

- أنا الملعونة من القمر وليس الشمس.. أنا مذؤوبة!

لم أكن أفهم ماذا تقصد ولكن قلبي انقبض كثيرًا لتلك المفاجأة. فقد قرأت في برديات كاو أن أكثر ما يخشاه مصاصو الدماء هي الخلاب ولكن من يكون المذؤوبين؟

- أجلسي يا ارم وسوف أخبركِ كل شيء.

جلستُ ونظرت لها فقالت:

- قبل ألف عام أو ربما أكثر جاءنا رجل أخبرنا أن خالق الكون أرسله إلينا حتى تؤمن به. ولكننا كذبنا بالأمر فأعنا، نصفنا صار ملعونا من الشمس والنصف الآخر ملعونا من القمر.. مسوخ الشمس يحترقون في وجودها ومسوخ القمر يتحولون إلى كتاب في ضوء القمر، كما دبت بيننا الفتنة فصرنا أعداء على مر العصور والتاريخ. لن أحكي لكِ الكثير عن تاريخنا، بل سأكتفي بالتفاصيل التي أوصلتنا إلى تلك النتيجة الآن.

اومأت لها دون رد فأردفت:

- مصاصو الدماء كانوا أذكياء وحولوا لعنتهم إلى هبة وصاروا يشربون الدماء ويختبئون نهارًا ويكونون مجتمعات صغيرة داخل كل بلد وكل

قرية. وسرعان ما حاولوا التواصل مع بعضهم البعض خارج الحدود حتى صار مجتمع مصاصي الدماء ضخمًا وهائلًا لا يعترف بالحدود والبلاد كما وصفوا أنفسهم بالأصليين... أي أنهم النوع الأصيل من البشر المتطور المتميز الخارق الذي يمتد عمره لأضعاف عمر البشر ولكن على الجانب الآخر نحن الذئاب كنا واقعيين وتعلم أن ما تمر به هي لعنة جاءت. بسبب غضب الآلهة علينا لا أكثر من ذلك. أغلبنا استسلم وقتل نفسه لأنه لم يتحمل الألم كل ليلة وهو يتحول إلى ذنب.. مؤخرًا علمت أن مصاصي الدماء يريدون اقتحام القصر الفرعوني وكذلك المعبد الكبير، وقتل كل العقارب جراء ما فعله كاو قبل أعوام حينما قتل ثلاثة منهم، فحاولت التدخل ومنع ذلك وقتلهم جميعًا في القرية بعدما قتلوا هم السيدة العجوز.

- ولكنني لم أرَ أي جثث حينها.

- لأنني دفنتها جميعًا بعدما غرست في قلوبهم كلهم رماح خشبية...

- ولكن هذا مستحيل، أنت واحدة فقط وهم كثيرون من المحال أن تستطيعي قتلهم جميعًا، كما أنه لو كان الاجتماع بين مصاصي الدماء قد تم ليلا معنى ذلك أنك كنت مذؤوبة، فكيف غرست الرماح بهم ؟

- جعلت السيدة العجوز تأكل قطع صغيرة من الفضة دون أن تدري ثم ألقيت بها في طريقهم حتى يشربون دمائها فضعفت أجسادهم وصاروا لا يستطيعون. التنفس وسقطوا جميعًا داخل البيت قرب الفجر وقبل أن تأتي أنت إلى البيت كنت تحررت من لعنة الذئاب وعدت إلى حالتي الطبيعية وحينها ركضت ناحية البيت واقتحمته ومعي الرماح وفعلت ما أخبرتك به ثم حرصت على دفنهم جميعًا في مقبرة بالقرب من القرية وبعدها ظهرت أنت وبالتأكيد تعلمين البقية...

- لا تحاولين إظهار نفسك الطرف الطيب في الحكاية أنتِ قتلتِ السيدة العجوز أو كنت السبب الرئيس في ذلك!

- كل ما في الأمر أنها كانت سيدة عجوز اقتربت من الموت بالتضحية في سبيل التخلص من عشرة مصاصي دماء يريدون هدم المعبد والقصر الفرعوني.. وقبل أن تسأليني كنت اظنك منهم فأردت أن يقتلك الشعب بشكل دراميّ ولكن حمدًا للآلهة كنتِ مجرد بشرية!

***

القسم الثالث

نعم أنا لا أموت!

١

العضو رقم ٢٠

الآن سنأخذ منعطفًا آخر في حكايتنا، وسوف نعلم أكثر عن فريدة تلك الطبيبة التي تركت روحها أسيرة بين مشكلات البشر وأزماتهم وحملت على عاتقها مسئولية البحث عن خلاصهم، تساعد الجميع وهي الأكثر احتياجا وتبحث عن السلام النفسي لمرضاها وهي تفتقده، تخبر الجميع بضرورة البحث عن الرفقة وهي تعيش حياتها دومًا في وحدة.

بعد أسبوعين سوف تكمل السيدة أربعين عاما مع خبرة دامت عشرة أعوام في ممارسة عملها على مختلف مناصبه وتدرجاته، بجانب أنها مديرة لأحد المستشفيات الحكومية الكبرى التابعة للأمانة العامة للصحة النفسية بإحدى المحافظات الساحلية، كما أنها شريكة في مستشفى خاص ولها أكثر من ثلاث عيادات خاصة يعمل فيها فريق ضخم من أكفأ الأطباء الشباب، ينفذون خريطة علاجها بحزم شديد، وأيضا تمتلك مقرين لاحتجاز المساكين وعلاجهم، أولئك الذين سقطوا في أسر إدمان المواد المخدرة والذين يعانون من حالات نفسية متطورة وميؤوس من علاجها، وسبق استضافتها عدة مرات في برامج تليفزيونية تتحدث عن الطب النفسي وضرورة زيارة الأطباء من آن لآخر بحثا عن المساعدة، فريدة كانت تعيش مرحلة شديدة النجاح في حياتها العملية وبدأ ذلك التطور العملي حينها أقنعت نفسها أنه كلما ضاقت الحياة عليها فلا مفر من الضيق سوى بالعمل والمزيد من النجاح وجني الكثير

من الأموال، فكلما ضاقت الحياة كان لها النجاح المدوي على كل الأصعدة ويذكر أيضا أنه يوجد عدد لا بأس به من المشاهير وصفوة المجتمع يزورون الطبيبة من وقت لآخر، حتى أنها أشرفت بنفسها على علاج ابنة أحد المخرجين السينمائيين التي سقطت في أسر الكحوليات وساعدت في علاجها بسرية تامة ولكن الطبيبة لم تبدأ حياتها بهذا الشكل.

في الخامسة والعشرين من عمرها كانت مجرد طبيبة تعمل في مصحة نفسية متواضعة، تقدم خدمة علاجية يسيرة مقابل أجر زهيد لا يكفي انتقالاتها، ولكن زوجها في ذلك الحين كان شخص يعيش زهوا مختلفا عنها فقد كان مميزا دوفا بحسن الطلعة وذكاء العقل، وأنه حاد النظرة، ويعلم إلى أين يريد الذهاب، عيناه على النجاح والتألق والرفاهية ولا يشتت عنها، يتطلع إلى مستقبل أفضل، أو يتطلع إلى المستقبل الأعظم الذي لم يحققه أحد من قبل، حينما باغتته فريدة بحملها الأول شعر الزوج بالقلق الشديد وخشي أن يعطل ذلك الطفل مسيرته وتحركاته فعرض على زوجته التخلص من الجنين، ولكنها رفضت بشدة، ووضعت زواجها بالكامل مقابل ذلك الطفل، فتراجع الرجل وتقبل الأمر في النهاية، وضعت طفلها بعد سبع شهور فأتى ضعيفا هزيلا يعاني من ثقب في قلبه الصغير، فشعر الزوج بالخوف الشديد وهو يرى أن مستقبله ينهار وأن ذلك الطفل المريض سوف يحطم كل آماله وأن عمله مهندسا في ذلك البلد لن يمنحه الكثير من الأمل في مستقبل واضح المعالم، فكر في إلقاء اللوم كله على زوجته، ولكنه علم أن التصادم معها لن يحل الأمور ولن يزيدها سوى سوء فقط، فلم يكن أمامه سوى التفكير في الهجرة والابتعاد نحو عالم جديد.

حينما عاد ذات ليلة شتوية باردة وضع زوجته في فراشها ومارس معها الحب وبعقل شارد مشتت شعرت هي به وتألمت لأن زوجها لا يمر عليه يومًا إلا ويتغير به شيء قليلًا، ويتحول تدريجيا نحو شخص آخر، شخص لا تعرفه، انتهى منها وجلس بجوارها وأشعل سيجارته وهمس في أذنيها بعدما قبلها مرتين.

- يوجد أمر مهم أريد أن نتحدث فيه معا، أمر سوف يسعدك بكل تأكيد وأعتقد أن كل خلافتنا سوف تحل معه.

يعلم الزوج أن فريدة ليست بالسيدة الجامحة المتطلعة نحو مستقبل مختلف ولا هي المهوسة التي تعشق السفر وجنونه، بل هي تحب الاستقرار والحياة البسيطة والأجواء الأسرية الدافئة الخالية من أي تقلبات سواء كانت جيدة أم سيئة، بالرغم من معرفة محسن بفريدة لكنه لم يعلم الرجل أن رد فعلها سيكون مبالغاً ومختلفاً تماماً عما يظنه وينتظره.

أخبرها أنه حان وقت الرحيل من ذلك العالم إلى أرض جديدة حيث الحرية والراحة المادية والمستقبل الباهر الواعد، أخبرها أنه سأم من بلاد الواسطة والمحسوبية والعلاقات وعدم توافق الفرص وأنه يتطلع إلى أرض عنوانها القانون والمساواة، وهنا صعقت فريدة من كلمات زوجها الحالم وسبق لسانها عقلها وقالت بصوت مرتفع غاضب:

- نسافر؟ لا، لا، لا أستطيع فعل ذلك.. كيف لي العيش في مجتمع أجنبي لا يتحدث لغتنا ولا يرتدي مثلنا ولا يأكل مثلما نأكل؟ وماذا عن أهلنا وأصدقائنا، أنا لن أستطيع العمل هناك، مهاراتي لن تؤهلني للعمل معهم، أنا نسيت كل شيء عن الطب، لا أذكر منه سوى بعض المعلومات الزهيدة التي أتعامل بها في تلك المصحة الفقيرة.. بالله عليك

يا رجل كف عن ذلك الحديث، ودعنا نفكر في حلول بديلة.. يمكنني أن أطلب منهم العمل لساعات إضافية ويمكنك أخذ كل راتبي حتى يساعدك في إدارة شئون بيتنا.. أعلم أن الأمور ضاقت عليك وأنك غاضب مما يحدث، وأنا أيضًا حاولت كثيرًا الوقوف ضدك وترك المسئولية كلها لك.. يمكننا أن نبدأ من جديد، ولكن هنا يا رجل.. هنا بالله عليك.

تتحدث بسرعة وبلسان خائف مذعور، القلق يسيطر عليها ولا تطيق أن تسمع زوجها يخبرها أنه نوى تغيير كل شيء يحيط بها، كان من المفترض أن يقترب منها ويقبلها الآن ويخبرها أن كل شيء على ما يرام ثم يبدأ في تمهيد فكرة الهجرة تدريجيا، بالرغم أن محسن يعلم كل شيء عن زوجته لكنه كان يجهل أمرا ما مهما جدًا في تلك اللحظات وهو كيفية إدارة غضب زوجته وخوفها وقلقها.

نهض الرجل من فراشه غاضبًا، أطفأ سيجارته بغضب وأضاء الغرفة ثم جلس على طرف مضجعه ينظر إلى الأرض وهو يكاد لا يصدق ما سمعه للتو من تلك السيدة الحمقاء، اقتربت فريدة منه فبدا حزينا ويائسا للغاية، ربتت على كتفه وقالت له من جديد:

- بربك يا رجل دعنا ننش تلك الأفكار ودعنا ننم في هدوء.. الغربة قاسية وثمنها غال للغاية وأشك في قدرتي وقدرتك على دفع ذلك الثمن.

استشاط الرجل غضباً هذه المرة ولم يعد يتحمل كتمان ما بداخله من ألم فصاح بصوت جهور اخترق الجدران، وكاد أن يشق السماء وهو يشير نحو رضيعه النائم الذي استيقظ على صوت أبيه صارخًا باكيًا.

أي نوم تتحدثين عنه! كيف بالأساس تكونين بتلك السلبية والأنانية! يجب أن أي نهاجر حتى نوفر لذلك الرضيع مستقبل أفضل، كل يوم التضخم يزيد وقيمة رواتبنا تقل يوميا، إن بقي الأمر هكذا لن نستطع دفع فواتير الكهرباء والمياه..

صمت السيدة تمامًا وشعرت كأن أحدا سحب روحها من جسدها.. نهضت وجلست على الطرف الآخر من الفراش وظلت تحاول تنظيم تنفسها خشية أن تسقط بين ثنايا نوبة فزع قاسية، علم الزوج أن فريدة تصارع مشاعرها الغاضبة وأدرك تماما أنه لا بد من تهدئة غضبه الآن فقال سريعًا وهو يقترب منها محاولا تلطيف ما حدث.

- بالله عليك، يجب أن تفكري بشكل أبعد من ذلك.. ما نحن بصدده الآن فرصة يحلم بها الجميع.. أعلم أنك خائفة ولكنني لا أفهم لماذا؟ الوطن ليس بالأرض والمكان ولا اللغات، الوطن هو أسرتك، طالما أنا موجود وذلك الصغير الرضيع الجميل فهذا هو عالمك لا يمكنك الاشتياق إلى شيء آخر.. كيف تريدين وطنًا وأرضًا باعت أحلامك وألقت بك في وحدة صحية فقيرة ومع راتب لا يكفي لشراء قطعتين ملابس!

كتمت فريدة غضبها وحاولت ألا تفاقم الأزمة بينها وبين زوجها الغاضب، فنظرت له وقالت بصوت اجتهدت فيه كثيرًا حتى يخرج منها بتلك النبرة الهادئة:

- في الخارج سوف أعيش كالأسيرة بين أربعة حوائط وأنت سوف تقضي أيامك ولياليك في العمل، سوف أعيش وحدي مع ذلك الرضيع كخادمة ترعاه ليل نهار.. أنت سوف تبني نفسك وتتقدم كل يوم عن الآخر وأنا سأنهار وأفقد كل شيء وذلك الرضيع الذي تتحدث نيابة عنه سوف يكبر ويجد نفسه وسط مجتمع مختلف ثقافيًا ومجتمعيا عنا وليس بالبعيد

أن يتركنا ويرحل وهو مراهق ابن السادسة عشر ومحتمل أصغر من ذلك.. يجب أن تعيد مراجعة نفسك، فأنا لست الأنانية الوحيدة هنا!

الرجل لا يسمع زوجته، لا يرى أمامه سوى أحلام الغرب وألوان عملاتهم وسعر صرفها، ويظن بسذاجة سهولة حياتهم وبساطتها ويعتقد أن النجاح ينتظره هناك خارج مطار بلادهم، وكأن الجميع يريده، كانت الأنا عالية للغاية عند محسن فأجابها بإصرار وعناد شديدين:

- يا فريدة، يا حبيبتي، افهمي أرجوك، حاولي تشغيل أي خلايا من عقلك وفكري بمنطق سليم ولو لمرة واحدة في حياتك.. هناك المستقبل.. مجتمع مختلف عادل.. سوف يعيش ذلك الطفل مع بشر أسوياء بدلا من ذلك المجتمع المتنمر المريض. بربك كم عدد الأطفال التي تعالجينها لذهاب عقولهم من كم الضغط الممارس عليهم؟ أتعلمين عدد الأميين هنا؟

- وما علاقتنا نحن بالأمية؟ ابننا سوف يتعلم وسيحيا إنسانا سويا، حتى لو كانت البيئة المحيطة به تحتوي على القليل من الممارسات السيئة.

قال محسن ساخرا:

- القليل من الممارسات السيئة؟

اومأت فريدة وأدركت أنه لا طائل ولا فائدة من تلك المحادثة وأن زوجها يصر بشدة على قرار رحيله، وعلمت أن لا فرصة لتجنب الصدام وتفاقم الأمور، فقالت بإصرار موازيا إصراره العنيد:

- أنا لن أستطيع ترك كل شيء هنا والرحيل.. إن كنت مصممًا على الذهاب فسوف تكون وحدك، أنا وابنك لن نكون معك في تلك الرحلة القاسية.

صُعق من كلماتها القاسية فنظر لها طويلا وسألها بدهشة:

- يا إلهي كيف تفعلين ذلك؟ أنت تدمرين أسرتنا!

- هذا نهاية الحديث بيننا.. فكر مرة أخيرة، وإن وجدت صعوبة في الاختيار بيننا سافر وارحل لأننا... أنا وابنك أقصد... حينها لا نريدك في حياتنا.

صمت الثنائي وشعر الرجل أن هناك من يحاول سلب حلمه فقال مهددا زوجته:

- سوف أرحل يا فريدة!

نهضت فريدة وتركت الغرفة وهي تقول:

- افعل ما شئت، ولكنك سوف تطلقني قبل أن تذهب.

لم تكن تتخيل فريدة أن العش الجميل من الممكن أن يتهدم في لحظة واحدة، وأن صداقا بسيطا في الآراء كاف لنهاية رحلة الزواج السعيد، بالرغم من أن زواج الثنائي لم يكن مثاليا لكنها اعتادت كل شيء حتى برود زوجها في بعض الأوقات أو مغازلته لأخرى ظنا منه أن فريدة لا تلاحظ ذلك، وبالتأكيد الرضيع الجديد لعب دوراً هاماً في الحفاظ على الميثاق بينهما.

لم يفكر الرجل طويلاً وفي ظل أسابيع قصيرة كان في المطار مغادرا البلاد وتاركا زوجته مع ورقة طلاقها وكذلك الطفل الرضيع، تخلى عن كل شيء وذهب إلى أرض الأحلام كما يظنها هو، ولكنه لم يكن يعلم أنه لا يفعل شيء سوى أنه يدق مسمارًا أخيرا في نعش حياته الحالمة، وبداية طريق سوف ينهي حياته خلال سنوات بسيطة قادمة.

مرّ عام انقطعت أخبار الرجل ثم مرت خمسة أعوام أخرى بعدها ظهر الزوج من جديد عائدا من الخارج حاملا الكثير من الأموال والأشياء. لم يعد يرتدي ملابس من الأسواق المحلية كما اعتاد ذلك في شبابه وصباه، بل اتخذ من الماركات العالمية هدفا وشغفا له وصار يجمعها جمع العملات النادرة للهواة، جاء وحاول التواصل مع فريدة من جديد في البداية رفضت السيدة المقابلة، ولكنه أرسل صديقا قديما إليها وسيطا عارضا عليها التصالح وعودة الأجواء القديمة إلى أوضاعها الطبيعية، فوافقت على مضض مقابلة شريك حياتها القديم، ولكنها أخبرت الوسيط ألا ينتظر طليقها أي وعود منها فوافق الأخير على ذلك.

لم يكن المحرك الوحيد الذي جعلها توافق على تلك المقابلة هي إصرار محسن على ذلك، بل الفضول الذي كان يقتلها قتلا حتى تفهم كيف نجح الرجل في الخارج بتلك الصورة، لم تشكك دومًا في قدراته وبراعته، ولكنها لم تتخيل أنه سوف يجد الحظ والتوفيق هكذا في الخارج، كانت تشعر بضيق شديد أن محسن كان على حق وأن النجاح لا يوجد سوى في العالم الغربي، وهنا سيطر عليها قليل من مشاعر الندم على معارضته لها في الماضي خاصة حينما فكرت بما آلت إليه من حياة فقيرة روتينية ومملة لعب فيها الاكتئاب ونوبات الفزع دورا فعالا للغاية.

اجتمع الثنائي في أحد المطاعم الفخمة التابعة لفندق من ذوي الخمس نجوم، جلست فريدة أمام زوجها السابق، تأمل كل منهما الآخر، وداعبت الذكريات عقليهما، قطع الصمت الطويل نادل المكان.

- هل تأمر بشيء يا سيد محسن؟

سيد محسن! تعجبت فريدة من الاحترام الزائد الذي يتلقاه زوجها، وتعجبت أكثر من ذلك المكان الذي لم تحلم أن تجلس فيه من قبل، فهي تعلم أن فاتورة عشاء واحدة هنا كافية أن تقضي على راتب فوق راتبها. نظر محسن إلى طليقته، وقال بفخر:

- ماذا تريدين؟ هل تحبين أن يحضروا لك كل شيء في قائمتهم؟

لم تشعر بالضيق من محسن ومن نبرة صوته الساخرة وترددت لأنها لا تعلم ماذا تطلب، فقال محسن إلى النادل:

- هل تحضر لنا قائمة طعامكم؟

أومأ الجرسون ورحل في الحال، لحظات وعاد ومعه قائمة الطعام، وضع واحدة أمام فريدة والأخرى أمام محسن ثم رحل من جديد، قالت فريدة هذه المرة:

- سعيدة من أجلك، من الواضح أنك حققت ما حلمت به في سفرك.. يا إلهي لا أصدق ما أراه أمام عيني، أنت نجحت يا رجل.. نجحت للغاية ما شاء الله، أنا لا أحسد، أنا منبهرة لا أكثر.

ابتسم محسن في ثقة، ثم قال:

- ولكن السعادة ليست مالًا وحسب.. لا يزال ينقصني الكثير! حينما حصلت على المال علمت أن المعرفة أثمن بكثير من النقود.

لم تفهم فريدة كلمات محسن فسألت مازحة ومغيرة دفة كلماته الغامضة:

هل تزوجت من بعدي؟ أعلم أنك لا تستطيع الحياة من دون أنثى.

جاء رد محسن أكثر رومانسية مما توقعت:

- بحثتُ عنك في الجميع فلم أجد بداخلي سواك! الإناث في الغرب مختلفات، ولكنني عرفت الكثير بدون الشك وتذوقت البعض.

احمرت وجنتي السيدة وحاولت النظر في قائمة الطعام حتى تتجنب تلاقي الأعين فسأل محسن:

- أين الفتى الصغير؟ أين ابننا؟ خمس سنوات يا إلهي! كم أشتاق إلى ذلك الجميل! أشكرك أنك أنشأت صفحة تواصل اجتماعي له ونشرت عليها الكثير من صوره، كنت أتابعها باشتياق شديد، كنتُ حزينًا لكوني بعيدا عنكما ولكن لم أستطع العودة إلا الآن.

تنهدت فريدة وأجابته:

- أردتُ أن أقابلك في المرة الأولى وحدنا.. أردت أن أعلم ما يدور بداخلك وأن نحاول رسم خارطة طريق لأسرتنا حتى لا يتأثر الولد بسبب انفصالنا.. محسن لا أريد أي صراعات بيننا في المستقبل بالتأكيد تعلمت التحضر من الغرب! الماضي ولى ولا نريد أن نعيده من جديد بأي شكل من الأشكال، أرجوك دعنا نفكر في المستقبل.

ضحك محسن ورفع يده إلى النادل ليأتي.

- لا يزال لسانك خارجا عن السيطرة.. تعلمت التحضر؟ ألم أكن متحضرا من قبل؟

شعرت فريدة بحرج شديد وقالت:

- أعتذر لم أقصد.. فعلًا لم أقصد.

- أعلم أنك لا تقصدين.. فقط أمزح معك.. أتعلمين أنني أشتاق إلى كلماتك الشاردة تلك.

جاء النادل وأخذ طلبات الثنائي ثم رحل سريعا، فقال محسن:

- أنا هنا من أجلك يا فريدة ولن أعود إلى ألمانيا إلا بك وبابني، ولو رفضت العودة معي فلن أسافر من جديد، وسأبقى معكما مهما كلفني الأمر!

عاشت فريدة ستة أعوام بائسة فقدت فيها أمها ثم أباها، وكادت أن تفقد ابنها في حادث سيارة لولا الأقدار كانت لطيفة بها. عاشت أياما من الفقر والذل وذاقت مرارة قاسية من الأيام كما أنها خسرت الكثير من الأصدقاء وتناولت العقاقير المهدئة للأعصاب.

صمتت لحظات تتذكر ذكريات الأعوام الستة العجاف ثم نظرت إلى محسن وقالت له:

- أنا موافقة على العودة إليك.. كما أنني أوافق على السفر.

نظر محسن إلى فريدة وهو لا يصدق ما تقوله. لم يكن يتوقع قط أن الأمر سوف يتم بهذه السرعة، اتسعت ابتسامته ثم صاح بصوت مرتفع غير مبال بالمكان، أو بجذب الأنظار كلها إليهما

- يا إلهي! يا إلهي! أنا لا أصدق هذا!

***

مرت مجموعة من الأسابيع وعاد الثنائي إلى سابق عهدهما معًا، حاول كل منهما تناسي ما فعله الآخر، كانت فريدة تحتاج إلى التعافي من قسوة الأيام، وكذلك محسن يريد كسر حاجز الوحدة والغربة، فوجد كل منهما ما يريده في الآخر وبعدما هبط الاثنان على أرض ألمانيا، ومرت عشرة أشهر كاملة حاول فيها محسن بكل الطرق كسب أقصى كم من المشاعر والحب من فريدة، كان ينفق أموالا طائلة لا حصر لها في إسعادها، وكان يمنحها هدايا بآلاف الدولارات، ولكن المشكلات عادت في الظهور من جديد، وذات ليلة باردة شعرت فيها فريدة بالوحدة الشديدة قالت لزوجها:

- هل بإمكانك أن تحبني أكثر هذه الليلة؟

اقترب فيها الزوج من زوجته واحتضنها وأجابها:

- أنا أحبك دوما.. هل هناك أي شيء أشتريه من أجلك؟

صمتت فريدة لحظات، ثم تنهدت وقالت:

- هذه هي المشكلة يا صديقي!

لم يفهم محسن الأمر فسأل:

- أي مشكلة؟

أجابت فريدة بصوت حزين وكلمات حذرة للغاية:

- أنت تنفق أموالا طائلة على أمور.. هذا جميل بكل تأكيد وأنا ممتنة لذلك.. ولكن لا أعلم لماذا أنا خائفة.. أمور كثيرة لا تستدعي كل تلك المصاريف. بربك يا رجل يجب أن تكون أكثر حرصا وخوفا من الزمان، طالما لم تكن تتصرف بتلك الجرأة.. أنا أحاول أن أكون أكثر لطفا معك وأتجنب الصدمات.. ولكنني خائفة من جرأتك.

كانا في تلك الاثناء يسيران في أحد شوارع برلين بعد التاسعة مساء حيث الجميع نيام ولا يشق الطرقات سواهما في ظلمات الليل. الهدوء موحش وبدت كلمات فريدة أكثر حدة مما عليه، لم يكن محسن يبالي بقلق زوجته ورد بنوع من اللطف المصطنع الذي اكتسبه في سنوات غربته:

- أنا أرى كل الكلمات التي تودين قولها في عينيك، ولكن أتفهم خوفك ومن هذا المنطق أود إخبارك أنني أقود الأمور بشكل جيد وأسيطر عليها، ومستقبلك أنت وابننا في أحسن حال ولا يوجد قوة على تلك الأرض تقدر على زعزعة حياتنا واستقرارنا، كلمات محسن حملت الكثير من الندية والتحدي، وهذا أبعد ما كانت تريده فريدة تلك الأوقات الحرجة، كانت تريده أن يخبرها ببساطة أنها تستحق أفضل حياة في وأو أن يخبرها بأنها أجمل سيدة خلقت في ذلك القرن، والنعيم لم يخلق إلا ليكون تحت قدميها.

- كلماتك وثقتك تشعرني بالخوف..

ضرب الرعد السماء وشق البرق الأجواء وسرعان ما تساقطت الأمطار بقوة نظر محسن إلى فريدة.

- غريب أمرك دوماً يا فريدة، كأنك تخشين السعادة والاستمتاع، يا ليت أحدا في حياتي يخبرني أن أفعل ما يحلو لي ويخبرني أنه يسيطر على كل شيء.

- الحياة علمتني أنها دار ابتلاء وأنت تتحدث كأننا في الجنة.. الأمور لا تسير بتلك الصورة دوما.

ابتسم محسن بسخرية وفتح مظلة واقترب من زوجته حتى يحميها من الأمطار.

- هم من أخبرونا بذلك يا عزيزتي.. هم من أقنعونا بتلك الأوهام.. جنة ونعيم وأبدية لاحقة بعد الموت تتخيلين ذلك؟ أقنعونا أننا لن ننال السعادة إلا بعدما تنتهي الحياة كلها، سحقًا لهذا الكم الغباء والجهل الذي نعيش فيه.

اقتربت فريدة أيضا من زوجها وربتت على صدره وقالت بكلمات ونبرة تشبه بالتوسل:

- عزيزي هذه هي الحقيقة.. لا نعيم إلا بعد الموت.

تراجع إلى الخلف فسقطت الأمطار على جسد فريدة الذي ارتعش واقشعر، وقال بصوت حاد:

- كفى هراء! هم المخادعون!

صاحت فريدة أيضا متسائلة:

- من تقصد بالمخادعين؟

أجابها محسن بثقة:

- من يمتلكون السلطة والقوة والنفوذ والأموال كلها.

- لا أحد يمتلك كل هذا حتى رؤساء الدول والوزراء يمكن عزلهم، ولكن في وطننا العربي خير مثال ودليل.

هز محسن رأسه وابتسم ساخرا من جديد:

- ومن تحدث عن الرؤساء والملوك؟ الأمر أعمق من ذلك بكثير يا عزيزتي.. أنا رأيتهم وعلمت مدى الفجر الذي يعيش فيه هؤلاء.. إنهم مجرمون ويريدوننا دوفا نعيش ذلك الجهل والغباء.. يوجد من يدفع لي حتى أنقل أخبارهم.

- أنا لا أفهم شيئا.. من يدفع لك؟

- روبن هود

- من؟

- لا عليك..

انتهى الحوار بين الثنائي وعادا إلى البيت بعدما هدأت نوبة الطقس العاصفة. جمعهما فراش الحب وبعد لقاء بارد من الزوجة أشعل محسن سيجارته وجلس على طرف الفراش يزفر دخانه لأعلى.

- كنت أفتقدك طوال فترة غيابك ولا أفكر سوى فيكِ وكلما حاولت تجاوزك بسيدة أخرى من حسناوات ألمانيا لا أستطيع، وأعود لكي أسهر مع ذكرياتنا طوال الليل.

غطت فريدة جسدها العاري وقالت مغيرة دفة الحديث كله:

- أخبرتك أنني لا أفهم أي شيء.

نهض محسن من فراشه وتحرك مغادرًا الغرفة وهو يقول:

- لا يهم الآن سوف أتركك ترتاحين ولاحقًا سوف أخبرك بكل شيء.. أعدك بذلك. توقف محسن حينما سمع فريدة تناديه بصوت هادئ:

- محسن.

نظر لها مبتسمًا:

- نعم يا جميلة؟

همهمت قائلة:

- الحياة وحدي كانت صعبة للغاية.

- وأنا أيضًا كنت أشتاق لك دومًا.

- لا أرى ذلك.. من الواضح أنك وجدت المثالية وسر العالم وأنت وحدك.

- الأمر ليس بهذه الصورة صدقيني، أنا سعيد لأن ما وجدته سيحقق لنا الرخاء دوما، أنا أحبك وسعيد للغاية أنك تشاطرينني حلمي.

- رغم أنني لا أفهم أغلب ما تقوله، ولكن الوحدة والفقر علماني ألا أنتقدك طوال الطريق.. سوف أسير معك الأيام والشهور والسنوات القادمة سوف أحيا كما تحيا لعلني أجد السلام، لطالما كنت ذكيًا وباحثا

ونظرتك للحياة مثيرة للاهتمام.. انطلق وحقق لي ولابنك الرخاء والرفاهية وسوف أحاول ألا أشغل بالي بما يحدث.

عاد محسن إلى الغرفة من جديد واقترب من فريدة وقبلها قبلتين ثم وضع سيجارته في فمها.

- سأفعل كل هذا، ولكن سوف أخبرك بكل شيء وما سوف تعلمينه سوف يثير إعجابك للغاية.

كانت المرة الأولى التي تتذوق فيها مذاق السجائر فلم تتحمله وأزالت السيجارة في الحال وأطفأتها في الحال. وتعجبت كثيرًا من ذلك الموقف وسألته:

- أنت صرت ملحدًا الآن؟

أجابها محسن بشكل فلسفي لا يغني ولا يسمن من جوع:

- أنا ألحد بكل فكرة وشيء يقيدني ويمتعني عن أحلامي.

- حتى تلك الإجابة لا أفهمها كباقي كلماتك.

قال محسن محاولاً تهدئة زوجته:

- لا أزال أؤمن بالخالق العظيم.

ابتسمت فريدة وحاولت إقناع نفسها أن تلك الإجابة تكفيها اليوم.

مر عام آخر بين الزوجين وصار الطفل في السابعة من عمره في يوم عيد الحب ذهب الطفل في رحلة مدرسية إلى إحدى الحدائق العامة الشهيرة

بألمانيا. فاستغل محسن الفرصة وأرسل إلى فريدة خاتم من ألماس الحر، حتى يجدد مشاعرهما ويسحر عينيها وبالفعل حدث ذلك في اللحظة الأولى، وارتدته في الحال، ابتسمت بل ضحكت واحتضنت زوجها وقبلته مرتين ونظرت إلى الخاتم من جديد في ذهول وسعادة، ولكن سرعان ما انقبض قلبها وشعرت بالضيق الشديد. لاحظ محسن ذلك ولكنه تجاهل الأمر وسألها:

- هل يعجبك؟

صمت لحظة منتظرًا ردها قطع الصمت وقال مازحًا:

- هذا ثمين.. ثمين للغاية يجب أن يعجبك حتى لا ألقي بك في الشارع.

ضحكت فريدة وهزت راسها:

- بالتأكيد هذا مذهل، ولكن...

شعر محسن بالملل وسأل:

- ولكن ماذا؟

نظرت فريدة إلى زوجها وقالت:

- لا أعلم..

رد محسن في ملل أكثر

- لا تعلمين ماذا؟

أجابته فريدة بحذر:

- لا أعلم كيف تفعل كل هذا وأحاول ألا أظهر اهتمامي بمصدر تلك الأموال. ولكن كل مشاعري في حالة ذعر مما يحدث.. أخبرني يا رجل بربك ما مصدر كل تلك الأموال أو على الأقل أخبرني أنها مال حلال وأنك لا تزال لا تتاجر في الأدوية المخدرة أو أعضاء الأطفال.

ضحك محسن باصطناع وهمهم:

- لا تقلقي لا أتاجر في أعضاء الأطفال حتى الآن.

شعرت فريدة بالسأم من مزاج زوجها المتكرر وتعمده الهروب من أي مواجهة أو نقاش جاد فصاحت فريدة في زوجها:

- لا أمزح.. أنا قلقة!

ابتعد عنها وصب لنفسه قدحا من النبيذ وقال:

- وما الجديد في ذلك؟

شرب كأسه ثم أضاف:

- أنت دومًا قلقة من كل شيء ترفضين الاستمتاع بكل لحظة سعيدة نعيشها كأنك لا تعرفين للسعادة والمتعة معنى في حياتك.. أنا أدرك قسوة طفولتك ومراهقتك التي عشتها مع والدك الأحمق الذي جعلك ترتدين النقاب وأنت ابنة السبع سنوات وأخبرك أنك عورة لا تستحقين الحياة.

نهضت من فراشها وألقت بالخاتم بعيدا عنها:

- ما الذي تقوله أيها الأحمق الغبي! أتسب أهلي وحياتي؟ هل تظن أنك ملكت الكون بما تحمله الآن من نقود مشبوهة المصدر!

نظر محسن طويلا إلى فريدة ثم قال بغضب:

- لا شيء مشبوه سوى عقلك البالي.. عقلك الرافض للتطور والسعادة ويعيش حياته كلها في بؤس ولا يفكر في شيء سوى أن الدنيا دار ماذا؟ نعم دار ابتلاء، أنت الابتلاء يا فريدة لا الدنيا.

بصعوبة حاولت فريدة مقاومة دموعها من كلمات زوجها، ولكنها انسابت من عينيها رغما عنها فمسحتها سريعا، ولكن محسن لم يهتم بذلك وظل واقفا صامدًا أمام حزنها وغضبها، فقالت في أسف:

- من الواضح أنني لم أكن على صواب حينما فكرت في الرجوع إليك.

أجاب محسن بعدم اهتمام:

- أنت أدرى بشئون حالك.. على أية حال لو تشعرين أنك مخطئة فيمكننا تعديل الأمور وتعودين إلى وحدتك الصحية من جديد.

صدمت فريدة من كلمات زوجها.

- نعم أنت محق بكل تأكيد.. أريد الطلاق والعودة مع ابني إلى بلادي.

ضحك محسن بسخرية وهمهم:

- يمكنني إطلاق سراحك، ولكننا سوف تحتاج إلى نقاش طويل في أمر ابنك.

فهمت فريدة كلمات زوجها، ولكنها لم تظن أنه سوف يلعب تلك اللعبة معها وأن يبتزها بابنها حتى تبقى معه إلى الأبد!

- ماذا تقصد؟! منذ متى ونحن ندخل ابننا في حياتنا؟

- لا أقصد شيئا، فقط أريدك أن تحضري العشاء من أجلي ونسيان كل ما قيل في

تلك الجلسة الملتهبة، ومساء سوف آخذك وأشتري سيارة من أجلك وأيضا ألم أخبرك بعد؟

سقطت دمعة أخرى من عيني فريدة فمسحتها سريعًا وسألت وهي تتظاهر أنها على ما يرام:

- تخيرني بماذا؟

أجابها محسن ببرود:

- لقد تحدث مع صديق لي هنا من أجل أن يجد لك وظيفة تناسب مهاراتك غير العادية.

في البداية شعرت أنه يسخر منها ومن كيانها، ولكنها تجاهلت الأمر وقالت:

- ولكن حتى أعمل هنا طبيبة يحتاج الأمر للكثير من الامتحانات والمعادلات وشهادة لغة أيضًا.

أجاب محسن بعدم اهتمام:

- لا تقلقي كل شيء وله سعر وأنا قادر على شراء كل هذا من أجلك.. كل شيء وله سعر وثمن لا تفكري في تلك الأمور سوف أجد حلا من أجلك.

قالت فريدة:

- ولكن هذا غش وبالتأكيد غير قانوني!

كاد أن يغضب محسن فأضافت فريدة سريعًا:

- أخشى أن أسبب لك مشكلة هنا.. أنت تعلم هذه بلاد قانون وعدالة.

ضحك محسن ساخرا:

- لا لم تعد!

- حصولك على الجنسية صار قريبًا، ألا تخاف أن يحدث مشكلة تعود بها إلى مصر؟

- لا يا عزيزتي.. لا أخاف.. الخوف للجبناء فقط والآن ماذا عن العشاء؟

رن هاتف محسن فسحبه في الحال ورمق المتصل ثم أجاب سريعًا وهو يبتعد عن الغرفة فنهضت فريدة في الحالة وأخذت تنصت إلى حديثه، وبالرغم أنها مكثت في المانيا عامين حتى الآن لكن لفتها ضعيفة للغاية ولم تفهم سوى أن المتصل

بزوجها يدعى فرانكو.

في تلك اللحظة جلست العائلة حول طاولة العشاء وأمامهم التلفاز يعرض مسلسلا إنجليزيا لا صوت في المكان إلا تصادمات الملاعق والسكاكين بالأطباق. أنهى الابن طبقه أولا، ثم استأذن حتى يذهب إلى النوم وكاد أن يفعل محسن التصرف نفسه، ولكن فريدة قالت:

- أريد تعلم الألمانية.. أريدك أن تحجز لي دورة تعليمية محترفة.

سعد محسن كثيرًا من كلمات زوجته وهمهم

- رائع.. هذه أفضل كلماتك منذ شهر تقريبا.

ابتسمت فريدة ثم قالت:

- اريدك أن تكون زوجي في هذه الليلة.

غمزت فريدة بعينيها فابتسم محسن ونهض جاذبًا يدها نحوه ثم قبلها وسحبها نحو غرفة نومه وبعد لقاء أشد حرارة من سابقه نام الثنائي بشكل هادئ ولا يعلمان أنها ليلتهما الأخيرة مقا فقد كان الموت يطوف حول البيت في تلك الليلة الحزينة. الا تعلم فريدة ماذا حدث بالضبط، ولكنها تذكر أنها استيقظت مفزوعة على صوت زجاج يتهشم وجدت حينها زوجها أمامها واقفًا حاملا زجاجة خمر يشرب منها فسألت:

- ماذا حدث يا محسن؟ هل كل شيء على ما يرام؟

لم يرد محسن في البداية فسألت من جديد ولكن بصوت مرتفع أكثر ونبرة أشد خوفًا:

- ماذا هناك يا رجل؟ أخبرني هل ابننا على ما يراما

نهضت فريدة وكادت أن تغادر الغرفة نحو مضجع ابنها، ولكن محسن أوقفها وقال لها:

- يجب أن تنصتي لي جيدًا.. لا يوجد وقت.

شرب من زجاجة الخمر مرة أخرى وتهشم زجاج آخر في الطابق السفلي، فهمست فريدة بذعر :

- ما الذي يحدث ومن هؤلاء الذين اقتحموا بيتنا؟ دعني أنقذ ابني!

تقدم محسن ناحية مكتبه الموضوع في نهاية الغرفة وسحب منها فلاش ميموري وبطاقة ائتمانية تابعة إلى العائلة الأولى مدون عليها حروف من لغة يابانية لا تفهم معناها فريدة، وقال:

- لا مجال ولا وقت للشرح الآن خذي تلك الفلاشة وتلك البطاقة الائتمانية وإياك أن تضيع منك رقم تلك البطاقة هو تسعة أربعة أربعة أربعة خمسة اثنان.. كرري خلفي تسعة أربعة أربعة أربعة خمسة اثنان.. سوف تستخدمين تلك البطاقة مرة واحدة ألا وهي قبل ركوبك طائرة مغادرة ألمانيا وسوف تقومين بتحويل مبلغ مليون دولار إلى حساب بنكي في جزر البهاما باسم هنرى كوشير ألفريد.

منح محسن فريدة ورقة مدون فيها رقم الحساب وأضاف:

- فرانكو سوف يساعد في تحويل تلك الأموال إلى مصر بشكل شرعي، سوف يتولى غسلها جيدًا وإدخالها بشكل بارع وهو يجيد ذلك وسوف يأخذ منك عشرين بالمالة، ولكنك سوف تخبرينه أنك سوف تزيدين النسبة إلى خمسة وعشرين.

تهشم زجاج جديد فكادت ان فريدة أن تصبح، ولكن محسن كتم فمها وشرب مرة جديدة من زجاجة الخمر.

- أي خطا سوف تموتين!

تساءلت فريدة:

- أنا لا أفهم شيئًا ما تلك الفلاشة؟ ما الذي تورطت فيه بحق الجحيم؟

رد محسن سريعًا:

- لا وقت الآن لاحقًا سوف تعلمين كل شيء والآن أقفزي من تلك النافذة وسوف ألقي بابننا خلفك.

- تلقى بمن!

لم يسمعها محسن وعاد ناحية مكتبه وأخرج منه مسدسًا واقترب من باب الغرفة.

فقالت فريدة:

- إلى أين سأذهب بحق الجحيم! وأنت ماذا ستفعل!

- سوف أنقذ ابننا... فرانكو ينتظرك في شارع خمسة أمام مقهى لامور.

- وانت ماذا سوف تفعل! لماذا لا تأتي بابننا ونرحل معًا!

قال محسن في اسف:

- لقد كشفوا أمري ولا مجال الآن للهروب العائلة لن تتركني في سلام وسوف يقتلوني أجلاً أم عاجلاً.

- أي عائلة؟

- جماعة سرية إرهابية كنت في مهمة من أجل تدميرها!

- مع من كنت تعمل؟ من كان يمنحك كل تلك الأموال!

- الآخرون الثائرون داخل العائلة الذين يريدون هدم كل شيء فيها، الباحثون عن الحق والسلام والعدل ولكنهم خالفون من المواجهة فكنت أنا سلاحهم ودرعهم في الوقت ذاته.. يا إلهي كنت قريبًا للغاية من إنجاز مهمتي.. كنت سأفعلها وأحرقهم نهائيًا.. كنت سأدمرهم الاجتماع القادم، كنت سأفعلها كما فعلها جعفر... تبا لي.. كيف كشفوا أمري بحق الجحيم؟

لا تفهم فريدة شيء ولم يعد هناك وقت أكثر فسألته وهي تعلم الإجابة:

- هل سأراك مجددًا؟

لا تنتظريني! كوني بخير وناجحة وحافظي على حياة ابننا!

-٢-

تـيـام

بدأت الجلسة الثانية التي تجمعني مع فريدة بعد ترحيب بسيط منها وفنجان قهوة جاء حسب رغبتي مخالفًا عادات الطبيبة من الواضح أنها أصبحت تعلم أنني لست بمريض وأن قدومي إليها يحمل الكثير من الأسرار، رشفت قهوتي فكان مر المذاق للغاية وبدأت في سرد الجزء الأخير من حكايتي.

في طائرة الخلاص جلست جوار قيس الغارق في ثنايا النوم. تذكرت كم المرات التي حاول فيها ذلك الملعون التخلص مني جزء مني يلومه والآخر يتخذ له الكثير من الأعذار، أود القيام وقتله على ما فعله تجاه زوجتي، ولكنني أعلم بذلك لن أزيد الأمور إلا سوءًا، قيس شئنا أم أبينا مجرد سلاح ينفذ الأوامر التي يدفع له من أجلها ومن زاوية أخرى زوجتي لم تكن سوى ضحية لم يقصد أحد التخلص منها، ومن زاوية قيس ومعزوفته هما مفتاح الهرب من كل ما يحدث ذلك الرجل النحيل رأى الكثير، وعاش سنوات طويلة مطارد من كل شيء حوله وأعلم جيدًا أن فرصتي في الهرب بدونه معدمة.

قبل أن تتحرك الطائرة اطلعت على شبكة الإنترنت وقرأتُ خبرًا عن مقتل أحد تجار الآثار في ظروف غامضة، وما زالت التحريات جارية ومن المتوقع أن تكشف الجريمة عن تشكيل عصابي هائل، أخذت صورة ضوئية للخبر وخزنتها في هاتفي، وعلمت لاحقًا من كلمات قيس أن ذلك القتيل هو الفرعون الذي جنده من أجل السعي خلفي وقتلي لأنني حصلت على البطاقة الائتمانية، ثم بحثت في الأخبار أكثر وهناك رأيت

ما كنت أتوقعه: خبر عن مقتل السيدة إيفيت هنا علمت أنه يوجد تصادمات كثيرة بين أبناء العائلة توقعت أن الفرعون قُتلَ لأنه فشل في القضاء علي وعلى قيس فتخلصت منه العائلة مثلما تفعل دومًا.

أما عن مقتل إيفيت فبالتأكيد لم يكن يوجد سبب منطقي غير أنها ساعدتنا في الهرب أو أقصى تقدير أنها ثائرة ضد العائلة، حتى الآن كل شيء بدا منطقيًا ومخيفا في الوقت ذاته، فمعنى ذلك أن أنا وقيس وذلك الغريب الذي نسافر له في ألمانيا سوف نكون في عداد الموت قريبا لا محالة.

مرت المضيفة ومنحت الجميع طعامه بخفة وسلاسة وسرعان ما تلاشت في مقدمة الطائرة نظرتُ حولي في شكٍ أبحث عن أحدٍ ما يطاردني ويحاول التخلص مني في هدوء أو يدمر الطائرة بأكملها، ولكن سرعان ما طردت الفكرة الأخيرة من رأسي، وأدركتُ أنه لو فجر القاتل الطائرة فحتما سوف يموت معنا، نظرتُ إلى الطعام الموضوع أمامي في ريبة وعقلي تسائل: ماذا لو ذلك الأكل مسموم؟ نظرت إلى سماعة الأذن تارة وإلى قيس تارة أخرى، وأخذ عقلي يفكر من جديد: ماذا لو تحالف ذلك القاتل مع العائلة مرة أخرى ويستغل أي فرصة حتى أسمع معزوفة السعادة؟ وماذا لو أن لديه معزوفة أخرى لا تقتل بالسعادة، بل بالخوف؟

***

كانت فريدة في حالة ذهول وأنا أحكي كل أفكاري ولكنها لم تحاول قطع طوفان الكلمات المبعثرة، نظرت لها فقد بدأت السيدة يتضح لها الكثير من الأمور. الآن وتربط الخيوط ببعضها البعض، وعلمت أخيرًا أنني لم

آتِ إليها من أجل طلب العلاج، ولكن يوجد أسرار كثيرة خلف لقائي بها، سألتها وأنا أعلم الإجابة جيدًا:

- هل تشعرين بالملل؟

أجابت سريعًا:

- بل الفضول.. كما أشعر أنني صرت أعلم إلى من تسافر في ألمانيا.

كانت ذكية ومميزة وتعلم أن طرفي تلك الحكاية يقبع في إحداها زوجها محسن ولكنها قررت تجاهل الأمور ولا تسبقها، وقالت بجهل مصطنع:

- أنا غاضبة لأنك عشت تجربة كتلك.. قصتك فعلاً غريبة.

هكذا الأمور إذن.. تريدين اللعب بتلك الطريقة! لك هذا يا سيدتي الجميلة لم أقل هذا بكل تأكيد، بل ابتسمت لها وأنا أضيف

- الأحداث الغريبة لم تبدأ بعد صدقيني.

نظرت بذهول وهي تسأل:

- وهل يوجد الأغرب؟

لم أجبها، وشرعت في استئناف القصة.

***

بعدما أقلعت الطائرة ببعض الوقت فتح قيس عينيه كانتا حمراوين للغاية وشعيراتهما الدموية بارزة بوضوح، نظر لي وهو يتثائب وقال منزعجًا كأنه يسمع كم الصخب الذي يدور في رأسي:

- كفاك، وحاول النوم قليلًا، نحن لا نعلم ماذا ينتظرنا هناك!

مذهل قيس على كل الأصعدة لطالما أحببت شخصية الشريرة في الحكايات ولم يزدني ذلك السوري إلا يقينًا في معتقداتي، كنت للمرة الأولى التي أركز أكثر في تفاصيله الشكلية والجسدية، كيف لذلك النحيل الهزيل والضعيف أن يكون قاتلاً محترفًا وبارعًا ذكيًا بتلك الصورة كانت المرة الأولى التي ألاحظ ذلك الخاتم المميز - المنقوش عليه السيد المسيح مصلوبًا- الذي يعلقه بسلسلة فضية حول رقبته سألته بفضول:

- لم أكن أعلم أنك مسيحي!

للوهلة الأولى لم يفهم قيس المقصد من كلامي، ولكنه نظر نحو الخاتم وفهم الأمر سريعًا، فأجابني وهو يواريه داخل ملابسه:

- لست كذلك!

فسألته من جديد:

- ولكن الخاتم!

قطع كلماتي وقال قيس باختصار:

- إنها قصة قديمة .. صديق قديم كان يظن أن ذلك الخاتم يبارك الإنسان ويجعل

الله يختاره للمهام العظيمة.

اومأت في تفهم ثم سألته ساخرًا:

- وهل هو كذلك؟ أقصد الخاتم.

ابتسم قيس ولم يجب فقلت مغيرا دفة الحديث:

- هل تتوقع أن العائلة سوف تسعى خلفنا حتى في ألمانيا؟ هل تظن حقًا أن قصتنا معهم لم تنته بعد وهل نفوذهم تعبر البحار والحدود بتلك الصورة؟ وذلك الشخص الذي ينتظرنا هناك هل حقًا هو ينقذنا أم سوف نموت كلنا معًا؟

صمت قيس لحظات ثم ضحك بصوت مرتفع مسببًا إزعاجًا لبعض الركاب جوارنا فكتم فمه واعتذر لهم، ثم اقترب مني وقال هامسًا:

- سوف نموت كلنا معًا.. نعم أنت محق، محق.

حاول قيس كتم ضحكاته ولكنه لم يستطع فانفجر ضاحكا من جديد، وقال:

- يا أخي الحدود والبلاد وهم صنعته العائلة لتفرق البشر عن بعضهم البعض، ألم تسأل نفسك ما سبب فرقة العرب بتلك الصورة رغم وحدة الدين واللغة والعادات والتقاليد؟ ما سبب الصراعات غير المبررة وغير المفهومة؟ لأنهم يدركون خطورة الوحدة منذ أن نشأت العائلة قبل عدة قرون وقانونها ثابت وواحد تفريق الجميع وجمع شتات أنفسهم.

همهمت بصوت منخفض:

- فرق تسد..

سمعني قيس وأوماً برأسه موافقًا كلماتي:

- نعم، فرق تسد.. أحب عباراتك يا أخي.. أحبها بشدة أشعر أنك تستطيع قول ما أعجز عنه أنا.

نظرت له وسألته:

- ألن تأكل؟

رمق قيس الطعام بريبة فعلمت أنه يشاركني شكوكي ونظراتي:

- رغم أن الجوع يأكل معدتي لكنني أفضل ان تناول الطعام في ألمانيا.

كلماته شجعتني أن أنسى أمر الطعام نهائيًا، وأكدت لي أنني لا أبالغ في رؤيتي للعائلة الملعونة. سألته:

- هل يمكنني أن أسألك سؤالا؟

أجابني قيس بخبث:

- يمكنك يا أخي بكل تأكيد رغم عدم ثقتي بأنني سأجيبك.

وهنا كانت المرة الأولى التي أحاول الاستفسار فيها عما حدث لزوجتي، كأنني كنت أخشى تلك المواجهة مع قيس، خشيت أن أعلم أكثر من اللازم وأدرك أنني لا أمتلك القوة لمواجهة هؤلاء البشر.

- من أمرك بالتخلص مني؟ من يحمل دماء زوجتي البريئة على يديه؟ كما أنني أريد أن أعلم كل شيء عن تاريخ العائلة متى بدأت وإلى مدى توغلت في بلادنا؟ هل تلك الجماعة تتبع الماسونية؟ أحد فروعها؟ هل هؤلاء عبدة إبليس؟ المسيح الدجال ؟ جسام الشيطان؟

- بربك ما كل هذه التساؤلات بالتأكيد أنا لا أعلم إجابات كافية حتى تشبع فضولك، أو أخشى أنني لا أعلم سوى إجابة سؤال وحيد ألا وهو من دفع لي حتى أتخلص منك.

صمت قيس لحظة ثم تنهد وأردف:

- السيد إكس، أحد أفراد العائلة التي تعيش في جنوب مصر.

قيس ما زال لا يعلم عن السيد أكس أو الفرعون وكان هذا جيدًا للغاية واصطنعت الجهل لعله يخبرني معلومات جديدة لا أعلم عنها شيئًا كنت أود بشدة معرفة من خلف إكس وإلى أي مدى تمتد العائلة وكيف ومتى بدأ الصراع الداخلي بينها. عقلي ممتلئ بالكثير والكثير من التساؤلات.

- إكس؟ ألا تعلم اسمه أو رقم عضويته في العائلة؟ وهل جنوب مصر يحتاج إلى أحد أعضاء العائلة؟

فكر قيس لحظات ثم أجابني سريعًا:

- لا أعلم له اسم سوى إكس، ولكنني ذات يوم وفي أثناء بحثي عنه علمت أن له لقبا آخر وهو الفرعون يعلم إكس خطورة مشاركة تلك التفاصيل الشخصية مع أحد خاصة، أنني أشعر أحيانًا أنه يقوم ببعض العمليات خارج عيون العائلة كأنه يستخدم انتسابه العائلي لمصالحه الشخصية ... أما سؤالك الأخير عن كون الجنوب فيحتاج إلى أفراد من العائلة، عزيزي أنسيت الآثار؟ جنوب أرضكم مغارة علي بابا لهؤلاء القوم، الآثار مصدر تمويل مؤثر جدًا في تاريخهم.

بدأت أخيرًا في جمع المعلومات أكثر عن العائلة، كما توقعت قيس سبقني وبحث عن العائلة وحاول فهم سياستهم وطريقة عملهم. سألته مستفسرًا أكثر

- يتاجرون في الآثار! ينقبون عنها أمام الجميع؟

أجابني قيس موضحًا:

- لا، إنهم يجندون الناس والعائلات من كل حي وكل شارع في تقصي الأمر ومعرفة أماكن المقابر وسمعت أن لدى الفرعون سحرة عدة يتحدثون مع الشيطان ذاته لمعرفة أماكن كنوز الملوك أتعلم أن أحد رجاله أخبرني ذات يوم أن الفرعون وجد مقبرة الإسكندر الأكبر المفقودة؟ أتعلم أنني سمعتهم يتحدثون عن خطف مسافر عبر الزمن؟ يريدون إرساله إلى الماضي لمعرفة طريقة فك رصده مقبرة الإسكندر ومقبرة أخرى نسيت اسمها، كانوا يجمعون أدلة عنه ويريدون أسره وبعد أن يقوم بمهمته يجرون أبحاثًا على جسده لمعرفة سر كسره حواجز الزمان كان اسمه عابد أو أديب لا أتذكر ..... لا مهلاً كان اسمه عابد أديب.

ضحكت بهدوء من كل هذه الأساطير وعلمت أن قيس يحب المبالغة قليلًا في وصف الأمور.

لا أصدق هذا بكل تأكيد، لو كانت مقبرة الإسكندر خرجت من باطن الأرض لعلم الجميع بذلك كما أمر عابد أديب هذا فهو مثير للسخرية.

أومأ قيس ولكن ثقته بنفسه لم تهتز وقال:

- في البداية كنت أشك في الأمر مثلك وطعنت في كلمات الرجل ولكنه أخبرني أن الفرعون وجد شيئًا سريًّا وخطيرًا للغاية جوار مقبرة الإسكندر،

وقرر الاحتفاظ به لنفسه ولن يظهر إلا في وقته المناسب وأنهم قرروا غلق المكان كله حتى يأتي الوقت المناسب.. أشعر أنه يوجد سر خطير للغاية يقبع داخل تلك المقبرة، أخبرتك أن الفرعون يعمل لصالحه.. يعمل خلف ستار العائلة الأولى.

كانت الكلمات غريبة وغير مفهومة، ما الذي يدفع أحدهم للعمل خلف ستار تلك العائلة الخبيثة وهي تمنح أبناءها كل شيء يريدونه؟ لا أفهم ما الذي يسعى خلفه الفرعون ولم يجده في العائلة.

- تلك السيدة التي قابلناها أخبرتنا أن العائلة تمنح كل شيء لأبنائها، فكيف إن عمل بعيدًا عنهم سيستفيد أكثر خاصة لو علموا ذلك؟ أشعر أن حياته ستكون الثمن.

شرد ذهن قيس الحظة، ثم قال:

- معك حق، أنا لا أعلم...

فسألته من جديد:

- ولكن هل أنت متأكد أنه يقوم لعمليات بدون أن يعلم أحد عنها؟ أم إنه يحاول إقناع الجميع بذلك فقط وأن العائلة تختبئ خلفه وهي من تحركه كقطعة شطرنج؟

وحتى أمر مقبرة الإسكندر العائلة من قررت استمرار بقاء الملك تحت الأرض حتى

يأتي الوقت المناسب لخروج جثته وأسراره؟

لم يقتنع قيس بوجهة نظري وقال:

- أخي لقد أتممت أول عملية لصالح مستر إكس، كانت اغتيال أحد أعضاء الجماعة.

حسنا لم أتوقع هذا. سألته:

- ماذا؟ كيف! هل قتلت أحد أفراد العائلة!

- بل قتلت ثلاثة منها.. حسنا، حسنا سأخبرك بكل شيء.

حسنا بدأت أقتنع الآن أن الفرعون كان يعمل لصالحه! لم أقل ذلك فقط أومأت..

وبدأ القاتل يحكي قصته..

***

جاء قيس من سوريا إلى مصر عقب الأحداث المثيرة في يناير ٢٠١١، وحينها قابل

العضو ١١١ الملقب بالثعبان، كان له هيئة خبيثة مخادعة في اللحظة الأولى تجده

يتخذ من الدين ستارا يختبئ خلفه فقد أطلق لحيته وارتدى الجلباب القصير ويلوي

معاني الأحاديث والآيات المقدسة حتى تخدم أفكاره النجسة، جلس القاتل المأجور

أمامه ووضع الثعبان قدحين من اليانسون.

- اشرب يا قيس، اشرب يا صديقنا الغالي.

تردد قيس في تناول القدح، فالقاتل يعلم جيدا قوة الكيمياء ومدى قدرتها في السيطرة على عقول البشر، ففهم الثعبان ذلك وقال مازحا:

أنت حريص بشدة، وهذا جيد ويبث في قلبي الأمن، مهمتنا لا مجال فيها للخطأ، نحن في فترة حرجة للغاية وأنت بكل تأكيد ترى ما يحدث.

أجاب قيس:

- ومن لا يرى يا خال!

كان القاتل الأجير في تلك الأثناء لا يزال حديث العهد في ممارسة جرائمه، حتى معزوفته رغم أنه استخدمها أربعة مرات من قبل ولم تنجح سوى مرتين فقط في تصفية أحد ضحاياه لكنه أقنع الكثير من متابعين القتلة المأجورين على المواقع الإنترنت المظلمة أنه يمتلك أداة قاتلة من اختراعه لا يمكن لأحد اكتشافها، وأن السبب الوحيد المتروك أمام هيئات التحقيق هو الهبوط الحاد في الدورة الدموية، لا يعلم أحد حتى الآن كيف تمكن قيس من تطوير معزوفة تارتيني وتحويلها إلى سلاح خبيث وفتاك بتلك الصورة ولا نملك عن تلك المعزوفة سوى حكاية القاتل نفسه الهزيلة حينما أخبرنا أنه قابل الشيطان وهو من ساعده في تطويرها. سخيفة فكرته بكل تأكيد وأنا أعلم أنه يقصد ذلك، قال الثعبان:

- سأمنحك قائمة بها ثلاث شخصيات وكل المعلومات عنهم أريدك أن تنتهي منهم خلال أسبوع قبل أن تهدأ الأوضاع هنا.

يومها سخر قيس كثيرًا من كلمات الثعبان.

- وهل تظن أن الأمور ستستقر في بلادكم خلال اسبوع؟ يا أخي الثورات تقدم كل شيء قبل أن تبني أي شيء رغم أن ما يحدث هنا له مليون تفسير مخالف لكلمة ثورة.

اعترض الثعبان على كلمات القاتل وقال:

تلك الأرض مختلفة عن كل البقاع.. لا أقصد حكايات روايات وأساطير، ولكنها بالفعل مختلفة، هناك سر ما داخل ثنايا تلك البلاد كأنه لعنة حافظة من القدماء أو من المحتمل جينات الأجداد لا تزال السري في الأبناء، لا أعلم، ولكننا على أية حال سوف تلتزم بالخطة.. أسبوع للقضاء على الثلاثة أهداف.

- حسنًا

- ليس هذا وحسب.. يوجد طلب آخر.

- أعلم، أعلم ... تريد أن يتم كل شيء دون اتهام أحد.. تريد أن يكون التفسير الوحيد للموت هو الهبوط الحاد في الدورة الدموية لا تقلق هذه لعبتي.

- لا أعلم ... ربما لا أقصد ذلك وأيضًا لا أريدك أن تفعلها بهذه الطريقة ... سوف تضع أدلة تخص شخص آخر هناك.

كان الطلب غريبا هذه المرة، فلم يسمع قيس بهذه الكلمات من قبل الكل يريد التخلص من أهدافه بدون تساؤلات أو تحقيقات ولكن الثعبان يريد خلق صراعات وصدامات بين أناس عديدة، فسأله حتى يتأكد مما فهمه:

- أنت تريدني أن أقتل أناسًا وأضع أدلة يتهم بها آخرون؟

- نعم أريد أن أقوم بعملية تطهير شاملة.

- ولماذا لا أقتل ذلك الشخص الذي تريد اتهامه بدل التحقيقات والتساؤلات وغيرها من الأمور؟

لم يجب الثعبان على سؤال قيس ففهم أن العملية أعمق من القتل ولكنها تحمل الكثير بداخلها من دوافع الانتقام والاستعراض.

***

جاءت مضيفة الطيران مرة ثانية وشرعت في التحدث مع راكب مجاور للثنائي. فتوقف قيس عن السرد للحظات استغلها تيام وبدأ في طرح عدد لا نهائي من التساؤلات:

- أنا لا أفهم كيف للعضو ١١١ أو ذلك الثعبان كما تقول أن ينهض فجأة ويبدأ في قتل أعضاء العائلة واحدًا تلو الآخر؟ هذا غريب حسب ما سمعته ومنافٍ للمنطق.

وقوة تلك الجماعة السرية أي جنون أن يعادي إنسانًا قوة بهذا الحجم؟ هل مثلاً خشي أن يتخلصوا منه قريبًا فقرر ضربهم بشكل استباقي؟ هل علم بخيانتهم للعائلة فقرر الانتقام والتخلص منهم. يوجد شيء ناقص بحق الجحيم.

استطرد قيس في الحديث على غير عادته:

- أنا لا أطرح الأسئلة دومًا، ولكن هل يمكنك إخباري ما الفائدة التي سوف تعود علي أو عليك بمعرفة إجابة تلك التساؤلات؟ أخي

المعلومات الكثيرة لا تجلب معها سوى المزيد والمزيد من الشر، لو علمت كل معلومة ممكنة عن أي ضحية أتخلص منها بالتأكيد فلن أغتالها، ولكن...

توقف قيس فجأة عن الحديث كأنه شعر أنه تحدث أكثر من اللازم على غير العادة عن مشاعره وأفكاره. قال تيام

- لماذا صمت؟

- لا أعلم أشعر لو قلت كل شيء أعلمه فلن يجلب لي الأمر سوى السخرية منك.

ثم أضاف مازحًا:

- أخشى أن تهتز صورة القاتل المأجور في عينيك.

لم يضحك تيام، وظل ينظر إلى قيس منتظرًا كلماته القادمة فأجاب بعدم فهم:

- بربك يا رجل، لماذا أنت شديد البرود هكذا؟ أو متناقض بمعنى أدق؟ لحظات أراك فيها غاضبًا بشدة مني ومن العائلة لما تسببنا جميعا فيه لأسرتك الصغيرة، وأوقات أخرى لا أرى فيها سوى فضولك لمعرفة كل شيء عن العائلة كنت سأحترم فضولك لو كانت رغبتك في معرفة كل شيء حتى تنتقم من العائلة وتهدم كل شيء فيها.

ابتسم تيام هذه المرة وقال مغيرًا دفة الحديث كله:

- ماذا كنت تنوي أن تقول وتراجعت عنه؟

زفر قيس في ملل من عدم توضيح تيام وجهة نظرة بالكامل.

- حينما كان الثعبان يتحدث عن العائلة كنت أظن في البداية أنه يتكلم عن الجماعات الإرهابية المحظورة. استغرقتُ وقتًا طويلًا حتى أفهم الأمر.

- ومن أخبرك أن عائلتك لا تمول الإرهاب؟ لو كانت العائلة مثل ما تقول ونفوذها تمتد إلى ما تظن فهي بالتأكيد لها أجندات خاصة في قضايا الإرهاب، ومن المؤكد أنها تدعم الكثير منهم حول العالم، لن أتعجب الآن لو علمت أن أسامة بن لادن كان من أعضاء العائلة الأولى.

- بالتأكيد العائلة الأولى تلعب دورًا كبيرًا في دعم إرهاب العالم، ولكن لم أتخيل أنه يوجد شيء يُسمى - جماعات سرية تحكم العالم وغيرها من تلك الأمور السخيفة.. ولكن الأمور دومًا تسير عكس المتوقع والخيال والأساطير دومًا لها مبعث حقيقي.. ولا ننس أن بعضهم صار يشتهي الدماء!

- والآن أصبحت تؤمن بالعائلة الأولى، أصبحت تؤمن بالخرافات والأساطير.. وشاربي الدماء!

ضحك قيس وأضاف ساخرا:

- لم أعد أؤمن بالعائلة الأولى فحسب يا أخي لا تظن أنها الجماعة السرية الوحيدة.

فاجأتني كلماته وسألته:

- أيوجد آخرون؟

أومأ وقال:

- نعم، وأخشى أن أخبرك أنني عملت لصالح واحدة منهم، تشبه العائلة كثيرًا وأيضًا تختلف عنها.

همهمت:

- يا إلهي!

صمت لحظة ثم علقتُ:

- حسنًا، أخبرني ماذا حدث بعد ذلك؟ أقصد بعدما علمت أهدافك الواجب التخلص منها من الثعبان.

هز قيس رأسه:

- آه الثعبان.. حسنا سوف أكمل لك.

***

- الضحايا كانوا أناس غريبة أو لا أرى فيهم ما يدفع أحد للتخلص منهم على سبيل المثال الأول كان معلم تربية موسيقية بإحدى المدارس الحكومية، أعزب ويقترب من الأربعين من عمره، لا يمتلك الكثير من الأموال رغم أنه يوجد تحسن ملحوظ في حالته المادية آخر شهرين ولاحقًا علمت أنه ابن جديد لأبناء العائلة الأولى، ولم أفهم ما سبب اختيار مثل ذلك الشخص حتى يكون عضوا في الجماعة. وأيضًا لا أرى أيَّ دافع للتخلص منه، ولكن على أية حال كان هدفًا سهلًا للغاية، حبه الألحان والموسيقى جعلت منه فريسة سهلة وتخلصت منه في لمح البصر، ولكي أكون أكثر وضوحًا: الأول والثاني تخلصت منهما بسهولة

واللحن كان كافيًا جدًا للقضاء عليهما، بالتأكيد كان يوجد خسائر لم أقصدها فمثلًا الضحية الثانية حينما سمع اللحن في سيارة كانت أسرته معه بالكامل وعندما تمكن اللحن من عقل السائق فقد سيطرته على السيارة وانقلبت في حادث مروع وماتت الأسرة كلها، الأصعب في المهام الثلاثة كان فكرة تلفيق الأحداث إلى شخص معين. تعلم من يكون؟

شرد ذهني لحظات وعقلي تشتت مع شخص يرتدي نظارة سوداء في الطائرة ويتحرك بشكل مريب حسبته في البداية مصدر تهديد ولكني سرعان ما تراجعت الأمر حينما رأيته يعود إلى مقعده ويقبل الفتاة الجالسة جواره، كان حينذاك قيس ينتظر مني ردًا.

لا أعلم الأمور كثيرة ومتشابكة.. حسنًا من يكون الرجل الذي أراد الثعبان أن تلفق له تلك الجرائم؟

أجابني قيس:

- مستر إكس.. الفرعون نفسه.

حسنا لم أتوقع هذا نهائيًا، دومًا يفاجئني هذا الرجل بكلماته وأحداث قصته:

- يا إلهي الثعبان أراد التخلص من ثلاثة من أعضاء العائلة وتلفيق الحدث إلى الفرعون وهو أيضا عضو في العائلة أفهم من حديثك أن العائلة منشقة بالكامل على بعضها ويوجد الكثير من الصراعات الداخلية فيها.

همهم قيس بثقة وبدأ في شرح نظريته:

- أو ربما يوجد من حاول اختراق العائلة وحاول تدميرها من الداخل، يوجد من يعمل لصالح أناس آخرين ومهمته كسر وهدم الأسطورة.

- من يمتلك الجرأة حتى يكون هدفه هدم كيان هائل مثل العائلة الأولى حكومة دولة متقدمة أو تجمع دولي أو شخصيات عامة لها تار مع العائلة، أو من المحتمل جماعة أخرى...

اومأت وفهمت المقصد من كلمات قيس ولن أنكر أن حديثه له منطق لا بأس به. إلى متى سوف تعيش العائلة في صدام وثبات أمام كل تغيرات الحياة؟ فكل العهود والعصور القوية مرت بلحظات صعبة وانتكاسات قوية ولنا في الحضارة المصرية القديمة وغيرها الكثير خير مثال.

- حسنًا أكمل يا قيس ماذا فعلت بعدما علمت أنّ الثعبان أراد تلفيق كل القضايا إلى الفرعون؟

- كنت ساذجبًا وحديث عهدٍ في الإجرام، وتصرفت بفطرة أو طفولية لا أعلم، بدأت في القراءة عن الفرعون وتتبع خطاه فوجدته ذا شأن عظيم، وله نفوذ ملحوظة وقوية حتى أنني ظننت لو أتيحت له الفرصة وترشح للرئاسة بعد الثورة فمن المؤكد سوف يفوز بها.. شهرته كانت ملفتة لجميع الأوساط سواء في قريته والقرى المجاورة، وشعرت أن المستقبل مع ذلك الرجل وليس الثعبان الجبان.

- أرجوك لا تخبرني أنك ذهبت إليه وبعت سر الثعبان له! ضحك قيس وأجاب:

- نعم فعلت ذلك.. أخبرته كل شيء

صمت قيس طويلًا، فسألته بفضول:

- وماذا حدث؟

- ثلاث.. ثلاثة أيام يا صديقي وكنتُ خلف القضبان أواجه جرائم شتى لا تنتهي. كنت داعشيًّا ارهابيًّا وقاتلا ممولا قادمًا من الخارج لإسقاط النظام والأنظمة القادمة.. حينها فهمت أن الثعبان والفرعون كالفيلين المتصارعين وأنا الأعشاب التي دهست نتيجة ذلك التلاحم .. كانت القضايا في تلك الحقبة تنتهي سريعًا، فبعد أسبوعين واجهت حكم بالإعدام شنقًا، ولكن لاحقًا جاء لي أحد المجندين ومنحني ورقة فتحتها وقرأت ما فيها.. يا لها من أيام تلك الأيام!

كان قيس يحب الفضول والإثارة في سرد قصته، وكنت لا أتحمل معرفة كل شيء الآن.

- بربك ماذا حدث! ماذا كان في الورقة؟

الخلاص.. الورقة كان مكتوب فيها: «لا تقلق اليوم سوف يكون خلاصك ولكن عليك تنفيذ الأوامر»، وتوقيع الفرعون في الأسفل، كنت سعيدًا للغاية أن ذلك الرجل القوي لم ينساني ولم يضح بي، بل أخذ على عاتقه أمر تحرير رقبتي وفي اليوم نفسه جاءني رجل أعمال شهير يدعى مازن الحسيني وأخبرني أنه سوف يحرر رقبتي، ولكنني سوف أعمل من أجله.

اومأت وهمهمت:

- بالتأكيد وافقت.

- وهل لي قرار آخر؟ بكل تأكيد وافقت يا أخي، وبالفعل نفذت أكثر من عملية لصالح مازن الحسيني، وفجأة عاد الفرعون للظهور من جديد،

وطلب مني القدوم إليه في قصره وتنفيذ مهمة عاجلة جدًا وأخبرني أنها أخطر مهمة على الإطلاق

- ألا وهي؟

- أن أتخلص من الأب.. رب العائلة الأولى.

- مستحيل!

- الأب كان قادمًا إلى مصر في زيارة سياحية سريعة مع أسرته.. كان رجلا أمريكيا يدعى مايكل فيلد ليس من الطبيعي داخل العائلة أن تعرف كينونة الأب، وكان حريصًا على ألا يخرج من بيته نهارًا، الفرعون سعى كثيرًا ودفع أموالا طائلة حتى يحصل على تلك المعلومات.. في البداية كنت أخشى تلك المهمة كثيرًا، ولكنني وافقت عليها في النهاية، فقد كان الثمن باهظًا، ولكن ليلة التنفيذ، اتصل بي الفرعون وقال بصوت حادة لا يمكنك تنفيذ المهمة.. أبونا يعلم الحقيقة كلها!).. عد إلى مازن الحسيني ونفذ كل طلباته وانس أمري.. لاحقًا تأزمت الأمور بيني وبين مازن الحسيني، وقد مرت سنوات ونفذ الفرعون حديثه، ولم يجمعني به أي لقاء أو تواصل حتى أنني ظننت أنه مات ثم جاءني عرض هائل على رقبة مازن... زوجته كانت تريد التخلص منه.

- وبالتأكيد نفذت الأمر!

- نفذته وقتلت مازن الحسيني وجعلته يسمع لحن الشيطان ورأيته ينهار أمام عيني، كنت أكره ذلك الشخص كثيرًا، كان مغرورًا ويحتقرني وأنا أكره ذلك كثيرًا.. قبل أيام ظهر الفرعون من جديد، وطلب مقابلتي ذهبت وكنت مرعوبا أن يقتلني لأنني تخلصت من مازن الحسيني، ولكنه لم يكن يهتم نهائيًا بالأمر.. وطلب مني بضرورة التخلص منك وأخبرني أنك

شخص خطير وقال عنك أنك كالأفعى تلدغ كل من يقترب حولك، ولكنني حينما اقتربت منك وجدتك عكس ذلك نهائيًا، طالما كانت معلومات الفرعون ناقصة وغير مكتملة، وعلمت أنك لم تأتِ إلى ذلك الطريق سوى عن طريق الصدفة.. كان لا بد لك أن تترك صاحب السيارة المسكين يحترق مع بطاقته الائتمانية.. أنت أخطأت كثيرًا حينما أخذت تلك البطاقة واستخدمتها، مات الكثير جراء فعلتك هذه.. ماتت زوجتك ثم الممرضة المسكينة.

أخرجت هاتفي وجئت بصورة الفرعون وهو قتيل وعلقت:

- ومات الفرعون.

قلبت الصورة وأتيت بصورة السيدة إيفيت وهي قتيلة وقلت:

- وماتت إيفيت.

أخذ قيس الهاتف ونظر إليه بقلق:

- يا إلهي ما يحدث مذبحة.. العائلة تحرق كل من يقف أمامها، أخشى أن أقول أنني أشعر بالخوف للمرة الأولى.

همهمت:

يجب عليك ذلك..

***

-٣-

العضو رقم عشرون

هبطت الطائرة في سلام وتوقفت محركاتها، خرج قيس وتيام منها إلى عالم

جديد تلاشت اللغة العربية من حولهما وحلت محلها الألمانية، ختم الضابط جوازات السفر وأعلن بداية إقامتهم داخل بلاده وخارج المطار استقل الثنائي سيارة أجرة نحو العنوان الذي أخبرتهما السيدة عنه، وهناك وجدا رجلًا في الأربعينيات من عمره له هيئة جسدية مثالية، تحسبه من أول نظرة أنه مذيع أو فنان سبق أن رأيته من قبل، ولكن لا تتذكر متى.

- إزيكم يا رجالة نورتم ألمانيا.. كان نفسي نتقابل في ظروف مختلفة عن دي.

تعجب قيس وتيام من لهجة المتكلم كثيرًا فقال الأخير:

- يا إلهي! أنت مصري؟

قال الرجل وهو يشعل سيجارته:

- بالتأكيد.. يا رجل أنا مصري.. حينما اتصلت بي السيدة إيفيت وأخبرتني بقصتك يا تيام أنت وقيس لم أصدق حظكما التعيس، سمعت أن أناشا كثيرة حاولت التواصل مع العائلة وفشلوا، ولكنني لا أسمع ابدًا عن رجل يدخل العائلة ويحمل بطاقتها الائتمانية المميزة عن طريق الصدفة.. يا إلهي أي رعب وذعر هذا! كيف لا ترضي أمك يا رجل؟

شعر تيام بالضيق وأجاب عن السؤال بسؤال آخر:

- وما علاقة أمي بالموضوع؟

أجاب الرجل ساخرًا:

- لو كنت ترضيها لكانت دعت لك بالسلامة.. ولا أرى أيّ سلامة في طريقك الآن!

لم يحب قيس الكلام الذي يُدار حوله كثيرًا فتدخل في الحديث، وقال بملل:

- ولكن السيدة إيفيت أخبرتنا أنك ستوفر لنا السلام والأمان.. هل ستفعل ذلك؟

فكر الرجل لحظات ثم قال:

- لا يا عزيزي، هي أخبرتك أنني سأحاول توفير السلام، لكم بدون أن تسبب الأذى لذاتي.

كاد أن يتكلم قيس، ولكن تيام تدخل مسبقًا وتسائل:

- هل يمكنني أن أسألك سؤالًا يا سيد..

أجاب الرجل مقاطعًا:

- محسن.. اسمي محسن.

تنهد تيام ثم أكمل سؤاله:

- هل أنت عضو في العائلة الأولى يا سيد محسن؟

أجاب محسن باسمًا:

- نعم.. أنا أحد الأعضاء المقربون.. ولكنني عضو غاضب.. عضو ثائر.. عضو يريد هدم المنظمة بالسرية بالكامل.

***

انتهى تيام من سرد الحكاية وسقط القناع من على وجهيّ الثنائي في الجلسة، تتلاحم نظراتهما كمبارزة لفرض القوة، تنهدت فريدة وأمسكت قدح الماء وارتشفت بعضًا منه، ثم نظرت إلى عينيّ تيام وقالت ببرود كأنها لا تبالي وهي تسمع اسم زوجها في حكاية تيام:

- يا إلهي قصتك شديدة الألم، وأنا لم أعلم أن تلك البطاقة هددت حياتك وحيات أحباءك، بل دمرت الكثير من الحيوات حولك.. ولكنك كنت محظوظًا أنك عثرت على زوجي.. محسن دومًا متميز في تنفيذ مهامه والدليل أنك لا تزال على قيد الحياة.

- هل كنتِ تعلمين أن زوجكِ له يد في كل ما يحدث؟ هل هذا السبب حينما ذكرت البطاقة السوداء للمرة الأولى لم تتعجب وقلتِ إنكِ رأيتِ الكثير؟

تنهدت فريدة وأجابت:

- سوف أحكي لك قصتي مع محسن وأخبرك بكل شيء أعلمه.

سردت فريدة قصتها مع زوجها وكيف انهارت علاقتهما عدة مرات ثم عادت وكيف كانت رافضة أمر السفر ثم تقبلته في النهاية، ثم تطرقت

إلى المشهد الأخير بينهما وبيتها يتعرض للسطو ومحسن يخبرها بضرورة الهروب، ثم توقفت عن السرد وقالت:

- سيد تيام. أرجوك أنا لا أريد أي مشكلات في حياتي.. يكفي ما حدث لكلينا، لقد تجاوزت كل شيء وأنت سمعت أنني على وشك تولي منصب مهم وحساس ولا أريد أيّ علاقات مشبوهة في حياتي، أرجوك لا تأتي إليّ من جديد.. إن كنت تريد الانتقام من العائلة فلن أساعدك في هذا.

ضحك تيام بقوة وقال:

- أي انتقام؟ ما زلت لم تفهمي بعد؟

صمتت فريدة وهي لا تعلم مقصده من الحديث.

- أنا لا أسعى للانتقام من العائلة.. أنا تيام العضو رقم عشرون، أنا أحد أبناء العائلة المخلصون جدًا، كانت مهمتي البحث عن الثائرين والمتمردين المذؤوبين ومساعديهم والتخلص منهم، تتبعتهم واحدًا تلو الآخر، وتخلصت منهم جميعًا، وكان بينهم زوجك، لم يكن مذؤوبًا بل مجرد أحمق يساعدهم، وهو الذي ساعدني كثيرًا دون أن يقصد حينما أخبرني من هو رئيس ذلك الكيان المتمرد الخبيث، ووضعت له السم بنفسي في طعامه.. أنا قتلت كل الثائرين على العائلة!

بصعوبة ابتلعت فريدة لعابها وفكرت في الصراخ وطلب المساعدة، ولكنها تعلم أن الأمور لا تسير هكذا الآن، وبالرغم أنها لا تفهم الكثير مما يحدث ولكنها تعلم أن تيام ليس كما كان يسرد حكايته، بل هو مجرد تابع إلى تلك المنظمة الخبيثة، وهو من قتل زوجها، وحاول السطو على بيتها قبل أن تهرب فسألته:

- هل أنت من حاولت السطو على بيتي في ألمانيا؟ هل كنت مصدر خوفنا!

أومأ، فأضافت فريدة:

- هل ستقتلني ؟

كان المفترض أن يتم الأمر هكذا، ولكنني قبل وضع خطة اغتيالك وجدنا شيء مهم، أولاً إنك لم تحاولين استخدام الفلاشة، ونشر ما فيها بأي وسيلة ممكنة... الخوف ساعدكِ كثيرًا حتى إنك لم تنفذي كلام زوجك، ولم تستخدمي البطاقة الائتمانية، وكان هذا أيضًا في صالحك، ولكن الأهم أننا علمنا مسبقًا أنك مرشحة لمنصب مهم وهذا جيد.. هذا نريده بشدة.

- تريدون أن يتوغل أعضاء العائلة أو مصاصي الدماء أكثر في السياسة والوصول إلى المناصب العليا. لذلك سوف تبقون على حياتي حتى أعمل لصالحكم؟ أما أمر الفلاشة والبطاقة الائتمانية أخشى أن أخبرك أنهما سُرقتا مني.

- سرقتا؟ كيف؟

- لا أعلم.. حينما عدت إلى مصر. لم أجد كل منهما وشككت أن فرانكو صديق زوجي هو من سرقها ولكنني لم أستطع مواجهته بالأمر حتى.

هذا سيئ.. سيئ للغاية.

- هل هذا سيؤثر في قراركم في التخلص مني؟

- لا أظن.. أنت سوف تكونين عضوًا في العائلة قريبًا، وسوف تنفذين كل شيء لصالحها.

- أنا لدي الكثير من الأسئلة.

- سوف أخبركِ لاحقًا بكل شيء. ما زال للحديث بقية...

- هل سوف أتحول لمصاص دماء؟

ابتسم تيام ونهض رحل عن المكان دون إجابة!

النهاية

بداية جديدة

دخل قيس غرفته المستأجرة بأحد أحياء ألمانيا، فقد الهزيل المزيد من وزنه وصارت عظامه بارزة أكثر مما كانت، اتسعت عيناه وكادت تقفز من مضجعها حينما رأى تلك الغريبة الجالسة على مقعد بالقرب من المدفأة المشتعلة وهي تقرأ مذكرات العضو رقم مائة، أغلق قيس الباب خلفه وظل يقترب من السيدة وهو يخرج هاتفه من جيب سترته وقام خلسة بتجهيز معزوفة الشيطان تحسبًا أن تتعقد الأمور بينه وبين تلك الزائرة الغريبة.

- سمعت كثيرًا عن ذلك العضو، بدوي أو جعفر، ذلك الثنائي كانا نموذجًا غريبًا في تاريخ العائلة، اعترافات العضو غير مكتملة، من الواضح أنه لم يمتلك الوقت الكافي حتى يكتب الفصول التالية في حكايته.. حتى أنني أعلم أنك قرأت مجلدات العربي المجنون المحرمة القديمة عن إرم وكاو ومغامراتهم في صيد السادة الأوائل... على أية حال لم يكن من المفترض أن تطبع تلك المذكرات، لولا أن عليك وصاية من العضو رقم عشرين لكان تم التخلص منك في الحال.

مرت الكلمات الغريبة على أذنيّ قيس كأنه لا يسمعها ولا يفكر إلا في كيفية التخلص من تلك السيدة.

- ما هذا بحق الجحيم من تكونين يا أختي؟ ومن يكون العضو رقم عشرون هذا؟ ما الذي يحدث؟

قالها قيس وهو يتحفز للتعامل مع تلك السيدة، فأجابت الأخيرة بصوت عربي غير سليم وهي تغلق الكتاب وتضعه جانبًا:

- أنا تمارا العضو رقم ٣... شقيقة العضو رقم عشرين، ألا وهو صديقك تيام.

للغربية بشرة سوداء داكنة وترتدي حُلة نسائية أنيقة سوداء، وفوق رأسها قبعة إنجليزية مستديرة من اللون ذاته تدخن تبغًا ذا رائحة مميزة تعكس جودته. قال قيس وهو ينظر ويتطلع إلى أدق تفاصيل وجهها متداركًا أنه في مأزق كبير:

- يا إلهي! هل تيام انضم إلى العائلة؟ كيف حدث هذا؟ كيف أنتما شقيقان والفارق في الشكل والهيئة كبير جدًا بينكما؟

نظرت السيدة إلى قيس ثم أشارت نحو مقعد أمامه.

- لطالما كان تيام من العائلة، أو من الأبناء المخلصين الأصليين وأنت تعلم معنى تلك الكلمات جيدًا في العائلة، كان أخي في مهمة خاصة في مصر، كان يريد معرفة الباقي من نسل جعفر والتخلص منهم إلى الأبد، حيث جاءت معلومات فجأة أن هناك ألاعيب كثيرة تحدث في عائلتنا في بلاد الأهرامات، جمعنا المعلومات وعلمنا أن هناك انشقاق ضخم داخل جماعتنا فكان لا بُد لنا من التدخل وإصلاح ذلك الخلل قبل أن ينتشر أكثر ويصبح خارج عن السيطرة. أما عن فارق الشكل بيني وبين أخي فكان أبي له زوجات كثيرة من بلاد عدة. والآن أجلس أريد التحدث معك في أمر هام. هناك أموال ضائعة وهناك أيضًا أدلة تأكد لنا أنك تعلم مكانها ولا تقلق أنا قادمة لك في سلام وسوف أرحل في سلام أيضًا.

علم قيس وتيقن في نفسه أن تلك الغامضة من أعضاء العائلة الأولى ورقمها المميز بكل تأكيد يشير إلى مكانة مرموقة داخل العائلة، ومن المحتمل أن مكانتها أكبر كثيرًا من تيام، ذلك المخادع البارع الذي تآمر

ضد الجميع ولعب دوره ببراعة ملحوظة، المرة الأولى التي يشعر فيها قيس أنه يوجد من استطاع خداعه بهذه الطريقة.

- ماذا تريدين يا أختي؟ ما تبحثين عنه مع تيام أخيك، أخذ الرجل بطاقة أموالكم وهرب بعيدًا ولا أعلم مكانه، من المحتمل أنه انضم إلى النسل الثائر المضاد للعائلة. وقرر أن يصبح أحد أبناء جعفر وقرر التخلص منكم.

ضحكت العضو رقم ثلاثة وعدلت من وضعية قبعتها، ولكن قيس تجاهل سخرية السيدة وأكمل حديثه:

- كما أنني لا أصدقك، الفرعون عضو العائلة طلب مني التخلص من تيام عدة مرات وحينما فشلت جلب قاتلًا آخر لتنفيذ المهمة. أنتِ كاذبة يا أختي، أنتِ تكذبين، تيام كان محقًّا، حصل على البطاقة بالصدفة من حادث ذلك الرجل المسكين..

قطعت السيدة حديث قيس وأردفت:

- أنا القاتلة الأخرى!

صمتت لحظة ثم أضافت.

- ذلك الرجل الذي انقلبت سيارته على الطريق ولم يقترب منه سوى تيام، ودارت كلمات أخيرة بينهما وفي نهايتها منح المسكين البطاقة إلى تيام والأخير أخذها وشرع في استخدامها فعلمت أين مكانه وبدأت رحلتكما؟

تردد قيس من المعلومات التي تعلمها السيدة وما زال يرفض التصديق أن تيام خدعه وكان طوال الوقت عضوًا داخل العائلة وقادمًا من أجل تنفيذ مهمة سرية لصالحها، تسائل قيس في غيظ:

- إذن كل ما حكاه تيام لي في الطائرة كان كذبًا؟ علاقته بزوجته ثم موتها المباغت الخاطئ بسبب المعزوفة وغيرها الكثير والكثير من الأمور..

فكرت العضو الثالث لحظات ثم هزت رأسها وأجابت:

- كان لأخي زوجة بائسة بالفعل، ولكنها مانت قبل عشر سنوات وليس الأسبوع السابق، ذلك اليوم المميز في حياة أخي خرج من بيته متوجهًا لمقابلة المنتج مدحت عوف وهناك كنت انتظره، كان للمرة الأولى التي يعلم فيها تيام أن له اختًا، سواء بالدماء أو أختًا في الجماعة، أخبرته حينها أنني أعلم كل شيء عنه، وأن الأوان آن لأن يعلم مكانته الحقيقة ويكون جزءًا من شيء كبير وهائل، وأخبرته أيضًا أننا سوف نتكفل بأمر زوجته وبالفعل تخلصنا منها وألقينا بها في أحد الميادين الثائرة حينذاك وانتهى الأمر، أما حكاية الحادثة والرجل المحتضر والبطاقة الائتمانية التي أخذها تيام بالصدفة لم نكن متفقين على تلك القصة، كان من المفترض أن يقتل تيام ذلك الرجل في صمت ويجعل الأمر كأنه حادث ويعيد للعائلة البطاقة في سرية، ولكن الرجل كان بارعًا وحينما علم باقي التشكيل الثائر، وأدرك أن الفرعون أرسلك خلفه قرر أن يجذبك إليه عن طريق استخدامه للبطاقة، ومن خلال المطاردات بينكما أدرك تيام مدى براعتك وتميزك وأمر المعزوفة كان مثيرًا للاهتمام جدًا.

شعر قيس بالصدمة من المعلومات التي ألقيت في وجهه وكيف رتبت الأمور أمامه أخيرًا، بالفعل كان دائم الشعور أنه يوجد شيء ناقص في أحاديث تيام، يوجد شيء غير طبيعي، كانت قصته منظمة بشكل مخيف

بشكل أبعد عن الواقعية، كانت مواقف تيام ممتلئة بالصدفة التي كان يضعها الرجل حتى يسد ثغرات قصته الكاذبة، قال قيس مؤكدًا:

- الرجل مات على يد تيام، وليس حادث على الطريق كما قال.

قالت تمارا:

- الرجل مات في حادث افتعلها ودبرها تيام بالكامل.

صمت قيس ولم يعد متعجبًا مما يسمعه. أضافت تمارا:

- اجلس يا قيس ولا تقلق. نحن نعلم كل شيء، كما نعلم أن كلماتك الآن غير صادقة تمامًا ولكننا نراعي ظروفك وعدم صدقك له أسباب مشروعة ومنطقية جدًا.

جلس قيس على المقعد وهمهم بعقل شارد ولسان مرتعش:

- أنا لا أفهم شيئًا على الإطلاق.. أو لا أستطيع تصديق كل هذا، عقلي غير قادر عن فهم ما تقوله.. يا إلهي.

ابتسمت العضو الثالث وعقبت:

- نحن نعلم أنك أخذت البطاقة من تيام دون أن يعلم ذلك، وكان ذلك هو خطأ أخي الوحيد في مهمته، تمكنت من خداعه وسرقتها منه وهو ظل يبحث عنها كثيرًا بعدما عاد إلينا، كان يمكننا إيقافها وأن ينتهي الأمر، ولكن تيام لا يحب طرف خيط متروكًا، فكان لا بد أن يكثف البحث أكثر وكان يصر أن الدكتورة فريدة هي من هربت بالبطاقة وفلاشة الأسرار، فتقرب منها وجلس معها جلسات طويلة سرد فيها الكثير من حكايته

بالتأكيد بعد تنقيح الكثير من المعلومات فيها، وفي النهاية تذكر خدعتك وسرقتك للبطاقة.

ثم نظرت السيدة إلى الكتاب الذي يحمل قصة جعفر وأضافت وهي تشير إليه:

- وأيضًا اختلاسك فلاشة الماضي، ونحن هنا حتى نعدل ذلك الأمر.

تردد قيس لحظات، ثم قال بصوت قلق:

- أرجوكِ يا أختي لا تقولي عبارة تعديل الأمور، كلانا يعلم أن معناها في العائلة قتل من يسبب الإزعاج، لا أذكر أنني قرأت تلك العبارة في مذكرات جعفر إلا وجاء الموت بعدها مباشرة..

ابتسمت العضوة الثالثة لحظات، فأضاف قيس:

- أرجوكِ يا سيدتي دعينا ننسَ كل حدث ونبدأ من جديد، أنا لم أقصد سرقة أي شيء، ولكن الفضول قاتل.. سأمنحكِ البطاقة وفلاشة المذكرات وأيضًا ذلك وورق اعترافات جعفر وسوف نودع بعضها البعض وننسى أننا تقابلنا نهائيًا.

- أنت لم تسرق البطاقة يا قيس، أنت استحققتها، العائلة دومًا تبحث عن ذوي المواهب المختلفة والخارقة وأنت كذلك، لا تقلق يا رجل أخبرتك انني جئت لك في سلام وسوف أرحل في سلام، العائلة ترحب بك وتعرض عليك الانضمام إلينا، وبالتأكيد أنت تعلم أنه لا يوجد مجال للرفض، لقد تم اختيارك، مرحبا بك في عائلتنا.

لم يكن يتوقع قيس تلك النتيجة ولا تلك الكلمات كما أن نبرة صوت تلك الزائرة بثت في قلبه الكثير من الأمان.

- هل صرت منكم؟ أنا عضو في العائلة الآن؟

أجابت العضوة الثالثة وهي تشير إلى مذكرات جعفر:

- ليس بعد، ولكن قريبًا سوف يحدث، أنت تعلم بكل تأكيد أنه توجد طقوس تتم

لذلك الأمر.

تذكر قيس القسم الذي قرأ عنه في المذكرات والاجتماعات واللقاءات الجنسية

وغيرها من الأمور الغريبة، فهمهم:

- هل ما زالت الطقوس تحدث؟

هزت السيدة رأسها ثم قالت:

- ليست مماثلة لها تمامًا، الأمر تطور بعض الشيء، ولكن الجوهر واحد.. قريبًا

سوف تعلم كل شيء.

ابتسم قيس ابتسامة هادئة وفجأة جذبه الفضول ليسأل عن رفيقه المخادع

الذكي في تلك الرحلة.

- وماذا عن تيام؟ هل سأقابله مرة أخرى؟ لا أقصد ما فعله، لا أقصد أنه تمكن من

خداعي بتلك الطريقة.

قالت تمارا:

- تيام من الإدارة العليا في العائلة، له أمور هائلة يهتم بها ولا يهبط من مكانته إلا حينما يشعر أنه يوجد أمر ما يمس الكيان أو يهدد بقاءه.

لم تكن تلك إجابة واضحة بشأن تيام فحاول قيس معرفة المزيد.

- حسنًا؟ الواضح أنني لن أرى تيام مرة أخرى إلا في حالة وجود كارثة تمس العائلة.

- يوجد أمر آخر يمكن حينها أن تقابله مرة ثانية..

بدت الزائرة كأنها لا تريد الاستطراد والتوضيح أكثر فلم يحاول قيس الإصرار في أخذ معلومات غير مصرح بتداولها.

- بحثنا عن تاريخك يا قيس وعلمنا الكثير عنك، علمنا أنك كنت تعمل لصالح رجل الأعمال يدعى مازن الحسيني..

قيس يبغض ذلك الاسم كثيرًا ولم يتوقع قط أن يذكر اسمه الآن، فأجاب بكلمات حذرة ومختصرة للغاية:

- فعلت.. كنت أعمل لصالحه، ولكن الأمور تعقدت.

ابتسمت العضوة الثالثة وأردفت:

- تعقدت الأمور بينكما فجعلته يسمع لحنك القاتل.

لا يفهم قيس ما علاقة مازن الحسيني بالعائلة الأولى ولماذا يتردد اسمه في كل مكان يذهب إليه.

- زوجته أو طليقته عرضت عليّ الكثير من الأموال مقابل التخلص منه. هل يمكنك أن توضحي لي أمرًا ما؟

لم ينتظر قيس إشارة العضوة الثالثة وأضاف:

- ما علاقة هذا بذاك؟ أقصد ما علاقة العائلة الأولى وانضمامي إليها بتاريخي مع مازن الحسيني؟

أجابت تمارا:

- ليس مصرح لي بالإجابة الآن، ولكنني سوف أخبرك بشكل شخصي حتى لا تحاول البحث عن الإجابات بأن ترتكب أمورًا غبية تسبب لك المتاعب الآن.

تنهدت العضوة الثالثة ثم أضافت:

- الزوجة التي أخبرتك بضرورة التخلص من قيس. هي المنتجة السينمائية سامية أو سمية.. عضوة في كيان سري يدعى أنخ أو مفتاح الحياة.. أنخ جماعة سرية هدفها الرئيسي هو التنقيب عن الآثار والأشياء القديمة في الوقت ذاته وصل إليهم الخبر أن لدينا مذكرات تاريخية مهمة عن العائلة الأولى، ويظنون أن لدينا كتبًا عظيمة عن السحر والعلوم التي لم تصل للبشر بعد، علوم جاءت إلينا من الأقوام السابقة التي انتهت حضارتها.

- وهل هذا حقيقي! هل العائلة تمتلك هذا النوع من الأسرار؟

- صدقني يا قيس أنا لا أعلم، كل شيء وارد، المهم أن أنخ تحاول دائمًا البحث عن أفراد عائلتنا والتخلص منها وكشف أسرارنا، حينها كنا للمرة الأولى نسمع عن ذلك الكيان الصغير والغريب، فجندنا مازن وجعلناه يدخل كيان أنخ استعدادًا لهدمه، وحينما كُشِفَ أمره جندت أنخ زوجته فتخلصت من مازن عن طريقك..

- يا إلهي، مازن كان من الجماعة؟ من العائلة الأولى!

- تأكدنا وبحثنا كثيرًا وعلمنا أنك نفذت الأمر بدون أن تعلم شيء عن أبعاد الموقف..

- حاول أن يوضح لي الأمر قبل أن أقتله، ولكنني نفذت الأمر.

- نعلم..

إجابات السيدة المختصرة لم تشجع قيس على طرح المزيد من التساؤلات.

- حسنًا ماذا الآن؟

- سوف نخبرك بموعد اجتماعاتنا حتى تنضم إلينا، وهناك سوف تعلم مهامك بالضبط التي سوف تكون كلها تحت عنوان «تدمير عائلة أنخ».

أشارت الزائرة إلى هاتف قيس وأردفت:

- سوف تجعلهم يسمعون اللحن المزعج.

نظر قيس إلى هاتفه وقال:

- كل شيء مرتبط ويكمل بعضه البعض.

ابتسمت الزائرة وقالت:

- نعلم بشأن المعزوفة ونعلم كل من سمعها منك، تأثرنا بغضبك وأنت تقتل والدك، وأيضًا باستعراضك وأنت تدمر مازن الحسيني وسطوة وجوده وذلك المسكين البائس ريتشارد الأمير.. أنت حالة تستحق التأمل والدراسة وكذلك الاحترام يا قيس، سوف تكون أخًا لنا، والآن أين الفلاشة والبطاقة الائتمانية؟

- حسبتك قلتِ إن البطاقة ستظل معي.

- يا أخي سوف أمنحك بطاقة جديدة عليها اسمك، لا تقلق، لا لم يعد يوجد داعي أن تبقي في ذلك المنفى، عد إلى وطنك وافخر بانتمائك للعائلة الأولى، وقريبًا سوف نتواصل معك من أجل أمر مهم.

نهضت السيدة وتحركت مغادرة نحو الباب، أوقفها قيس متسائلاً:

- وماذا عنه؟

لم تفهم السؤال الغريب في اللحظة الأولى، ولكنها سرعان تداركت الأمر.

- تقصد العضو رقم مئة؟

أومأ قيس فقالت الغريبة وهي تشرع في الرحيل:

- صاروا ملعونين جميعًا بالقمر! قصتنا لم تنتهِ بعد..

لم يفهم قيس الإجابة فسأل:

- من يكون العربي المجنون؟ وكيف جمع تلك الأساطير والحكايات؟ هل جميعها حقيقي دون حبكات درامية وإضافات مثيرة لإضفاء عمق في تاريخ العائلة؟

أضافت السيدة وهي تضحك من فضول عازف الشيطان:

- من المحتمل أن يكون أرسل لك كتاب اعترافات العضو رقم مئة وأحد عشر سوف يكمل لك الحكاية، وأيضًا يوجد أمر آخر لعلك تريد المزيد من الحكايات عن شاربي الدماء.. ولكن يوجد شرط آخر لإتمام الانضمام إلى العائلة.

- ما هو؟

- أن تكتب اعترافك بالكامل.. نريدك أن تكتب لنا كل شيء حدث في حياتك وكل خمس سنوات سوف تسلم إلى أرشيف العائلة جزءًا جديدًا من حكايتك

- ولماذا نفعل ذلك؟

- رغم أنه لا يوجد لماذا في عائلتنا، ولكنني سأجيبك.. تلك الاعترافات والحكايات هي من تحفظ عائلتنا وتنقلها بأمان من جيل إلى جيل، المستقبل الأبديّ لا يأتي سوى من ماضٍ أذليّ ممتد.

- وماذا عن العربي المجنون؟ ما حكايته؟

ابتسمت السيدة ورحلت دون رد.

***

داخل سيارتها جلست تمارا وتنهدت للحظات، ثم أخرجت هاتفها وأرسلت رسالة إلى أخيها:

«تم تجنيد القاتل! أعلم أنني لا أزال غير مقتنعة بذلك القرار، الفتى فضوليّ للغاية ويسأل كثيرًا عن الماضي.. وكلانا يعلم إلى أي شيء يقود ذلك الفضول صاحبه.»

رد برسالة تيام متجاهلًا كلمات تمارا وقلقها:

«لا عليك، أنا أسيطر على الوضع!»

تنهدت في ملل ثم أضافت رسالة أخرى:

«أبونا يريدك، قبضوا على عابر الأزمان عابد أديب ويريدون منك تولي أمره، أتذكر يوم دخلت العائلة يا أخي وكاد أن يُكشف أمرنا على يد صحفي مغمور ما؟ لولا أنني طاردته وتعاملت معه لكان انكشف أمرنا.. أخي أرجوك خذ حذرك فلم أعد قادرة على مطاردة المتسللين..»

أجاب تيام سريعًا:

«لا تقلقي، كل شيء سوف يكون على ما يرام، إلى اللقاء يا أختي..»

أحمد شوقي مبارك

٢٠٢٢

امسح الرمز لاستئناف حكاية العائلة مع ثلاث قصص إضافية:

قصة قربان أخير

قصة العربي المجنون

قصة صلاة الخميس

قصة العائلة لم تنتهِ بعد!

صدر للكاتب:

رواية: لعنة جسام- كش ملك الكتاب الأول

رواية: الثالوث- كش ملك الكتاب الثاني

رواية: السامري- كش ملك الكتاب الثالث

رواية: العائد من الموت

رواية: اعترافات كاهن- الاعتراف الأول

رواية: اعترافات كاهن- الاعتراف الثاني

رواية: لعنة العهد- الاعتراف الأخير

رواية: آخر العقارب

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَــاد، الإلكترونية. ©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.
ميساء طه

تأكد من أنك تقرأ هذه الرواية من قناة ضــاد الرسمية على تطبيق تيليجرام:

تمّ تجهيز هذا الكتاب الإلكتروني
بـواسـطـة:

لجميع الكتب، المجانية والمدفوعة،
وكل ما تشتهيه قريحتك الثقافية.

يجد تيام نفسه فجأة وسط دائرة غامضة من البشر، منظمة سرية تسعى للسيطرة والنفوذ عبر طقوس مروعة، نفاذ إلى أعماق ذلك العالم المجهول، عالم الأخوية السرية، ببراعة تتكشف خيوط الأحداث لتكشف مصير العالم في ظل ما يحاك له.

أحمد شوقي مبارك:
كاتب وصيدلي مصري من محافظة الإسكندرية مواليد 1994 ، و هو مؤلف ثلاثية كش ملك (لعنة جسام-الثالوث السامري)

t.me/twinkling4